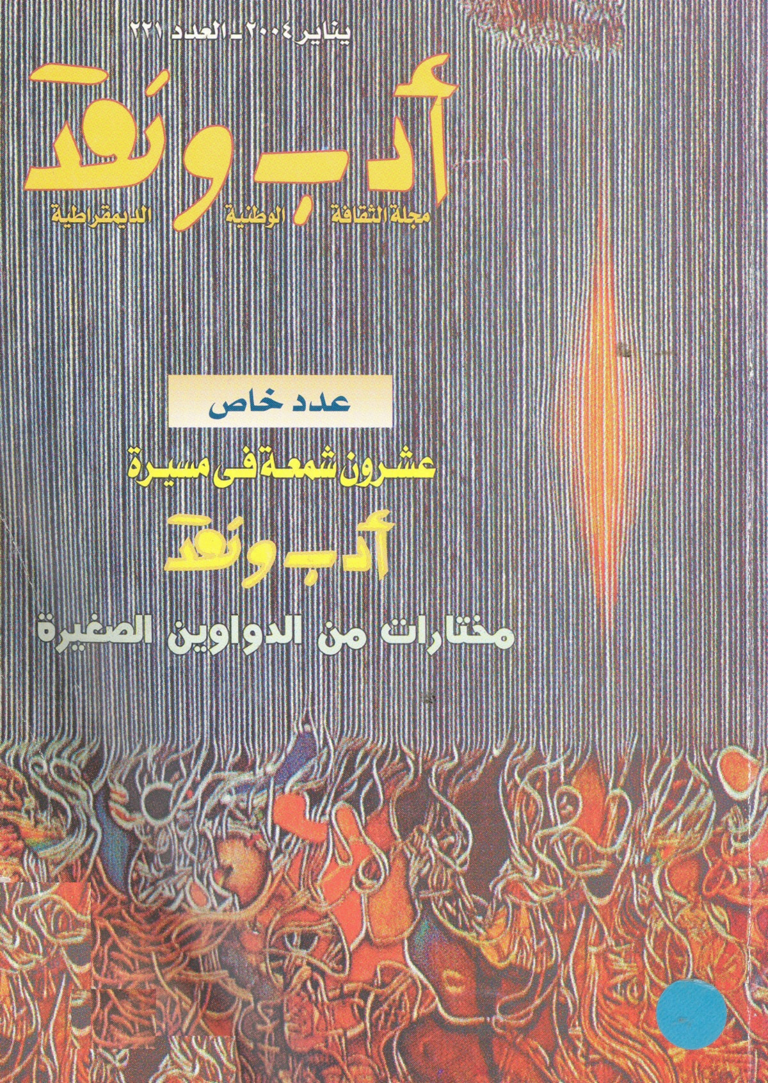
يناير ٢٠٠٤ - العدد ٢٢١

أدب ونقد

مجلة الثقافة الوطنية الديمقراطية



عدد خاص

عشرون شمعة فى مسيرة أدب ونقد

مختارات من الدواوين الصغيرة

هذا العدد مهدى إلى اسم:

لطيفة الزيات، عبد المحسن طه

بدر، ملك عبد العزيز، محمد روميش،

مجدى حسنين

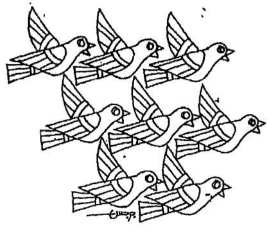
أدب ونقد

مجلة الثقافة الوطنية الديمقراطية

شهرية يصدرها حزب التجمع الوطنى التقدمى الوحدوى

تأسست عام ١٩٨٤ / السنة الواحدة والعشرون

العدد ٢٢١ / يناير ٢٠٠٤



الاشتراكات لمدة عام

باسم الأهالي / مجلة [أدب ونقد]: داخل مصر ٥٠ جنيها

البلاد العـــربية ٥٠ دولارا / أوروبا وأمريكا ٧٥ دولارا

الطباعة

شركة الأمل للطباعة والنشر

الأعمال الواردة إلى المجلة لا ترد لأصحابها سواء نشرت أو لم تنشر

يمكن إرســـال الأعمـــال على العنـــوان البريدي أو البريد الالكتروني:

adabwanaqd@yahoo.com

موقع [أدب ونقد] على الانترنت: adabwanaqd.4t.com

ترجو المجلة من كتابها ألا يزيد عدد صفحات المادة المرسلة عن عشر صفحات أو ثلاثة آلاف كلمة

المراسلات : مجلة (أدب ونقد) ١ شارع كريم الدولة / ميدان طلعت حرب / الأهالى

القاهرة / هاتف ٢٨/٢٩ /٥٧٩١٦٢٧ فاكس ٥٧٨٤٨٦٧

المحتويات

أول الكتابة

فريدة النقاش

انقضت الآن عشرون عاما منذ صدور العدد الأول من «أدب ونقد» فى يناير ١٩٨٤ برئاسة تحرير الناقد الدكتور «الطاهر مكى» ،ومنذ ذلك التاريخ جرت مياه كثيرة فى نهر الثقافة الوطنية الديمقراطية .وفى أنهار حياتنا وحياة العالم أجمع، تحققت انتصارات شحيحة ، ووقعت هزائم فاجعة . وكان علينا طيلة الوقت أن نطير مع الأفراح العابرة ونتعايش مع الآلام العظيمة ، لكننا لم نسقط أبدا فى فخ التوجع والشكوى بل واصلنا العمل دون انقطاع كمن يحفر نفقا باتجاه الشمس.

حين بدأنا كان حزب التجمع يحبو نحو عامه العاشر .وكان قد تأسس فى أبريل ١٩٧٦ كمنبر لليسار ضمن الاتحاد الاشتراكى العربى التنظيم الواحد للنظام الناصرى، وتحول التجمع إلى حزب فى نوفمبر ١٩٧٦ حيث دعا برنامجه التأسيسى إلى الدفاع عن المكاسب الاجتماعية لثورة يوليو وتطويرها ديمقراطيا وذلك بعد أن كانت سياسة الانفتاح الاقتصادى على طريق حرية الأسواق وعبادتها قد بدأت قبل عامين ، وبعد شهرين من تحول المنبر إلى حزب انطلقت هبة يناير الشعبية سنة ١٩٧٧ ، إذ خرجت الجماهير الكادحة من الاسكندرية إلى أسوان تتظاهر احتجاجا على رفع أسعار السلع الشعبية تطبيقا لروشتة صندوق النقد الدولى ، وتتفنن فى تأليف الأغنيات والشعارات والهتافات.

وكنت قد اتفقت مع الزميل«عيد عبد الحليم» أن يقوم بجمع الهتافات والقصائد مجهولة المؤلف التى رددتها الجماهير فى طول البلاد وعرضها يومى ١٨، و١٩ يناير للتعرف على مكونات الوجدان الجماعى والروح الشعبية وأحلام المصريين فى ذلك الحين ، خاصة وأن هذه الهبة والإبداع الذى أطلقته كانت تتويجا لسلسلة طويلة من الاحتجاجات العمالية والطلابية بدأت منذ هزيمة يونيه ١٩٦٧ احتجاجا على الأحكام المخففة لقادة سلاح الطيران سنة ١٩٦٨ .وهم القادة المسئولون عن كارثة تدمير الطائرات المقاتلة المصرية على الأرض وحرمان الجيش والبلاد كلها

من الغطاء الجوى وهو ما مكن العدو الإسرائيلى من تحقيق انتصار سهل فى ستة أيام لايضاهيه فى سهولته وفداحته إلا سقوط بغداد فى أبريل عام ٢٠٠٣ دون مقاومة، ثم كانت المظاهرات الطلابية عام ١٩٧٢ التى طالبت بتحرير الأرض المحتلة وكان الرئيس الراحل« أنور السادات» قد أعلن ذلك العام عاما للحسم بعد أن اتخذ قرارا بوقف حرب الاستنزاف التى كانت قد أرهقت العدو أيما إرهاق وجعلته يرسل بالوسطاء لوقفها وتوج طلاب جامعة القاهرة هذه المظاهرات باعتصام فى ميدان التحرير فى عز برد يناير حيث قضوا الليل فى الميدان يتناقشون ويغنون إلى أن وصلت سيارات الشرطة عند الفجر ليلقى عليهم القبض جماعات ، وكتب «أمل دنقل» حينها قصيدته الجميلة «أغنية الكعكة الحجرية» وحين وقعت هبة يناير بعد ذلك بخمس سنوات كتب « أحمد فؤاد نجم» قصيدته كل ما تهل البشاير من يناير كل عام يدخل النيل الزنازن ، يطرد الخوف والظلام ، ودخلت القصيدتان بجدارة فى تراث أدب المقاومة الجديد الذى تواكب مع تعرفنا الحميم على شعراء وكتاب فلسطين الذين عاشوا تحت احتلال ١٩٤٨ وغابوا عنا وكان اكتشافهم مفاجأة سعيدة من محمود درويش لاميل حبيب، ومن توفيق زياد سميح القاسم لمحمد على طه وآخرين انضم إليهم بعد ذلك مبدعو الأرض المحتلة عام ١٩٦٧ وعلى رأسهم الراحلان «فدوى طوقان» ومعين بسيسو ثم الأجيال الجديدة التى قدمت إضافات مدهشة فى قوة التعبير وجمالياته متجاوزة على عكس التوقعات صور الشعارية والخطابة السهلة، مضيئة الطابع الإنسانى الأصيل لروح المقاومة وللصلابة الأخلاقية للشعب الفلسطينى المبدع الذى حول خشونة الحياة إلى فن والحجر إلى آلة موسيقية ،وقد كانت ثقافة المقاومة موضوعا ثابتا فى «أدب ونقد» عبر السنين تجلت نصوصا أدبية أو أفكارا.

أقول دافعنا كحزب ومجلة عن انجازات يوليو عند التأسيس، وفى المؤتمرين الأول والثانى للحزب واصلنا هذا الدفاع، ثم كان التراجع الشامل الذى دخل بالبلاد إلى مرحلة تبعية شاملة للولايات المتحدة الأمريكية سياسيا واقتصاديا ، عسكريا وثقافيا فتواضعت معه أهدافنا القصيرة وبرامجنا وأصبح شعار المؤتمر الثانى للحزب، التحرر من التبعية والطفيلية والفساد «إلى أن وصلنا للمؤتمر الرابع الذى وضع برنامجا جديدا بعنوان« المشاركة الشعبية حيث الديمقراطية بمعناها الشامل هى المدخل الصحيح لتغيير الأوضاع إلى الأفضل فى ظل استئثار طبقة، بل فئة اجتماعية محدودة بنتائج عمل طبقات أخرى يجرى استنزافها وامتصاص دمها وعرقها وينغلق فى وجهها باب السعادة وإن لم نتخل أبدا عن الاشتراكية كفكرة وهدف وقد أخذنا فى «أدب ونقد» نسهم فى تعميق مساراتها على الصعيد الفكرى والجمالى فى زمن المشهد ما بعد الحداثى على مستوى الثقافة والخيارات السياسية فى أوروبا وأمريكا، والزمن ما بعد الاستعمارى فى آسيا

وافريقيا وأمريكا اللاتينية وارتطام الزمانين مع الأطروحات الامبريالية لكل من «فوكوياما» و«هنتجتون» حول نهاية التاريخ وصدام الحضارات.

وكان اغراء نهاية التاريخ الذى سيتوقف لدى فوكوياما عند الرأسمالية الليبرالية شديدا بعد سقوط المعسكر الاشتراكى .إذ كان هذا السقوط هو الحدث العالمى الأبرز فى نهاية القرن العشرين ،ذلك بعد أن كانت ثورة أكتوبر الاشتراكية أول ثورة ظافرة على هذا الطريق قد انطلقت فى أوله وألهمت البشرية كلها حين أسهمت فى تفجير ثورات التحرر الوطنى فى القارات الثلاث، واحتمت هذه الثورة بدولة العمال والفلاحين الوليدة ،وتطلع المكافحون من أجل العدل والحرية عبر المحيطات والبحار والصحارى والغابات إلى الشعب الروسى الباسل الذى استطاع – هو الجائع الفقير لكن المفعم بالأمل – أن يهزم التدخل الامبريالى الذى جند جيوش أربع عشرة دولة لوقف تقدم الثورة الاشتراكية وأخذ الشعب يبنى الدولة الجديدة إلى أن سقطت فى نهاية القرن ..اعتصرنا الألم مع سقوط المعسكر الاشتراكى وافتضاح أشكال القمع ومصادرة الحريات التى ارتبطت بحزب واحد تسببت البيروقراطية فى تعفنه ، وامتصت روحه وحيويته وعزلته عن الشعب ، وكانت «أدب ونقد» من المجلات العربية القليلة جدا التى تابعت بهذه الدرجة أو تلك ولادة الظواهر الأدبية والفكرية الجديدة التى واكبت «البيروسترويكا» ثم الانهيار وعبرت عنه دون أن تنسى المجلة أبدا ذلك التراث العظيم للفكر والأدب الاشتراكى المؤسس ، ودون أن تتخلى عن الاشتراكية كهدف رغم أن أيديولوجية الملكية الخاصة وثقافتها غزت العالم وولدت حالة من الافقار الروحى والأنانية والبحث الكلبى عن المنفعة الذاتية فى كل الطبقات والبلدان حيث بدا كأن الاشتراكية اندحرت إلى الأبد.

وفى عصرنا الميديا الذى تشكل بصورته الجبارة على مدى العشرين عاما أصبحت كل جوانب الثقافة لا إذاعة الأخبار فحسب حكرا على حلقة صغيرة لكنها تتوسع بانتظام فى صورة شركات خاضعة للملكية الخاصة التي تعيد انتاج تصوراتها ورؤاها على صعيد كونى عبر الإعلام ، الذى أصبح أيضا مصدر ثقافة ملايين البشر ، وتزداد قوة الإعلام كثقافة فى بلدان كبلداننا ما تزال فيها الأمية الأبجدية واسعة الانتشار ، ومع مفردات ثقافة الربح بأى ثمن وخدمة المنفعة العارية أصبح ميراث الأوهام البرجوازية راسخا فى زمن تبدو فيه لعبة القوى العالمية أكثر تعقيدا حيث تصعب الإحاطة بها وتفكيكها ونقدها : وأصبح الوصول الشعبى إلى الاحترام البرجوازى الزائف هدفا لدى فئات وطبقات واسعة بسبب قوة الميديا وجبروت الصورة وأكاذيبها المبهرة والمثل العليا التى تخلقها وان تخلقت ببطء مثل بديلة.

ومع ذلك فإن الوعى الجديد فى أوساط الكادحين والشباب على الصعيد العالمى نجح فى أن

يعبئ ثلاثين مليونا من البشر ساروا في مدن العالم في اتجاه مضاد للأكاذيب ولعمى القلب الذى خلقته الامبريالية المتوحشة ساروا يرفضون العدوان على العراق وما يزالون يرفضون نتائج هذا العدوان يتظاهرون ضد الاحتلال الأمريكى- البريطانى للعراق والصهيونى لفلسطين.

بدأنا منذ عشرين عاما وكان تحرير فلسطين هدفا للعرب، وها نحن الآن نتطلع إلى تحرير العراق أيضا.

فما هو التحرير .. إنه أولا ثقافة ديمقراطية نقدية .. تصورات وابداع وعلاقات جديدة أساسها كرامة الإنسان رجلا أو امرأة أسود أو أبيض أو أصفر فقيراً أم غنياً وكنا وما زلنا نعى أن فى كل ثقافة هناك عناصر ديمقراطية منفتحة على الآخرين وعناصر أخرى جامدة تنتج كل أشكال الأصوليات المنغلقة التى تدعى نقاء خالصا لا يعرفه التاريخ ، وإن كان هذا الادعاء قد كلف الإنسانية ثمنا باهظا حين انبعثت الأصوليات النازية والفاشية والصهيونية والإسلامية وانطلقت جميعا من فكرة الخصوصية المتفوقة قومية كانت أو دينية واستغلت الحروب والنزاعات تحت راياتها.

فكانت القراءة التاريخية الواقعية للنصوص الدينية أحد الهموم الدائمة لأدب ونقد وما تزال لا فحسب باعتبارها قضية فكرية سياسية هى أحد عناوين ومواضيع الصراع بين القديم والجديد ، بل باعتبارها ضرورة للتغيير المجتمعى العميق الذى يؤسس لمفهوم المواطنة فالمواطنة مفهوم حديث يرتبط بحقوق الإنسان ولا علاقة له بالدين.

وكانت الرأسمالية الطفيلية المتحكمة حتى الآن فى مصائرنا قد أطلقت العنان للإسلام السياسى أو الدعوى أو المسلح فى صراعها ضد قوى اليسار ، فأخذ دعاته من شيوخ وسياسيين يغزون كل مؤسسات المجتمع ويطبعونها بطابعهم الدينى والإسلامى وعلى الطرف الآخر احتمى المسيحيون بكنائسهم وأخذوا يبحثون عن وشائج عقيدية لاحضارية مع كل من أوروبا وأمريكا المسيحيتين خوفا من النفوذ الطاغى لجماعات الإسلام السياسى ، وحدث شرخ عميق جدا فى بنية المجتمع المصرى على أساس دينى، هو المجتمع الذى كان قد عرف مفاهيم المواطنة فى بداية القرن الماضى فأخذ يعود القهقرى إلى التميز الدينى الذى أخذت رموزه تتبارى وهى تمشى فى الشارع ، وتحتل الجامعات فى شكل أسلمة العلوم ، وتشغل مساحات تتسع باضطراد فى الإعلام وترتبط بشبكة عالمية هى الوجه الآخر لفكرة «هنتجتون» عن صدام الحضارات لاحوارها وتفاعلها،وتقدم من حيث لا تدرى أو لا تدرى سندا للمشروع المحافظ الجديد فى أمريكا الذى يقسم العالم على أساس من الدين عائدا بالصراع الطبقى العالمى إلى مرحلة قديمة إندلعت فيها الصراعات الإثنية والطائفية والقومية وهو المشروع الذى تجرى الآن عملية اختبار جديدة له فى

تقسيم العراق الذى كان قد عرف المواطنة أيضا فى بداية القرن العشرين وينقسم الآن إلى طوائف وأعراق وملل دينية وتتصارع القوى التقدمية والمستنيرة فيه للحيلولة دون هذا الطابع الطائفى فى الحياة والسياسة .

ما يزال أمامنا الكثير لكى ننجزه فى الأعوام المديدة القادمة من عمر «أدب ونقد» ..ما يزال علينا أن نواصل كما كنا قد فعلنا دائما اكتشاف الأصوات الجديدة وتقديمها إلى الحياة الثقافية ،والتعرف على التيارات الجديدة فى الفكر والنقد وادراجها فى سياق الصراع العالمى بين الأمبريالية والتحرر بين العمل ورأس المال، وقراءة التحولات الجديدة فى بلدنا والوطن العربى كما يعبر عنها الإبداع الأصيل الذى يفضح الزيف والسفالة حيث تنسج الرأسمالية المتوحشة والاستبداد شبكة واسعة جدا من الأكاذيب والأوهام وتنظمها تنظيما جيدا عبر الاحتيال والتلاعب بالكلمات الشعبية لاخضاع الجماهير معنويا وتقليم أظافر أى حركة للتغيير الشامل .والإبداع الأصيل وهو يغوص لأعمق الأعماق ينعش هذه الروح الوثابة العفية الغافية ،وهو يهمس ليغير الدنيا وإن شئنا أن نظل اشتراكيين .. أن نسعى وراء حلمنا العظيم فعلينا أن نقوم بمهمتنا هذه على أفضل نحو.. أن نفرح باحتضان كل هؤلاء الجدد القادمين من الألم والخراب معفرة وجوههم لكن لؤلؤة المستحيل تختبئ فى مكان من القلب وسوف تهب نفسها حتما للصادقين والأصلاء المجتهدين القابضين على مبادئهم رغم كل شىء.

«أدب ونقد مجلتكم تتطلع فى سنواتها القادمة لمزيد من محبتكم .وكل عشرين عاما ونحن جميعا بخير.

افتتاحية

التسلط بالتنوير والسعى إلى إنتاجه

د. على مبروك

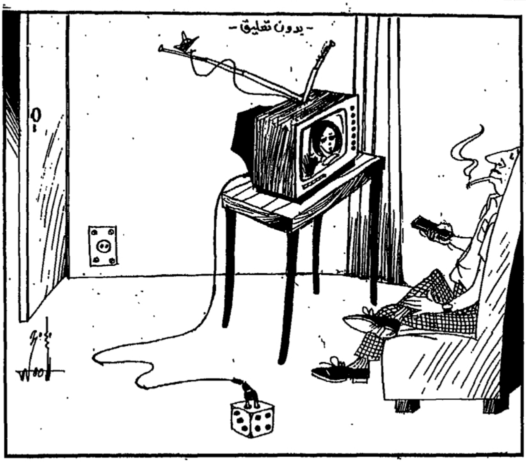
حين عدت بعد غياب قصير، قيل لى أن أحدهم من مطبوعة «المحيط الثقافى» قد ترك رقم الهاتف راجياً أن تتصل به لأمر هام .. وهكذا فإننى قد هاتفت الأستاذ «أشرف عويس» الذى أعلمنى أنهم بصدد إعداد ملف عن «التنوير» وأنهم يرجون مساهمتى كاتباً، بل إنهم -ولما يعرفون عنى من ميل للنقد- سوف يسعدهم أن يكون اسهامى ناقداً.

أسعدنى أن مطبوعة تصدر عن مؤسسة ثقافية رسمية كبرى فى مصر ، تسعى إلى طرح السؤال- ناهيك عن إثارة «النقد»- حول «التنوير» الذى بدا وكأنه استحال ضمن فضاء الثقافة فى مصر إلى ما يشبه ألاقنوم الأقدس الذى تستحيل مقاربته نقداً أو حتى فحصا ، ابتداء من دور كان قد استدعى لأدائه فيما عرف بالحرب ضد الإرهاب.

كان جوهر إسهامى أن« التنوير» قد انبثق مسكونا بالتوتر بين« قوة السلب» من جهة و«منطق الهيمنة» من جهة أخرى ،ولسوء الحظ فإنه بدا أن «منطق الهيمنة» قد راح- على مدار لحظات شتى من تاريخ التنوير- يعطل« قوة السلب» ويقصيها من حقل الاشتغال ،وعلى نحو لا يتعلق فقط بالفلسفات الوضعية التى انحازت كليا لمنطق الهيمنة على حساب قوة السلب التى أزاحتها هذه الفلسفات تماما ترسيخاً للواقع القائم وتثبيتاً له، بل ويتجاوز إلى فلسفات تكاد أن تكون قد انبنت كلياً على قوة السلب وحدها كالهيجيلية والماركسية اللتين آلتا- فى التاريخ والممارسة- إلى التضحية بقوة «السلب» وترسيخ «الهيمنة» ، وإذ «التسلط» هو نهاية منطق الهيمنة ، فإنه يكون هذا هو نهاية التنوير الذى هزمته «الهيمنة» ، وأزاحت منه السلب ، فانحرف وخان رسالته.

ولسوء الحظ فإن مأزق التنوير- فى السياق العربى- انما يتأتى من انبنائه بحسب منطق الهيمنة ، ولاشئ سواه، وأعنى هيمنة الخارج (دولة أو نموذجاً معرفياً) على الواعى الذى لم يكن مطلوباً منه إلا الامتثال والخضوع .. وهكذا فإن وعياً يشقيه التسلط» كان يرجى منه انجاز «التحرر».

حين سلمت المادة مكتوبة لأصحاب المحيط ،فإنه لم يخطر ببالى أن «محيطهم» سوف يضيق ويتضاءل أمام مساهمتى ، لكننى سعدت حقا لأن ما مورس معى من تسلط التنوير انما يؤكد على قوة تحليلى وصلابته.



عند نفس التوقيت تقريبا كانت السيدة «فريدة النقاش» تسألنى مشكورة اسهاماً للعدد التذكارى المائتين من «أدب ونقد» . ولم أتردد فى الكتابة ناقداً- وبقسوة- عن «اليسار» الذى راحت سفائنه تحط أيضا على مرافئ التنوير.

كتبت منددا «أن التنوير الذى جرى إدراكه -أخيرا- كشرط للتنوير قد ظل يستدعى نفس مقولات التنوير الأوروبى ، بل ونفس لحظاته ،وهو ما يعنى أن النموذج الأوروبى للتنوير يظل هو المهيمن على وعى اليسار ، الأمر الذى كان لابد أن يحيله إلى«سلطة» راحت تفرض نفسها بديلا لسلطة المركز التى سقطت فى الشرق، وبفعل عوامل ذاتية لم يكن لليسار دور فيها.. وبالطبع فإن التنوير ، إذ ينبثق هكذا ، كفعل يقوم شرطه خارجه (أى فى سلطة النموذج الأوروبى) ، فإن ذلك يعنى أن يستمد سلطته من خارجه ،ومن دون أن يصنعها أو ينتجها . بل إن اليسار هكذا، إنما يعيد إنتاج «التنوير» كمركز بديل للمركز الذى هوى هناك».

حين قرأت ما كتبت على صفحات مجلة «اليسار» «أدب ونقد» -ورغم خصوصية النقد وتحديده ، أدركت الفارق جلياً بين من يتسلطون بالتنوير» وبين من يسعون حقا إلى إنتاجه.

افتتاحية

صباح الخير يا مجدى

حلمى سالم

كان مجدى حسنين آسراً برقته ، وجهده . أما نحوله وضعف بنيته فكانا لافتين لكل ذى عينين ولعل الفترة التى شاركنى فيها معاونة- رئيسة التحرير فى «أدب ونقد» كانت فترة من أخصب سنوات المجلة، فلم يقتصر دوره على شئون سكرتارية التحرير، بل امتد إلى المساهمة الثابتة المفيدة فيها: من تحقيق صحفى أدبى أو فكرى إلى التقرير الموثق المتابع ، ومن عرض لكتاب إلى حوار مثير ثرى مع مفكر أو أديب . فضلا عن قصصه التى كانت تنشر من حين لآخر فى المجلة، حاملة العديد من سماته الشخصية : الهدوء والبساطة والدهشة الطفلية وفقر العيش والحزن العميق.

هذه القصص التى صدرت بعد ذلك فى كتاب بعنوان «ناصية سليمان» ، عن المجلس الأعلى للثقافة ،معبرة عن ضنا الفتى، الفتى الذى ناء كتفه بالأعباء ، وبلغ الإنهاك من قلبه الشاب مبلغا باهظا ،حتى نام ذات ليلة ، ولم يستيقظ فى الصباح ككل صباح سابق.

رحيل مجدى حسنين كان بالغ الإيلام لكل زملائه ،فى «الأهالى» و«أدب ونقد» ،وقد ظللنا لفترة طويلة ، بعد فراقه ، مشدوهين ، غير مصدقين أن مجدى لن يدخل علينا ببسمته الوانية، ولن يتنقل كالعصفور المجهد بين المجلة والجريدة والمصادر الخارجية المختلفة ،ولن نغضب- أحياناً- منه ، ولن نفرح -غالبا -به.

وكان من المفارقات القاسية ، أننا -بعد أن كنا نعد الدواوين الصغيرة معا- أعددنا -بعد رحيله ديواناً صغيراً من قصصة القصيرة ،عنه.

يا مجدى ، «أدب ونقد» ،فى عيدها العشرين تقول لك: نفتقدك أيها الفتى النحيل ،

مثلما نفتقد عبد المحسن طه بدر ولطيفة الزيات وملك عبد العزيز ومحمد روميش ، أولئك الذين أعطونى رائحتى المميزة ،وجعلونى «عائلة» لا مجرد« مجلة».

افتتاحية

انتحارى الذى عشته بشغف

على عوض الله كرار

مع سينما الستينيات أحببت اللقطة الكبيرة، خاصة تلك التى تتبعها لفظة: جداً .. فهى تشعرك بأنك متفرج على درجة من التميز والخصوصية ، وتستحق أن تمنح عقب احتلال (النهاية) لشاشة العرض، درجة الأستاذية التى ستمارسها على المشائين من أقرانك عشاق حفلات الساعة السادسة ، فوق أرصفة شوارع صفية(أم المصريين) ، وسعد (الزعيم)،وحسين (السلطان) ، ودنيال (النبى) ،والحرية (طريق) ،وفيها يقع الآن (مركز الإبدا ع).

كل من رافقك ، أو سبقك ، أو دخل بعدك نفس الفيلم ، هم تلاميذ عليهم أن يتحملوا مسيرتك الطويلة (التى لا علاقة لها بماو) ، والتى ينتهى فصلها الأول برشوة بسيطة هى سندوتشات من الفول والفلافل وكيس من المخلل أشتريها من أجل تطويل القعدة على المقهى ،وتطوير ما سبق أن قلته عن الفيلم ولقطاته الكبيرة التى هى مفاتيح لفهم الشخصيات ، وتبيان ماخفى من علاقات بينها.

مشاعر المتفرجين تتعامل بسرعة البرق مع أسطح اللقطات القريبة ملتقطة الأثر النفسى العام فحسب ،ولا تتجاوز مرحلة التأثير الطفولى العاطفى، وتدخل مرحلة التحليل إلا مع شخص مثلى فكر فى الانتحار عديداً من المرات بسبب رسوبه المدوى فى مدرسة الأوائل التى يحتل طلابها كليات القمة حينها.

وكان للغريزة أن تستبدل الانتحار الحقيقى بانتحار مجازى هو إقامة شبه دائمة داخل ظلام دور العرض السينمائى (حتى صرت وقتها مرجعية هامة للسينما المصرية والأمريكية) .وبعد انتهاء العروض السينمائية الثلاثة ،والمتعاقبة وراء بعضها البعض ، كنت أخذ معى ، من قلب الشاشة البيضاء ، أصدقائى الجدد : أنور وجدى وشكوكو ،وليلى مراد ، وفريد شوقى ، ومديحة يسرى ،وعبد العزيز محمود، والريحانى ، وشرفنطح ،وحسن فايق ، وزينات صدقى ،وبشارة واكيم ،وفاتن ،والنابلسى ،وسمعة ،وحليم وغيرهم ممن يملأون عشر صفحات على الأقل، وطبعا كان بصحبتنا طرازانات هذا الزمن : ليكس باركر ، وجونى ويسمولر ، ومعنا كذلك صاحبات الشفاه المكتنزة بالإثارة ،وفى مقدمتهن : برجيت باردو ، وصوفيا لورين :(أمة من المحبة اصطنعتها السينما

خصيصا لي).

وعلى الطريق الواصل ما بين دار العرض ومنزلى أظل فى حوار دائم معهم، وحين أدخل البيت الذى لا ينغلق بابه إلا أواخر الليل تضع أمى طعامى فوق(الطبلية) ، وأتربع جالساً ، واضعا محتويات طبق الطبيخ فوق الرز المفلفل فى الطبق الآخر، وبسرعة أقلب (بتشديد اللام) المحتوى الجديد ،وعلى نظام اللقطات السينمائية أدب(بضم الدال) ملعقتى فى منطقة يغلب عليها اللون الأخضر ، ملتقطات كرات البازلاء المصحوبة بقليل من الرز متفاديا قطعة صغيرة من البطاطس ،وفى المرة التالية أدبها فى منطقة يغلب عليها اللون الأصفر ،وفى كل الأحوال كانت دماء عشيرة(سكارليت أوهارا) فى فيلم(ذهب مع الريح) تتخلل مفردات الطبق المأكول لآخره ،وبعد فاصل قصير وسريع من المضمضة ودلق كوب من ماء فى جوفى ، آخذ الشاى إلى غرفتى المحتشدة بالأحبة القادمين من خلف بياض الشاشات ، نستكمل معا (على إيقاع المؤثر الصوتى لرشفات الشاى) الحكايات التى وقف زمن العرض السينمائى دون انسيابها إلى ما لا نهاية.

وياويل أى واقع حقيقى معيش يحاول اقتحام غرفتى ، حتى ولو كان هذا الواقع هو مجرد تحرك مقبض الباب ببطء ولأسفل ، أو مجرد صوت ينبهنى إلى أن ثمة صديقا عند باب الشقة يسأل عن وجودى من عدمه ..هنا تكون الصرخة المدوية والتى هى بلا سبب منطقى عند أمى وأشقائى وجيرانى وبناء على تكرار هذه الصرخات قرر نساء الحى اللواتى اقتربت قلوبهن من قلب أمى ، أن يدخلنى إلى أفلامهن : بعضهن قرين بناتهن من اشتياقاتى .وبعضهن نصح أمى بأخذ منديلى إلى شيخ سره باتع .وجارتنا المسيحية نصحتها باصطحابى إلى طبيب أمراض نفسية وعصبية.

طبعا لم أبال بالطريقة الأولى، فطالما أمتلك جسداً ما زال يكتسب كل عام عدداً من السنتيمترات طولا وعرضا ،وهن كذلك ، فبالتأكيد سوف تضيق مساحات الفراغ الخجول بينى وبينهن ، حبذا وأن الفقر لعب دوراً استراتيجيا فى صنع البنية التحتانية للمهمة الغرائزية الجليلة ، وأسكنا بيوتا ضيقة الغرف ، غالبا ما يكون بينها وبين منطقة الطبخ والاغتسال ممر ضيق إلى حد الاختناق الخالق لمشهد تحرشى عابر وعامر بشفتين اتسعا (بما بينهما من ضحكة شبه مكتومة إلى حجم شاشة سينمائية ..(أثمة علاقة طردية بين الغرائز البشرية واللقطات الكبيرة) ..(دائما ،وفى لحظة ما، غالبا ما تكون فارقة ، تقتحمنا تفصيلة صغيرة ، تستولى على مجالنا البصرى وتأخذه بعيداً عما عداها هى).

والطريقة الثالثة (الذهاب إلى الطبيب) سوف تجعلنى مجرد مادة جيدة يفككها الطبيب بأسئلته ، ثم يعيد توليفها عبر أسئلة أخرى يخضع ترتيبها لمنهج يخصه هو، لا لتسلسل زمنى يخصنى أنا، وبذا يصبح هو كاتب السيناريو ، وأيضا المتفرج الوحيد الذى لا يدفع ثمن التذكرة ،وفى ذات الوقت يستمتع هو دونى برؤية جديدة للقطات كبيرة من حياتى أعتقد هو أنها مفاصل شخصيتى ، هذا فضلا عن الانقلاب الاستثنائى الذى يحدث إذ يتحتم على المادة التى هى أنا أن تدفع كافة التكاليف كأى منتج سينمائى ، غير

أن هذا الأخير يستحصل مرة أخرى على رأسماله وفوقه فائض من الأرباح. الطريقة الثانية هى الأفضل بالنسبة لى(الذهاب إلى شيخ سره باتع) ، فهو كمهنة وطقوس يتداخل وعالم الأفلام السينمائية ،وهو ممثل ردئ ك(جون واين) ، ولكنه يكسب الكثير ، ويكسب (بتشديد السين) كلا من مساعديه فى العمل الكثير أيضا من المال والطعام ،ولكن شيئا داخلى كان يصدق ، مثلما كنت أصدق أن(محمود المليجى) شرير بطبعه (مع الانتباه إلى اختلاف المداخل لعملية التصديق) التى لوحدثت توقفت رغبتى فى الذهاب إلى هذا الشيخ.

أنا من العشاق القليلين فى العالم الذين يحبون السكنى على الحافة بين واقعين متضادين (الشاعر عبد المنعم هو واحد من هؤلاء) غير أن شبابيكى تظل على الخيال ، و(منورى هذا هو الخليفة الواقعية التى أحب تنظيفها كل يوم من كافة أنواع الكائنات المذكورة فى كتب مادة الأحياء المقررة على طلاب المدارس الثانوية ..هكذا أيضا فى قاعات العرض السينمائى : هناك خلف الجماهير الجالس كل فرد منها مع نفسه وحدها ،وعلى علو لا تطوله الزوايا الطبيعية لانحناءات الرقبة : هناك ، ولأعلى توجد كوة مربعة وصغيرة ، ينفذ منها نور يتمدد طولا على هيئة منشور رباعى قاعدته هى شاشة العرض المنبثق منها فى التو واللحظة كائنات انتظر ظهورها بفارغ الصبر ، وأصبح فى نعيم من هدوء سبق أن عاشه الكون قبل ظهور الكائنات الحقيقية.

هذا الهدوء يأخذنى من مكانى فى آخر الصفوف مقتربا من قلب الشاشة ، حيث تتوالد من اقترابى هذا لقطة كبيرة تكون مدخلى إلى عملية التماهى مع الكائنات النورانية الآخذة أشكالا تشبهنا ..نفس هذا الأمر تقريبا حدث مع أحد الآباء المؤسسين للسينما العالمية (المخرج الأمريكى جريفت) الذى وقع فى غرام نجمته السينمائية ، فظل دون أن يدرى يقترب منها بالة التصوير : هى غارقة فى أداء دورها التمثيلى ، وهو غارق فى حبها ، صار لا وصل بينه وبينها سوى متحركين فى وجهها هما شفتاها وعيناها (صوت وصورة تجمعهما حركة) ، هى إذن صارت سينماه الخاصة جداً، بيد أن جريفث الذى يهمه جمع مزيد من الأموال لتطوير السينما الخاصة بالجماهير ارتأى أن يضيف ما استمتع به هو إلى ما قدمه من قبل للوحش القابع فى ظلام الصالة وله ألف عين وعين كان جريفث بهذه الطريقة الشبقية الغريزية قد اكتشف طريقة تصويرية جديدة تنتهى بلقطة سحرية هى(اللقطة الكبيرة).

هذا هو ما كان يحدث معى وعيناى ملتصقتان فى سقف الغرفة المدهون بجير أبيض ، إما أن تقترب عين(زبيدة ثروت) منى حتى لا يبقى منها سوى عينيها وشفتيها ، أو أقترب أنا منها ،وفى سبيل استحضار هذه اللقطة السحرية أعقم جوفى من كل قلق فى التفكير فى أى دقيقة قادمة، وبالتالى أكون هادئا جداً ، خاصة ونور الظلام الهش داخل الغرفة يحيطنى والأصدقاء الطالعون من بكارة الشاشات مخترقين حوائطى وسقفى المنخفض والوحيد ، ينتظرون انتهاء تتر القبلات بينى وبين خضار عين زبيدة ، لنلعب جميعا معا لعبة تفكيك الحياة وإعادة خلقها من جديد.

وآه لو انقض صوت عال أنتجه واقع لم أعد أنتمى إليه ، على فضائى المنشغل أنا وإياه فى رسم وتلوين ومنتجة الحكايات . لحظتها انقلب من حال متطرف فى الهدوء التام إلى حال متطرف فى العصبية والغضب والتهور والجنون.

خسرت كل أصدقاء الطفولة

ومعظم أصدقاء الصبا

وكسبت انتحارى

أرانى الآن وبشكل طفولى ، أدخل فى أفلام خفيفة مع صديقات إطمأنن إلى البشرة النوبية ، والشعر الذى يسرع الخطى نحو نهار تشويه رماديات عوادم الطرقات ومصانع الثورتين الصناعيتين ، وبذاك، وهاك ، وصلت مشاعرى إلى يوتوبياها الخاصة ، فرأيتنى أحب الجميع ،من (استفان روستى) و(توفيق الدقن) حتى(عيد عبد الحليم) زميلى فى (أدب ونقد) .ولكن يبدو أن انقلابا رجعيا سيحدث فى حياتى خلال سنواتى القادمة.

من مسافة ٢٠٠ كيلو متر أحببت (أدب ونقد) اشتريتها عدداً وراء عدد . وسرقتُ منى أيضا عدداً وراء عدد . وكنت سعيداً فى الحالتين . أنا هكذا .لقد قرأتها وهضمتها وتمثلتها ، فهى إذن غير موجودة أمامى كواقع، والواقع صرت أبغضه .هى أنا الآن ، كذلك مجلات الرسالة والهلال والفكر المعاصر وفصول والثقافة الجديدة والكاتب والطليعة ودراسات اشتراكية (طبعا أنا أتحدث عن الاصدارات التى واكبت مسلسلات الفشل التى صرت أعشقها) وربما لهذا السبب لا أحب(ليس على الإطلاق) أن أحتفظ بالمجلات التى بها أعمالى من قصص ونقد سينمائى ، على الرغم من أنى أكون شديد الحرص على شراء نسخ منها تكفى أصدقائى المثقفين الذين انتهوا من الحياة الجامعية وبدأوا حياتهم الصومعية (بتشديد الصاد، وتسكين الواو) داخل المقاهى وقصور وأندية وهم يناقشوننى ، وأكون فى ذات الوقت ، فى حال أسعد ، ذلك لأنى نسيت ما كنت كتبت. ولكن كما ذكرت يبدو أن انقلابا رجعيا سيحدث : صارت اللقطة القريبة تؤلمنى ، وعلى أن أتحايل على نفسى ، وأعتقد أن مجلة(أدب ونقد) بكل ما يحيطها من جدران وناس هى فيلم سينمائى جميل أعيشه الآن.

افتتاحية

للجنة أبواب أخرى

عيد عبد الحليم

إلى« أدب ونقد» صانعة الدهشة

الصبى الذى تجاوز العاشرة
ولم يعرف من الأنبياء
سوى من ذاق طعم اليتم
وتفرقت أحلامه بين القبائل
ظل هكذا،،
يخط على الجدران
ما يشبه العصافير
ثم يمحوها بدمعة
..
جاء ذات صباح
فى قطار الدلتا
يرافقه خيال مراهق
ويمامة بجناح وحيد
ونصف صورة
لأم تطعم دجاجها
مع أطفال أربعة
فى بيت ريفى
تحرسه صورة أب
مات قبيل الأربعين
مخلفاً شرخاً فى الجدار
عجز البناءون عن مداراته

فلم تقدر الشمس–بعدها–
أن تمنح الملائكة
بعض الضوء
أو بعض الحنين
كبر –الآن –الصبى
تعلم أن الميادين
بقدر الفراغ الذى بين الأصابع
وأن الذى بين فتى وفتاة
أخطأ فهمه الأسلاف
فأوله ساكنو الصباحات الجديدة

**

الصبى
الذى يعرفنى –جيداً–
وأعرف من ملامحه
ما خلفته الشوارع والقرى
يعطى–الآن–شروط المحبة
ويصف التى بين القلب
وباب الرؤية
بصانعة الدهشة
فى وجه التأويل
ويعلن : أن للجنة أبواباً أخرى

افتتاحية

نصف المعركة

أحمد الشريف

منذ ما يزيد على سنة ونصف السنة وأنا أعمل فى مجلة« أدب ونقد» . يجدر بى القول ، إننى كنت متواصلاً مع المجلة قبل ذلك ، سواء عن طريق الكتابة فيها أو المشاركة فى الندوات .

بالطبع عندما اشتغلت بمواعيد شبه ثابتة والتزامات صحفية كمتابعة الأحداث الثقافية وعمل ملفات وكتابة مقالات وتعليقات فى حيز ثابت، كنت فى حالة من القلق والتفكير المستمرين . قلق على كتبى ومشاريعى الإبداعية التى أخطط لها وتحتاج إلى وقت وجهد وفترات طويلة من التأمل والمعايشة والإعداد .قلق أن يتحول ما أكتبه بفعل السرعة إلى شئ عادى ، يقرأ كمتابعة أو مقال ،منزوعا منه سحر الكتابة الجيدة وخصوصيتها وتفردها .

مع الوقت وبفضل مؤازرة أصدقاء وبفضل شعورى بتأثير العمل الذى أقوم به، آثرت الاستمرار وفى يوم قرأت هذا الرأى للكاتب الانجليزى «تشارلس مورجان» والذى عبر إلى حد كبير عن علاقة الكاتب بالصحافة.

وضغط صحيفة كبيرة– مجلة– بتحديداتها للحيز والوقت ونهيها عن الإسراف فى الذاتية ،وتطلبها للوضوح، وما توجبه إلى أولئك الذين تهبهم سلطانها من شعور بالمسئولية ، تنظيم له قيمة لا تقدر ، فإن المرء لا يكتب بتراخ أو تسامح مع نفسه إذا كانت آلات ميدان الطباعة تدمدم فى أذنيه ، وإن المرء ليذهب كل ليلة بعزم على أن يكتب ،فى حدود الوسيلة المختارة ، أحسن مما كتب فى أى وقت قبلها ،وهذا أكثر من نصف المعركة..



هذه الدواوين الصغيرة

ص ص ص ص

اختارت « أدب ونقد » أن تحتفل بنفسها وبقرائها ،عن طريق إعادة نشر مجموعة مميزة من « الدواوين الصغيرة» التى نشرتها فى السنوات العشر الأخيرة . هذا « الديوان الصغير» الذى ابتكرته « أدب ونقد » (واستعارته بعض الصحف والدوريات بعد ذلك) لتقدم لأصدقائها نصاً مميزاً كاملاً ، من التراث القديم (العربى والعالمى) أو من التراث المعاصر (العربى أو العالمى).

كان هدف هذا الاختيار أن نقدم لأصدقائنا القراء -فى عيد صدورنا العشرين- مزيجا من الفكر والمتعة، من النقد والجمال ،من الثقافات المختلفة والمنظورات المتنوعة.

بالمودة كلها ، نقدم لقرائنا ، هذه المائدة العذبة الشهية التى هى « مختلف ألوانها »

« أدب ونقد »



الليل .. الرحم

قصة: محمد روميش

.. الأظلاف الستة عشر تضغط وجه الأرض فى قبلات متلاحقة ثقيلة ، تاركة خلفها صفين من الأقواس الهلالية.

الحرب سلاح المحراث يشق سطح الأرض . قبل أن تندمل شفيرتا الخط المشقوق يسقط وسطه سرسوب منتظم من حبات الذرة فيلتئم عليها -كالرحم- يتهيأ لميلاد جديد.

كف عم الوهيدى اليسرى تمسك بيد المحراث خشية أن يسيخ أعمق من العمق الذى يريده لإنبات الذرة . يمناه تضم أحبالا طويلة تنتهى إلى آذان بقرتين سوداوين ، يخلص نسبهما بحكم المجاورة فى الزمان والمكان ، إلى نسب عم الوهيدى .بالأحبال الموصولة يعيد الرجل البقرتين أو أحداهما إلى الخط إذا ما عن لايهما أن تنحرف عنه.

على الكتف اليمنى ، تستقر قلقة فرقلة تلسع -عند اللزوم- الجلد الأسود الغطيس .وهنا يبذل العجوز مجهودا منتبها: ليحفظ توازن العمق والاستقامة للمحراث ، وليشرخ ظهر الحيوان بالسوط، وقبل أن يلفت منه واحد من خيوط العملية، يرتفع صوته مخاطبا واحدة من البقرتين يميزها بشدة ودودة من أذنها.

-لا أرجعى .

وترجع البقرة بعد أن تنفض رأسها نفضتين :علهما تململ أو مشروع تمرد مضى عليه ستة آلاف سنة ولم يتحقق ، على أنهما -النفضتين- لا تخلوان من عتاب دينى صامت مستسلم قدرى حزين.

على هذه الأرض نفسها رعى عم الوهيدى جاموسة المرحوم أبيه، كانت على الأرض هيشة ، تغطيها أعواد الغاب الرفيع وأشجار الطرفة والسمار ويفرش سطحها حصير من النجيل والحلفاء ،وفى الحوافى شجيرات السريس والجلاوين، ويركد دائما عمق اصبعين من الماء يسمح لسمكة أو ضفدعة أو ثعبان مائى أن يعمر بالحياة سطح الهيشة .. ويحار العجوز.. الآن، وكيف أن الآباء الهبل تركوا أرضا واسعة كهذه هيشة، لمجرد رعى الجاموس الاعجف والبقر الناشف. لم يقتنع بينه وبين نفسه أن الأرض يفصلها عن البلد مشوار طويل .

كان صغيرا لا يستطيع أن يرفع مقطف السباخ إلى ظهر الحمار يوم تعارك مع الواد بركات ابن ستهم . يومها أتلم العيال -تاركين البهايم تنحت أوراق النجيل . خلصوا رقبة بركات من قبضتى الوهيدى «بقوله روحى لى يا هوه»..

-كانت الأرض دى كلها هيشة يا سيدى الوهيدى ؟ السؤال من امرأة ابنة عبد الشاطر .مناسبة من تلك التى ينتظرها عم الوهيدى ليفئ عليها مما رآه بعينيه هاتين .. البلد ، أكوام

السباخ ، الدور التى كانت تشغى بالرجال والخير وصفصفت على امرأة ، بيوت عائلة السوالم ، التى سمع من ابيه أنها قامت كالنبات الشيطانى ، أسماء الصف الطويل من نظار الوقف ، لكن الوهيدي- اليوم- لا يصلح لاسترخاء المصطبة ، ولف السيجارة ، وولعى يا بنت عودين حطب فى الطاجن ، وهاتى كنكة القهوة وفنجان البيشة.

التفت الرجل إلى امرأة ابنه ، الجهامة المنبسطة التى أستأثرت بتفاصيل الوجه.. مطلة.. تجاهل السؤال عن تاريخ الأرض، استفسر عن كمية تقاوى الذرة المتبقية..

عندما استدار المحراث يشق الخط الثانى كان عم الوهيدى قد قارب على الانتهاء من حرث أرض الهيشة وتحويلها إلى حقل ، طاويا دون قصد صحيفة ربما هانئة ورخية من حياة الهيشة..

أدار البهائم ..فى وسط الجسر الذى أقامه السيد أبو دراع ، سلط عم وهيدى سلاح المحراث . شخلل بالفرقلة. الأظلاف غاصت فى الأرض لترفع الحد بين أرض عم الوهيدى وساحل السيد أبو دراع.

من وسط الهيشة التى غدت حقلا ، رفع عبد الشاطر ظهره . كان يعالج بصبر خلع جذور الغاب . قبل أن ينحنى لمح المحراث . البقر يتعثر فى شق واحد.

-واد .. واد يا فتح الله ..على الطلاق أبوك أشطر رجل فى البلد.

فتح الله لا يرد .الشغل لم يدعكه . فلاح خفافى . ظهره يكاد ينكسر نصفين ..مع أنه يعمل فى أرضهم لكنه ينتظر غطوس الشمس. على أنه- فتح الله- حقيقة لا تهزه صفة الشطارة، فى أبيه بالذات ،ومن أخيه عبد الشاطر على وجه أخص .فى أعماقه أن أخاه عبد الشاطر- بشعره الأسود الهبابى الخشن يغطى جسمه ورأسه وجهه ، بكلماته القليلة المتقطعة- جنس آخر. دون أن يشرح عم الوهيدى فكرته من ضم قطعة الأرض التى يزرعها السيد أبو دراع ، فهم عبد الشاطر كل شئ . ليس بالتحديد فهم ، أحس الفكرة، كالجسم المقرور يحتمى بحجرة دافئة تلفحه كل حرارتها إضافة ساحل السيد أبو دراع تخلق حقلا مربعا يستهوى الشهوة والفتنة فى روح عم الوهيدى ،كما تستهويها فى روح ابنه عبد الشاطر ، الوهيدى الثانى.

عبد الشاطر لم يتذوق ما يمكن أن يسمى معارضة أخيه فتح الله لفعلة أبيه ،عبد الشاطر لا يدرى اتيان ما يشكل دفاعا عن فعلة أبيه . إرادة أبيه كسقوط المطر، كموت طفل صغير ..اللهم لا اعتراض .

-جاتك الغم ياد يا فتح الله.

أحس عبد الشاطر حيود فتح الله .. تضايق .

-واد يا فتح الله .. أقولك ..والله ..ما أنت نافع.

أمسك عبد الشاطر بذقنه ، تغطيها إبر الشعيرات كجلد القنفدة الخط الثانى شقة عم الوهيدى فى ساحل السيد أبو دراع. حامد لمح السيد أبو دراع مقبلا جريا قاصدا عم الوهيدى .

-حوش يا عم عبده!

قبل أن يصل السيد أبو دراع إلى عم الوهيدى كان سوط الفرقلة قد لف حول رقبته ، وقبل أن يقذف السيد أبو دراع السكينة الطويلة أم حدين والتى يربطها دائما على اللحم لصق فخذه ،كان عبد الشاطر قد أحاطه بذراعيه من الخلف . كانت فأس قد هوت على رأسه ، وانبثقت نافورة دقيقة من دم أحمر. التقت عيون فتح الله وحامد . مذهولين كل يسأل الآخر مرتعبا.

فك عبد الشاطر ذراعيه . سقط السيد أبو دراع . ابن الليل التائب.

أجال أبو دراع فى من حوله من الرجال عينين مغبشتين ..رآهم لا بسبب انعكاسهم على إنسانى عينيه ، علها صورة قديمة تخيلها وانبعثت من داخل مخه كما انبعث على طرف لسانه أو من مراكز النطق من مخه جملة أعدها قبلا.

-معلهش ..جزاة اللى يعيش نعجة بين الديابة.

-٢-

فتح الله تنقله الخطوات الحائرة. الليل يقارب أن ينتصف فى عينيه الظلام رفع الفاصل بين البلد والحقول ، بدت له الجهة كلها قطعة بلا نهاية من السواد ، الدور ذاتها نامت ، الكلاب على السطوح وفى الحارات تتناوب النباح.. تترصد الغرباء والذئاب وسيدنا عزرائيل الذى يهبط ويقبض الأرواح . العفاريت انطلقت من عقالها تحت الأرض . القطط والكلاب والأرانب التى تنسل من أركان الحارات ومن فوق أكوام السباخ والتنفس الذى يسمع ولا يرى مصدره ..حقيقتها فى يقين فتح الله عفاريت متخفية. فى القاعات المغلقة .الرجال والنسوان والعيال فى سابع نومه .على المصاطب المسطوحة ، على قباب الأفران ، على الحصير ، على قش الأرز ، المهم أن عيونهم أغلقها النوم، واستسلمت أجسامهم للراحة. خارج الدور لا حياة لغير القطط والكلاب والعفاريت والذين تعكرت دماؤها ولم تصاحب الفراغ فى استسلامها للنوم مع غطسة الشمس.

..من خلف جسر المصرف انحدرت عصبة من الرجال بندقية ميزر معلقة فى كتف كل منهم . الجلاليب مقروطة عند الركب ينسلون لاتحس بهم النسمة نفسها . اعترضهم كلب عم السبخاوى ، تشممهم بصبص بذيله . تسلقوا السطح. سعل واحد منهم انتظاراً أن ينادى عم السبخاوى، البر أمان. أعطى الرجل الإشارة ، هبط الآخرون . كوز الشاى على قوالح الذرة المشتعلة فى الطاجن . جوزه نحاسية صفراء سحبت .مع المعسل تحترق تعامير الحشيش بدأ التحفظ على أولاد الليل. المطاردة- رغم كل أمان -دقات قلبهم. عم السبخاوى . خفير الحكومة القديم لم يفته قلق ضيوفه.

قدم لهم الغريب . فتح الله بن عم الوهيدى . فتحوا سيرة السيد أبو دراع . حزن بين أن يكون عميقا أو مألوفاً -يرتسم على أوجه الرجال- إيمانهم أن القتل قدرهم. تطاردهم عقيدة أن من قتل يقتل.

فى انتظارهم الطويل للخاتمة يقتلون إذ يقع واحد منهم . الحزن ليس من أجله وحده . العقيدة اللعينة تطاردهم ، وتتحقق ، عم السبخاوى-هامش من هوامش رجال الليل لا يحس عمق كربهم . شد واحد منهم نفسا من الجوزة . طرد الدخان من منخاريه كالبندقية أم روحين . وجه السؤال إلى فتح الله .. من قتل أبو دراع . فتح الله مأخوذ. بدا له جلساؤه من الرجال صورة خرافية لابى زيد الهلالى سلامة، الصور البشرية تملأ ملامحهم ، لكنهم أولاد ليل، لا ينامون فى المغرب مع الفراغ .خال رءوسهم مخلوقه واقفة لاتعرف الانحناء لأحد. يستيقظون مع حلول الظلام.

فى الليل -لا الأرض- ملكهم. أحاديث أبيه مع السيد أبو دراع .والله يا ابنى ما فى أحسن من اللقمة الحلال.. الضحكة أطلقها أبو دراع مجلجلة . أبو دراع يطلق كلماته بلا خوف أو لجلجة .حلال والا حرام يا عم الوهيدى .. لاتؤاخذنى ، أنت رجل كوالدى ، يعنى عيلة السوالم لامؤاخذة كانت الأرض أرض أبوهم . أنا سمعت وأنت أدرى أنهم ناس أغراب من البلد. كل أهالى البلد شغالين عندهم .جابر افندى أبو سالم ياما ضربنى بالشلوت وأنا بعزق فى أرضه بالفأس . بعد كده على الحرام ياعم الوهيدى بنفسه كان يقوم يولع لى السيجارة . يا عم الوهيدى .ان عشت نعجة تاكلك الديابة. ياما اشتغلت فى أراضى أولاد الكلب . ناس تخاف ولا تختشى .عم الوهيدى لا يعترض ، لكن الحلال والحرام بينهما التفرقة جليه كالخيط الأبيض والخيط الأسود. اسمع يا عم الوهيدى.. أنا بلا زوجة ، لكن على الطلاق أرض أولاد الكلب حرام، أسمع ، أسمع يا رجل يا عجوز... رد على .. أرض السوالم تعبوا فيها ، عرقوا فيها ، كل أهالى البلد نسوان ورجال وعيال، شغاله عندهم ، فين الحلال وفين الحرام . الرجل العجوز يدعك عقب سيجارة فى سمك فتلة دوبارة أحترق حتى آخره بدعكه بطرف سبابته فى أرضية المنضرة. يلتفت إلى السيد أبو دراع . يشب من على الأرض ، انزلقت عباءته الامبريال من على كتفه .لم يهتم بلمها ، اسمع يا واد يا سيد ، أسمع ، رد على.. يعنى يا سيد عدت رجل، يعنى يا سيد عدت بتفهم ، عدت بتعرف ، رفعت رأسك ، رد على، رد على يا سيد ، عينى فى عينك ، فهيم بن زينه لما مسكوا مراته مع جابر أفندى أبو سالم- وفهيم قام سم بهايم جابر أفندى ، مين قتل فيهم بن زينه ، رد ، رد على سيد، عينى فى عينك. فتح الله لا يعرف بالتحديد من الذى قتل فهيم بن زينه .القلق المتسائل الذى يطوف بفكر فتح الله يعوزه التعبير عنه . كلمات أبيه تنطلق كطرقعة الفرقلة. أنكر فى التحقيق أنك ضربت ، حامد هو الذى ضرب. حامد ابن الدار ، أمه طرف قرابه ، لا يهم أن كانت قرابة بعيدة ولد تربى

كابن ..كان فتح الله يحب السيد أبو دراع .كان يستشعر نوعا من الفرح . سيصيران جارين فى الأرض. سيسمع منه حكايات الليل. لكن يا عم سيد أنت خلاص ، قصدى شغل الليل سبته؟ لكن يا عم سيد من قتل فهيم بن زينه ، مين قتل فهيم بن زينه انتقاما لحساب جابر أفندى . أنت لست كأخى عبد الشاطر ، عبد الشاطر طيب ، راجل غيظ ، يحب أباه موت ، يخلق الشغل فى الغيط من تحت الأرض، قبل الفجر ديله فى أسنانه إلى الغيط ، راكب حمار ، ساحب بقرة، الفأس فى يده كالسيجارة فى يدك ياعم سيد ، يحب طين الأرض أكثر من حبه لحريمه ومرة كان يتغذى وأنسل عود، رسيم مع اللقمة، لم يرمه ، ضحك ، يا واد يا فتح الله كله خلقة ربنا ، البنى آدمين والبهائم والسريس والبرسيم .. فكرته الثابتة أن فتح الله خسران.

هانم- فى غندرة- تلقى تحية الليل على الرجال . الحديث الدائر عمن قتل السيد أبو دراع . فتح الله ، صدقونى ، لم يقتل السيد أبو دراع . الذى قتل هوولد شغال عندهم .حامد. فتح الله يؤذيه من دفاع هانم عنه وصف حامد بالشغال. حقيقة حامد ليس ابن عم الوهيدى ، ليس أخا لفتح الله أو عبد الشاطر، هو يعمل فى الغيط والبيت، هو منهم أو ليس منهم مسألة لم تطرح على ذهن فتح الله، لكنه لم يخطر بباله أن حامد شغال . وقف عم السبخاوى ووقف فتح الله. على طرف المصطبة جلست هانم تعد الشاى. دعت فتح الله مشاركة الرجال الأكل . عاودت تأكيد إتهام حامد بقتل السيد أبو دراع . عم السبخاوى وقد فتحت له أبنته الطريق اندفع. حامد هو القاتل ، ولد ضائع بلا أصل ، بلا فصل ، ولدته أمه فى بيت الحاج هو القاتل ، ولد ضائع بلا أصل ، بلا فصل ، ولدته أمه فى بيت الحاج وهيدى ، ماتت وهو مفعوص ، فتح الله ابن ناس .عم السبخاوى يسترضى ابنته هانم بمدحه فتح الله . فتح الله لم ترقه الطريقة التى عرض بها الموضوع أمام الرجال . فهو لا يعرف من الذى قتل .حامد سواء كانت فأسه هى التى ضربت أم لا؟ واحد من العائلة . صمم على أن يدفع عن حامد الاتهام المؤكد .. الجرأة لا تواتيه سكت.

الصمت الذى يلف الجهة كلها أمتد إلى مصطبة عم السبخاوى داخل القاعة ، شخير عيال عم السبخاوى ، سمع من حجرة مجاورة، طال الصمت . طلب أحدهم من فتح الله أن يستأذنهم .تدخلت هانم من القاعة الجوانية. خففت ما ظنته اساءة إلى فتح الله . ملعون أبوهم ، ليس فى الأمر سر، وراهم سرحة، عينهم على مواشى واحد غلبان سيسرقونها الليلة . نددت بالرجال. فتح الله ليس غريبا عن بيت السبخاوى ، مع أن الضوء ضعيف أو منعدم فقد لمح فتح الله سنة من أسنان هانم مغطاة بالدهب البراق تلمع خلف شفتيها.

-٣-

فى الصباح إذ أنكرت هانم من أن فتح الله ينام فى القاعة الجوانية لم يكن قصدها أن تكذب

على الرجل الكبير الذى تهيئ نفسها لان تدور فى فلكه . خوفها من جهامة عم الوهيدى ألجمت لسانها . تخلى عنها تفاصحها . فتح الله بالداخل بين اليقظة والنوم خمن تقريبا ما حدث، ثم قرصه صوت رشاد بن جابر أفندى يسأل هانم عن اخواتها . رشاد أفندى يشتم أولاد ستين الكلب . يتساءل مستنكراً ألا يسرحون إلى الغيط دون أن يوقظهم من النوم عشرين مرة، ويسوقهم من الدار إلى الغيط كالحمير.

تدخل هانم القاعة لا تدرى كيف تتحدث إلى فتح الله تريد أن تؤدى ما يشبه الاعتذار . سى فتح الله عارف. رشاد بن جابر أفندى كأهله. ناس لسانهم طويل . ملعونة لقمة العيش التى تذل الناس. السيد أبو دراع هج من وشهم . هانم اقترحت على أبيها أن يقطع علاقاته بجابر أفندى . وأن يعمل اخوتها فى أراضى الفلاحين كله عمل باليومية . عم السبخاوى اتهم ابنته بنكران الجميل . العمدة يا هانم خيره راكبنا ، شغل السبخاوى خفيرا فى الحكومة، وانتقاه من بين الخفراء ،كان تابعه كظله . هانم تسقط هذا الجزء من دفاع أبيها عن جابر أفندى . يحس فتح الله أن فتاته محاصرة. لا يهم، المهم أنت يا هانم ، بعدك لا شئ يهم ، أمسك بيدها . تفحص وجهها فيه من أبيها سمرته من أمها صفرة باهتة. أحس به لامعا نظيفاً . تطل من أعلاه عينان . أطال فتح الله التحديق . النور الساقط من فتحة السلم على صحن الدار منعكس على وجه هانم. العينان سودوان . الحاجب رفيع . الرموش سوداء طويلة . الرموش تتلاقى وتنفرج . الكحل الأسود كان قد صبغها فى الصباح الباكر قبل أن يستيقظ . سألها هل تعرف أن عينيها حلوتان . هانم بين أن تقف عند الحديث عن حلاوة عينيها ، تخرج من الحفرة التى أوقعها فيها أبوها وأخوتها وأمها ، وبين أن تطلب منه أن يمر سريعا . عليه أن يعرف أن فتاته مؤدبة . البنت ياسى فتح الله بأخلاقها . فتح الله يؤمن على الحكمة التى ألقت بها هانم . أمسك بيدها . تأمل عينيها . سأل هل حقا تحبه . هانم تعترض أن يرحل بها فتح الله بعد الزواج إلى بلاد بعيدة. رجل الليل بلا بيت . لا يملك نفسه. يخرج للسرحة لا يعرف متى يعود. وقد لا يرجع أبداً . هانم ابن الليل رجل .. رحم الله سيد أبو دراع ..لم يعجبه حال عائلة السوالم مع أهالى البلد . هانم تعود يشدها خوفها . أنت فين ياسى فتح الله وأنا فين . هو يكره منها هذه اللغة أو هذه الكلمات . هى تلف بالكلمات تخفى بها رفضها متعللة بالغنى والفقر . الناس أولاد تسعة. ضغط على يدها . تأوهت ، سحبن ذراعها . خنقه صوتها الناعم المنغم الساخن كلسعة ضوء القمر . ضغط يدها . ركبها غضب مفاجئ . نشجت . انفجرت باكية. ليست واحدة من أياهن فقيرة لكنها تحافظ على شرفها . الحلال أحسن . ارتبك . تذكر اللحظة التى فوجئ فيها برأس السيد أبو دراع مدشدشة بفعل فأس.. فأسه هو . فأسه أم فأس حامد.. بتحسسه الحابى ، هانم على حق. المرأة على غير زوجها

حرام، لم يتزوج السيد أبو دراع ..حرام أم حلال- ماذا كان سيقول السيد فى هذه المسألة . بارتباكه تقدم يعتذر إليها ،هو يحبها . لا يفرق بين نظرة تمسح وجهها وصدرها ونهديها ، بين دقات صدره هو كالطبل إذ يسمع صوتها وبين يده تضغط يدها. خالتى نرجس فتحت باب الدار . عقب الباب المرتكز على قطعة صخر يلف فوقها . يزيق . مسحت هانم دموعها .لم تنظر إلى فتح الله لكنها كانت تراه . حدثته بصوت رائق ، صوت لا أثر فيه لدموع أو نشيج أو وعظ أو ارشاد .عليه الا يزعل .هى الأخرى- بصوت خفيض- تحبه.

الام حيث فتح الله بحفاوة . سيدة تربت فى بيوت الثراء . بيت جابر أفندى .سيرها إحساسها بقيمة أن يكون للإنسان أرض يملكها وجاموسة وبقرة وعلى سطح بيته كوم الذرة. شرفتنا ياسى فتح الله يا ابنى . أبوك رجل ولا كل الرجال. تبحث عن كلمات ترفع بها الحاج وهيدى عن حضرة العمدة. قدمت أرغفة ساخنة لفطوره ، إلى جانبه على المصطبة جلست هانم تنفخ فى القوالح تشعلها في الطاجن .تعد الشاى . فتح الله لا يحب أن يشرب كرسى معسل على الصبح ..ليس كيفا منقوعا . أين هو من أبيها السبخاوى ، الكيف الذى صاحب الجوزة قبل أن تولد هانم وقبل أن يتزوج الأم نرجس يمسك القوالح الملتهبة بين سبابته وإبهامه . يرصها على المعسل . يضغطها ببطن إبهامه . أحست هانم بوضوح باحتقار لفتح الله . استصغرته .ليس رجلا . أولاد الميسورين تنقصهم الرجولة دائما أحست بعمق بنقيصة لا تغتفر فى أخلاق فتح الله ، ألا يستفتح اليوم بكرسى معسل . فتح الله لا تذهب ظنونه ولا يصدق- لو سمع- أن تكون هذه معتقدات وليفته . هذه بالذات يعدها مزية تقربه من الناس الذين يكره تعاليهم ، عائلة السوالم، الذين لا يشربون الحشيش إلا فى الليل.

حوشنى ياسى فتح الله . استغاثة من السطح لواحد من أخوات هانم . حاولت أن تمنع فتح الله من الصعود إلى السطح . صعد أخوان وليفته الذكور الثلاثة رءوسهم مكشوفة فى الشمس، تبقعها فتلات من الشعر . الجلدة حمراء ، بيضاء مشقوقة ، ينز منها الدم. ليس دما أحمر ساخنا كالذى انبثق من رأس السيد أبو دراع .دم أصفر ، أبيض ، دم دهنى .امرأة غريبة. ليست من البلد تجلس ناهضة على قزحها ، تشد بقوة قطعة رقيقة من جوال سماد كيماوى . طبقة القطران الأسود الرقيقة التى يشمع بها الجوال من الداخل ملتصقة بجلدة الرأس المتقيحة الجرداء. المرأة تشد قطعة الخيش بقوة. قطعة الخيش الرقيقة تتمزق مرة بين يدى المرأة . مرة يطلق الولد صرخة استغاثة. شريحة من الجلد المعيوه تتمزق ملتصقة بالخيش . خالتى نرجس ممسكة بكل قوتها . هانم ركبها عفريت . شتمت أمها . لعنت الأولاد وأباهم . لعنت اليوم الأسود الذى ولدت فيه فى هذا البيت . سحبت فتح الله من يده . متى سيتوب الله عليها من هذا الدار النكد . رصت كرسى

معسل . مدت غابة الجوزة إلى فتح الله . لقمها وشد نفسا عميقا كما لم يفعل من قبل . يقاوم رغبة فى التقيؤ . أحس الحرج مرتسما على وجه هانم. حاول أن يخفف عنها . أحس القاعة الجوانية .تعرف أن البلد كلها تصف أخواتها بالقرع . لحظة تعيسة من حياتها حقا أن تحضر المداوية لتعالج أخواتها ، وفتح الله بالدار . لم تصل إلى أن العلم بواقعة ما يختلف عن معايشتها ، باحساسها أن علم فتح الله بقراع أخواتها شئ ورؤيته للقراع معروضا تحت أشعة الشمس شئ أخر ، لحظة ضعف ساحقة تعيشها هانم. تريد أن تفعل أى شئ تشعل فى البيت حريقا ، تطرد فتح الله . أحست نحوه برغبة فى ألا تراه ..منذ عرفته وهى تسير على حبل .. تخفى عنه حياة أبيها وأمها وإخواتها .من أجل ماذا؟ هو لا يستحق . ولد مفعوص ، ولا خير فيه ، ويسرق من أبيه . من لا خير فيه لاهله لا خير فيه للناس. أنها تكرهه . تكرهه .ملعون هذا القاتل المجرم، قاتل كأبيه الوهيدى الملعون قتل صاحبه من أجل سمكة . اسمع يا فتح الله . السبخاوى يقوم بإخفاء المواشى المسروقة. عليك أن تعرف . صاحب عملية الافضاء أو التفضفض رغبة بارزة أن تتعرى هانم أمام فتح الله . فتح الله تشغله شفقة عميقة نحو هانم. لم يلتفت . توازت داخل هانم عملية الافضاء مع رغبة أن تخنق فتح الله ، تخنقه بيدها ، بيديها تضغط رقبته ، مع رغبة فى أن تخنق فتح الله ، تخنقه بيدها ، بيدها تضغط رقبته ، وتلتصق به، تحضنه أمسكت بيد فتح الله.

ضغطت دون أن تحس ! كانت تبحث عن كلمات مموطة لصياغة الخبر. ما زالت حالة التقيؤ تشغله . رغم ذلك شدته جدية قاسية تشكل ملامح هانم وتهزها . انفراج واضح بين شفتيها . وفوجئ تماما . هانم تدس غابة الجوزة وتطبق عليها فمها . نفثت من منخاريها سهمين حاسمين من الدخان الكثيف . تموج دخان متسكعا بين فمها والهواء الخارجي . عندما وصلت هانم إلى أن البهائم المسروقة يخفيها أبوها فى دوار جابر افندى أبو سالم ، حضرة العمدة، كانت قد انتهت من قذف الخبر كانت قد تخلصت من توتر عضلى شد داخلها ، لم تدر هى الأخرى سببه ، بعده أحست بالضوء يغمر المصطبة . بارتياح ،حب الهى لفتح الله ، للجوزة ، لابيها ، لضعفه ، لامها ، لاخوتها القرع ، ليس ذنبهم أن ربنا خلقهم قرعا ، حنين نحو دارهم بطبقة الهباب فى سقفها ، القاعات ، المصطبة ، ألباب الخشبى ، السلم ، جذع النخلة المنجور، البلاص القاعد بجوار المصطبة ، الفرن ، الكانون ، التفتت إلى فتح الله . ولد طيب ، برئ ، لا يجرؤ أن يذبح فرخة ، هجر أباه ، دارهم ، يتحدث عن أمه كطفل ، لم يرها، ماتت قبلا ، يحب خالته ، ماذا تستطيع أن تقدم له ، كيف تفديه ، عليه أن يعود إلى أبيه ، إلى دارهم ، لا يجب أن يحرم من خير أبيه ، لا يجب أن تكون هى سببا فى شقائه ، عليها أن تمنعه -بعد ذلك- عن سرقة الحبوب من سطح دارهم عليها- بالذات- أن تفضل بينه وبين رجال الليل الأهبل .. يريد أن يكون منهم أنهمس

سألها فتح الله لم هى سارحة. أفاقت . فتح الله ..بحبك ..صدقنى ..قلبى أبيض.. مايشيلشى من حد .حتى عيلة جابر افندى .. يا سلام يا فتح الله .. يا سلام ، قاومت رغبة مخدرة للنعاس ألمت بجسدها كله .أحس فتح الله كربا يلمؤه . لها أن تحب كل الناس كل شئ إلا عيلة جابر أفندى ، إلا عيلة السوالم، هم أن يسألها بدت له عليمة بأسرار الليل.. هانم .. من قتل فهيم بن زينه كيف لا تذكرينه فهيم الذى ألقى السم لمواشى العمدة وهى فى الدوار.

-٤-

بعد صلاة العشاء على المصطبة الممتدة أمام دكان الشيخ سعيد قعدة أولاد الحارة، يتخاطفون سيجارة ، يرصون كرسى معسل ، يتراهنون على كسر أعواد القصب بسيف كف اليد ، يتراهنون على أكل قطع الصابون وشرب الجاز وسبب خفى آخر، التعليق على سنوات الحارة عندما تمر عليهم فى الظلام . بعد الطبخ والأكل وتنويم العيال تتنادى جارات الحارة وكل جماعة قافلة صغيرة تأخذ طريقها مارة بمصطبة دكان السيد سعيد إلى التلول تفكته السروال والجلسات متقاربة -الأسرار- هى الأخرى -حمل ثقيل احتجزتها يوماً بكامله التخفف حالتهن ، تنتهى الجماعات بعد أن يتخففن .عند العودة ليس شرطا أن تكون كل جماعة هى بذاتها التى خرجت ، يعاد تشكيل الجماعات ، التلون حول البلد ملك الحريم فى الليل.

فتح الله يداور ابن خالته . يريد أن يطمئن على عودة هانم من التل .كل عريس يرقب عروسه من رحلتها إلى تلول السباخ .لم تعد هانم . إن خالة فتح الله تشده ،ولد عفريت هو الذى كشف فتح الله . قم يا فتح الله شوف خالتك غائب حجته معه . تعلمها المرأة ، لو أن لها الغرض ، وهى نائمة إلى جانب زوجها.

-ازيك يا فتح الله، لمبة الجاز معلقة على مسمار بالحائط . على المصطبة تمدد الأولاد . الخالة قبلته من خده اليمين مرة ومن الخد الآخر مرة ، احتضنته . ضمته إلى صدرها . امرأة فارعة ، عجوز ماسكة حيلها.

ازيك يا حبة عينى ..عاتبته . ألا تراه الخالة إلا بمرسال. لفت من بعيد . سألته عما اشتغله فى الغيط . فتح الله لم يشتغل . تابعت لفها . استفسرت ، الصحة متوعكة يا خالة. وهى تعلم أنه يتهرب . تنزعج حقيقة . سلامتك يا فتح الله ، ألف سلامة، خالتك تتحمل عنك . نسيت أنها كانت تداوره لتصل إلى خلافه مع أهله تستقصى نوع تعبه.

ألف بعد الشر عنك . تتعب يا فتح الله وأمك لا تعرف . ضمته إلى صدرها . طبطبت على كتفه .من يدرى ربما لم يتناول عشاءه ، قدمت من الموجود . صحن الجبنة القديمة مدهوسة فى المش ، اللفت وأعواد السريس. فتح الله تغير . الخالة رأته قد امتصه الهزال.

أبدا يا خالة والله أن حصان . آه يا فتح الله، يا حبة عين أمك ، هل تنكر ، عيان وتنكر، لست أقل من أمك . فتح الله لم يملك نفسه . لو أن الناس كخالته . بكى . قبلته على خديه فى طرقعة، ما عاش من أبكى فتح الله ، لا تعرف كم أعزك يا فتح الله ، سمع اسم أمه نطقته خالته وكأنها تبسمل ، كأنها تصلى على النبى . لا يجب أن يبكى فتح الله وخالته على ظهر الأرض.

فتح الله لا يود أن يعود إلى دارهم ، لا يعرف السبب بعد يوم حكاية السيد أبو دراع ..كان ولد شهم يا خاله .. فتح الله لو كان يدرى ما سيحدث لمنع ، هو نفسه أباه عن ضم قطعة أرض السيد أبو دراع إلى أرضهم.

كان فتح الله يقيم جسرا . انتبه على زعقة حامد. أبو دراع كان مقبلا جريا . تململ فتح الله . تمنى لو أنه اعترف لخالته أنه هو الذى ضرب . ليلتها حاول أن ينام . تلف فى رأسه المشاهد . صورة أبو دراع مرة جالسا مع أبيه يرد على عم الوهيدى بلاخوف ، فى شهامة . على الحرام يا عم الوهيدى أنا والبندقية فى يدى ماتطرف عينى لجابر أبو سالم ، ولا لعيلة السوالم كلها ، عيلة فى عينى قش، لا الأرض والا الهيصة تهز طرف عينى.

فتح الله لم يستطع أن يوفق بين أبو دراع الشهم وبين أبو دراع ملقى على الأرض ، على وجهه فزع ، ذلة ، انكسار ، فى لحظة لم يكن هو السيد أبو دراع ، كيف . ترتسم قطعة الأرض الصغيرة .هل كان عم الوهيدى يعلم. الأكيد أن لاشئ كان يمنعه من ضم الساحل. وفيهم بن زينة. ليلتها طرق فتح الله حجرة عبد الشاطر ،كان نائما استيقظ ، أنت يا فتح الله مدلع ، ولد خسران . لو أن فتح الله تعب من الشغل فى الغيط ، لو أتاه النوم وهو عائد على ظهر الحمار! عبد الشاطر يخلق فى الغيط الشغل من تحت الأرض . نصيحة عبد الشاطر أن يعود فتح الله لينام.

كان الشارع ساكتا، مظلما . لم تكن القرية موحشة هكذا أبدا ، الخالة تقاطع . نهايته يا خالتى.

لم يكن فى الحارة دار واحدة صاحية غير دار السبخاوى . شربت كرسى معسل ، اثنين . لم يكن لفتح الله رغبة أن يعود إلى دارهم .غلبه النعاس . أسند رأسه إلى الحائط . استيقظ .كان الليل ساكتا .كان رجال الجوزة انصرفوا.

السبخاوى ممدد . إلى جواره نام فتح الله . شد الكيس . توقف فتح الله. أحس بخجل . فى الصباح الضاحى استيقظ . لم يكن بالدار سوى هانم. قدمت له كوبا من الشاى. سألته . حكى لها استمعت إليه . حدثته . أنت ياسى فتح الله وحياة سيدنا النبى رجل بنى آدم. الاعمار بيد الله . أبو دراع كان سيموت سواء ضربه حامد أو لم يضربه . الميتة مكتوبة على جبينه .كلنا سنموت خفف عن نفسك ياسى فتح الله.

فتح الله سمع التأكيد قاطعا أنه لم يضرب أبو دراع . فتح الله قلبه خفيف . حامد هو الذى ضرب . فتح الله طرح ما حدث على هانم البراءة منها سمعها باذنه . يتمنى فتح الله أن يكون حكم هانم حقيقية.

الخالة لم تستمع إلى تفاصيل الجلسات الطويلة. الخالة لم تر صلة بين موت السيد أبو دراع والطوفة التى ألمت بابن أختها مصممة على أن تعيده إلى دار أبيه.

السبخاوى يا فتح الله يا ابنى رجل من غير مؤاخذة ، اسم الله على قيمة ابن أختى ، مش راجل ، لم يكن خفيرا فى خدمة الحكومة ، سحاب نسوان لجابر افندى ، جابر افندى رجل ذيله نجس.

فتح الله يجابه أمه أو خالته . المهم هى، هانم نفسها.

الخالة لا يعوزها الرد، اللهم احفظ ولايانا ، يا بنى لسان الناس ، لسان الناس لا يبرئ نرجس زوجة السبخاوى ، هانم تربت فى لسان الناس لايبرئ نرجس زوجة السبخاوى ، هانم تربت فى ما عون شين ، كل واحد حسب ماعونه ، والبنت يا فتح الله يا ابنى لامها ، فتح الله لم يقتنع . هو سمع ، لكن يا خالة هل هذا يعنى أن هانم معيوبة . يا فتح الله، من قالوا عنها قحبة هى قحبه، الخالة لا تعرف ماذا يعجب ابنها فى هؤلاء الناس . عيلة معيوبة من طأطأ لسلامو عليكو. الخالة تستعرض ، السبخاوى ، نرجس ،حتى يابنى عيالهم قرع.

فتح الله يقتنع تماما حتى نخاع عظمه بكلمات خالته . يضيف أن هذا شئ وهانم شئ، يا خاله سيبى حكاية الزواج لن أتزوج . ترجح الخالة أن ابنها يناور. حاولت أن تصل إلى داخله . أحست أنه يكاد يفلت منها متخليا عن صدقه فى حديثه معها وبالتحديد مخفيا نباته عنها . يحكمها عاملان: حبها الشديد لابن اختها ، اتفاقها مع عم الوهيدى على أن تعيد الولد الشارد . عم الوهيدى هدد بضرب الولد بالنار . هدد بقتله . الخالة هددت أن الولد قد يفعلها ويسوح فى بلاد الله. الوهيدى وافق على زواج ابنه من هانم على أن يقطع علاقته بأهل البنت . وصية عم وهيدى للخالة ألا تقدم للولد الحل الذى وصلا إليه إلا بعد أن تكون قد غلبت معه. إذا أحست الخالة أنه قد آن لحظة القاء الورقة الأخيرة . صارحت فتح الله بموافقة أبيه شريطة أن يقطع علاقته بالسبخاوى وعائلته.

-٥-

بتوجس وخوف- ممزوجين معا- بالرعب أمسكت ألست جواهر بالمقبض النحاسى الأصفر ، أداراته ، واربت ضلفة الباب، أنسلت إلى الداخل .فى وسط الحجرة تنتصب أعمدة السرير ، نيكل بيضاء مربعة، تنزل منها الناموسية ، كالمحمل ، الضوء الخفيف المتسلل من ستائر النوافذ يعكسه

طلاء الجدران الزيتى ، طربوش جابر أفندى ، الحبه ، الكاكولة ، الجزمة أم استك الاجلسيه ، وفردتا الجورب فوق الرخام على الكومودينو تتدلى منهما حمالة أستك حرير . رفعت الناموسية بحذر بالغ . صح النوم ياحضرة العمدة. لا تنتظر ردا لم يعترض على أن تزور أخواتها . يسكنون فى نفس التربيعة التى أقامت عليها عائلة السوالم منازلهم وسراياتهم غرب البلد . على الزوجة أن تكلف واحدة من الخادمات أعداد دورة المياه . ابريق ماء ساخن فى المرحاض ، آخر لاغتسال حضرة العمدة.

فى منزل المرحوم أبيها ، بين أخوتها انفجرت الست جواهر باكية .أقات من اللحم الأبيض اهتزت . لن تتحمل أكثر مما تحملت . رجل زناوى ، عياره مفلوت ، أقسمت الست جواهر بابنها رشاد، كانت تفضل الزواج من بائع فجل ، الأخوة يعلمون إلا حيلة لهم فى الأمر ، هم أنفسهم يفعلون ما يفعله جابر أفندى ، لا مفر لهم من مهاودة أختهم الكبيرة، عليهم أن يستعدوا الليلة لضبط جابر أفندى مع واحدة من نسوان الفلاحين أولاد الكلب فى الحجرة الملحقة باسطبل الخيل. لم يبق ألا أن ينام مفلوت العيار مع قحباته فى حجرة النوم. استعد الاخوة، أبناء عمومة وخؤولة جابر أفندى.

السلام عليكم ورحمة الله ، السلام عليكم ورحمة الله .

تصافح المصلون . إنتهت صلاة العشاء . عيال الحارة وأولادها على مصطبة الشيخ سعيد . نسوان الحارة فى طريقهن إلى التلول . بعد الذى منه يدقفن فى اختيار الطوبة للمسح ، الخشية من أن تكون الطوبة افراد آدمى جاف ، الأولاد على المصطبة لا يكفون عن التعليق على مواكب النسوة . حج مبرور .كل سنة وأنتم طيبين . لا يمنع أن تكون أم الواد بين الجماعة. يصفعه ولد آخر على قفاه يا ابن الكلب وسر المصحف الشريف أمك كانت فى الوسط.

الدسيسة طرقت منزل المرحوم .. واحد من خفراء حضرة العمدة حماس شديد ألم بالست جواهر مع الأخوة تقدمهم كلوب، دون لن يشعروا كانت وراءهم زفة، الاخوة أولادهم، باب الحجرة الملحقة باسطبل الخيول العربية الأصيلة ، الكتوف ضغطت ، انكسر الباب، اندفع الرجال تتقدمهم الست جواهر ، باقى المولد وراءهم ، فى ركن الحجرة كانت تقف مرعوبة ، مرتعشة ، تشلها هبات برد داخل مسام جلدها، دست جلبابها من رأسها ، شدته بصعوبة ، نسيت السروال- كالعلم المهزوم- معلقا على مسمار فى الحائط.

خيبة الأمل حطت على الست جواهر . أحس أخوتها بالارتياح مواجهة العمدة لم تكن شيئا هينا . لحظة مرت أو لم تمر . الأخوة وراءهم قعدات الحشيش. ألست جواهر لحظتها ممتدة لم تنته من قبل أن تلد رشاد وأخوته . من بعد ليلة زفافهما وهى ترقب تسلل حضرة العمدة مع

واحدة من الخادمات . فى محاولة للإفلات من اللحظة تقدمت الست جواهر قوية بدينة فيها عافية تكفى لشد نورج أو محراث تتعثر فيه بقرتان من بقر الفلاحين الاعجف ، رفعت يدها إلى السماء ورن الكف على وجه هانم . هانم تلف بها أرجوحة لفات سريعة دائرية متلاحقة حتى لكأن الأرجوحة ثابتة. هانم فاجرة كأمها نرجس، فاسدة كأبيها السبخاوى السحاب. كأن الكف أشارة البدء . على الأخوة أن يجاملوا أختهم ، بالايدى ،بالأرجل ، بالعصى . يسقط الضرب على هانم ، متكورة ، منكمشة ، مستسلمة، الست جواهر لا تدرى كيف تفرغ غيظها، خيبة أملها فى أنها لم تضبط حضرة العمدة . الضرب لا يكفى . همت أن تهجم على البنت وتنهش فى بطنها بأسنانها وبأظافرها فى الأماكن الحساسة. أحتارت حتى الموت ماذا تفعل .كل تصرف مباح لها. حرة تفعل بالفريسة ماتريد. لحظة نادرة فى حياتها ، أنار عقلها على غير توقع منها . ألتفتت إلى الأولاد والعيال. صرخت فى وحشية : ولاد ، ولاد ، جرسوها ، بنت السحاب ، قحبة كأمها. وفى هدوء ، كالهواء النقى ، كأن على رأسك طاقية الاخفاء انسل رشاد أفندى ابن جابر أفندى لا يصدق أن هذه هى أمة. فى قرارة نفسه أنها على حق وأن هانم القحبة بنت القحبة تستحق أكثر مما حصل لها. بنفسه رفض أن يقابل هانم حين طلبت لقاءه بعد العشاء، على سطحهم . فى المرة الثالثة ، حمل المرسال.. هانم لن تحدثك ستعيد إليك أشياءك ، المناديل ، زجاجات العطر، الفستان ، حتى الفلوس سنبسددها ، فتح الله نفسه يحس أولا يحس أنه منقسم ، دماغه يملؤه طنين ، طنين تصنعه كل أحاديث المصاطب ، تملأ الحارات أحاديث جسور الترع ، مدارات السواقى، قعدات الحشيش، قعدات المعسل والنسوان ، النسوان الجالسات على قزحهن فى الظلام على تلول داير الناحية، ويتحسس السباخ بحذر بحثا عن طوبة ناشفة . هانم ضبطوها مع رشاد أفندى ، مع جابر افندى ، مع فتح الله ، مع واحد من زوار أبيها فى الليل، مع.... مع، مع كأمها.. وأبيها .. هل.. هل.. هل ..البلهارسيا ، نقط الدم الأحمر يملء كف بعد كل بولة، توحد كل أبناء البلد ، فضيحة هانم ملء كف دم وحدها ووحدتهم هى الأخرى ، لا يستطيع فتح الله أن يضع أصبعه عليها ليقطعها ويستريح ، جزء منه وليس منه، جزء من صدره ، أصم ، أبكم ، أعمى ، لا تصل إليه أحاديث المصاطب والجسور والتلول والقعدات .جزء داخله يعذبه ، يشد عينيه طوال الليل ، لا تغمضان ، يصاحب خطواته ، يخنق صدره ، جزء فيه هذا الدهانم» وحدها، زلطة تشعوط النار كل ما حولها ، هى صامدة ،زلطة يسكنها جنى يتحكم فى قسمات وجهه ، فى مزاجه ، لا يتلقى أوامره منه.

قبل أن يستجيب لالحاح هانم ، ليقابلها فى حجرة صديقة لها مر على خالته ، قبلته ، طبطبت عليه ، ازيك يا ضنايا ،تعالى ، تعالى يا فتح الله ، أقعد إلى جوار خالتك ، شبه المرحومة أمك

تماما ، سبحان الخالق ، يا حبة عينى، الام تشبه من يا خاله ، أكانت شبهك ، انزعجت الخاله . خالتك يا حبة عينى أيش جابها لامك ، فرق البحر من الترعة. يا خالتى البطن واحدة ، أنت وأمى من بطن واحدة. آه يا حبة عينى ، البطن تجيب الزين والشين ، وأبو فصادة والأقرع وراكب الخيل وخايب زمانه. قهقه فتح الله . أفلت من قبضة الجنى اللعين . الجنى الذى يلبد داخله ولا يتلقى أوامره منه . جنى حضور هانم، آه يا خالة لو يسكن فتح الله فى حماك حتى يوم القيامة. لحظات الصفو الخالص معك وحدك . صفوك يا خالة لا يأخذ بأنفاسى لا يخنقنى ، معها هى الأخرى تصفو النفس ، صفو منقبض خائف دائما . عرض على الخالة ، هانم دعته للقائها ، تريثت الخالة، ابن أختها ، حبة عينيها لم ير وليفته منذ الليلة الملعونة ، فى ليلة واحدة ، أمسك بفتاته زوجة له.. افلتت منه إلى يوم القيامة، هو لا يقول إلى الأبد ، بعدت عنه فى ساعتها .الغد يخفيه ، فى يومه الجارى هى ليست له. .العد فى يد ربنا الذى فى السماء . حين يأتى الغد ويصير يوما جاريا هى ليست له لا يريد أولا لا يحب أولا يجرؤ على أن يصدر حكمه الغد . يكفى أنها ليست له فى يومه الآنى . إنها –ولعلم عند الله –قد تكون له فى غده . إذ يتدحرج غده ليصير يومه. عندئذ سيصدر حكمه قاطعا . هانم ليست له . قابلها يا ابنى ، شوفها ، اسمع منها ، العيش والملح له حق، اللهم أستر ولايانا وفوت على يا فتح الله.

اللمبة الجاز معلقة على المسمار المدقوق فى حائط الطين ، على الحصيرة جلست هانم وصديقتها . كان سلاما انتفض له الجنى داخل فتح الله . إنها هى هانم . الصوت مرتعش محشرج مبحوح خافت . ازيك يا هانم .منطوية متكورة . متقهقرة . حزينة ازيك ياسى فتح الله.. الصمت لا يعرف الخفوت أو الانطواء حط.. شريط اللمبة يطقطق .. أستأذنت الصديقة لتعد كوب الشاى ، بقى الصمت . سطع نور اللمبة الباهت الخجول، بقه فى حجم حبة عدس بقشرتها تجرى كالمذعورة على الحائط ، شجيرات العاقول الشوكية مسمرة على الجدران لقتل البق النهم. كان نعساناً على مصطبة السبخاوى .تقدمت إليه .. سى فتح الله . وأب عينيه ، كان عم السبخاوى قد استيقظ وتركه نائما . سى فتح الله .. صح النوم دلقت على يديه من ابريق الفخار الاسمر ، غسل وجهه بصابونة معطرة قدمتها إليه ، على كفها كوب الشاى ، تأمل جبهتها ، نور اللمبة الباهت الخجول يسطع على جبهة هانم . ازيك يا هانم اكتشف أن يده ممسكة بيدها. فزع .كأن بين أصابعه ثعبانا . سحب يده على عجل سحبها وهو لا يدرى حقيقة مشاعره . من دماغه كان ينطلق حديثه قاسيا ينهى كل شئ . كل شئ يجب أن ينتهى السيرة لبانه بين أفواه القرية. قسمة ونصيب .. من المنطقة المجهولة هانم هى هى، هانم إلى جواره بنفسها بلا زيادة ولا نقصان . عرضت هانم بؤجة بها أشياء فتح الله ، ردها . هو ليس خسيسا. هانم أمنت ، أنت صحيح لست خسيساً

وأنت ابن ناس. ماذا يصنع فتح الله فى الكلمات . هو يقصد أنه ليس خسيسا ليسترد أشياء خرجت من ذمته ، أما أن تخرج الكلمة من فمه لتكون حبل اتهام تسئ تخنق فهذا ما لم يرده . كل شئ يتمرد على إرادة فتح الله حتى كلماته . انفجرت هانم باكية ، هو ابن ناس أما .. أحس بحزن حقيقى ..حزن من المنطقة المجهولة ومن دماغه معا. مثلما كانت خالته تقبله على جبهته قبلها على جبهتها ، بشكل خفى ، تقبيلها على الجبهة عمل مختلف تماما عما فعله رشاد . لهذا فتح الله يبيح لنفسه اتيانه .هو يتفرد بالجبهة .هانم ..عليك أن تدعى كل شئ للغد . وفى الغد يجد فتح الله راحته. وعدها أن يزورهم فى البيت . كانت قد نقلت إليه خبر مرض أمها.

-٧-

يبدأ بصداع فى الرأس . همود فى الركبتين . تهدل فى الجسد كله.. إسهال. قئ . بعد ثلاثة أيام ماتت الأم. ماتت نرجس. لم يشترك فتح الله فى السير فى الجنازة.

فى نفس اليوم ماتت امرأتان . مات ثلاثة رجال . فى اليوم الثالث استقبلت افواه المقابر خمسة رجال . دفنوا -أيضا- على الساكت . امرأتان . عدد من الأطفال . ببطء تدريجى ثابت . تسلل الخوف . ملأ البلد كلها . خلت المصاطب ، قعدات المعسل ، حتى المساجد. تجمعات مختلسة مرعوبة تتهامس ، تتناقل اخر أنباء المرض، أى الموت .من أصيب بصداع فيه الشك والأمل .الاسهال يقطع الشك باليقين . البحث عن الليمون شغل الناس . إشاعة أن البلح هو السبب . المرض الجديد معد يا أولاد. ثلاثة أيام ثم الموت . لا مريض واحد شفى ، البلد تدفن كل يوم . كل يوم موت ودفن وجنازات صامتة . الدفن لا يتوقف فى كل بيت مريض أو ميت أو مرعوب . قش الرز ملأ الشوارع والمصاطب . على قش الأرز يجلس المشيعون . المدرسة الإلزامية ، ومكتب المحافظة على القرآن الكريم أغلقا . سوق الأثنين ما عاد يقام. كل واحد انطوى على خوف عميق . خوف يخاف أن يهمس به لنفسه . لا أحد أبدا هاجمه المرض وشفى البلد انقسمت قسمة غريبة كما لو يحدث أبدا أو كما هو حادث دائما . عيلة السوالم أقامت معسكرا وقائيا حول سريانهم ومنازلهم احتمت داخل معسكرها . فكروا أن يقيموا سورا بين بيوتهم وباقى بيوت الفلاحين ، أى غريب عن العائلة محظور عليه الاقتراب من بيوتهم . أهالى البلد عليهم وحدهم ينصب غضب الله . العائلة الغريبة الوافدة على البلد بيوتها منعزلة. الشغالة الذين يخدمونهم فى الغيط والبيت حجزوهم داخل المعسكر . منعوهم من النزول إلى ذويهم . المسجد المشترك قاطعوه . جابر أفندى أحتجز السبخاوى وكلبه سبع الليل .مقابر البلد مفتوحة للاهالى وحدهم . المقابر ضاقت بالموتى من أهالى البلد . عبد الشاطر حيل إليه أن برأسه صداعا .حمل فاسه إلى الغيط . هو يعالج الامراض بالشغل ، أربعون عاما ما اعترف بطبيب أو مستشفى . الأعمار بيد الله.. هو مشغول

دائما فكيف يمرض. المرض رفاهية العاطلين أهل المصاطب . هو دائما وراءه شغل فى الغيط . الأرض يا أولاد دائما تحتاج إلى اليد اللى تلعب فيها . ترفع الحجر من جانب عود القطن ، تحيطه بالتراب الناعم . الزرعة فى الغيط كالطبخة لو تركت على الكانون شاطت.عبد الشاطر عاد بفأسه . لم يصدق أنه أصيب بإسهال علامة لا تخطئ .عم الوهيدى الحريص الواعى الرزين جن. كل شئ يا رب إلا عبد الشاطر . لم ينجب سواه . هو كل شئ . من أجله كل شئ . أبيع البهائم بهيمة بهيمة ،الأرض التى جمعتها شبر شبرا . ابيعها ، أعود كما بدأت لا يهمنى . يبقى عبد الشاطر .، سنخلق أرضا جديدة من تحت الأرض ، سنملأ الدنيا زرعا وقلعا وخيرا . عبد الشاطر، عبد الشاطر ،حمل الرجال عبد الشاطر نزلوا به إلى القبر العميق . انهال التراب . عائلة السوالم بحالها كان المرض لم يعرف بيوتهم . لا رجل لا أم امرأة لاطفل . الخالة هى التى أفضت إلى فتح الله، يا ابنى البنت هانم سمعت يا ولداه انها تعبانة ،الحيرة عاودت فتح الله. أمها ماتت ، العمدة حجز أخواتها فتح الله حملته خطواته إلى دار عم السبخاوى . تخطى العتبة فى خوف . دق صدره خبطات متلاحقة . دوار خفيف طاف بدماغه ولم يلتفت إليه. قابل عينيه صمت مقبض . كل شئ يراه لأول مرة باب الدار . شرائح غليظة من أفرع الشجر. تراب قديم يفترش كل ما أمامه . الهباب طبقة سميكة هشة متراكمة على السقف .الدار ، برج حمام مهجور ، طافت بذهنه كلمات موال . حرمت يا دار أخش الزقاق علشانك .هو لم يدخل هذه الدار منذ زمن خيل إليه أنه عمر بطوله أو ليلة. البلاص الذى كان دوما نظيفا ومروقا بنقى المشمش، مبخرا باللبان المحروق ، الجوزة .هنا جالس رجال الليل أخسذ منهم، أعطاهم ، حدثهم ، حادثوه ، اتعبهم أبو دراع ، طوفه حملته إلى الليل كان يكره عيلة السوالم ، كلنا نكرههم يا فتح الله ، لكن جابر افندى هو المتوى ، آخر محايلة معه، أبو دراع أقسم بالطلاق ، طول م ابن الكلب متحكم فينا م يعيش مغانا كان يبكى كالحرمة. يا جماعة هو ابن الكلب ورانا ورانا فى الغيط ورانا ، فى الليل ورانا ، أنا هأعدى الشرقية ، لكن من قتل فهيم بن زينه لحساب العمدة . غمغم الرجال حتى هانم لفت ودارت . كانت أحيانا تصمت . هل كانت تكذب وهى تشتم عيلة السوالم . طالت وقفته . نادى اسمها . هانم .. هانم . ألقى نظرة على القاعة الجوانية . دفع الباب . وقف فى البحراية . زكمته رائحة الرطوبة والعتمة تملأن أركان الحجرة . زبل أرانب فى حجر داخل المصطبة .فوق حصيرة باهتة هانم متكورة . وجهها للحائط أنين خافت لا يصل إلى أبعد من آذان الجدار. فتح الله ازيك كتر خيرك يا فتح الله ازيك كتر خيرك يا فتح الله ، العيش والملح له حق . كانا كالاخوة .كيف تتحدث . بكت . فتح الله عليه أن يرجع ، فالمرض الملعون معد ليبتعد فتح الله يستمتع بشبابه . الانقسام الذى عذب فتح الله ارتفع كله ، خالصا لهانم ، لكنه يحس أن دماغه هو الذى يدفعه .خنقة الصدر ،

شلل الجسم كله ، افتقدهما إذ يلقاها هذه المرة. تقدم إليها . حزين . حزين من أجل حالة هانم .جلس إلى جوارها دق صدره . أمسك بيدها . ازيك يا هانم . إحساس قوى بالواجب يدفعه . من رأسه تسقط تصرفاته . هذه هى هانم يا فتح الله . ثمن لها الشفاء . لم يطرح على فكره ما بعد الشفاء . شمركم جلبابه بفأس قديمة جرد القئ . رش ترابا ناشفا . فتح دولابا داخل الحائط . سحب جلبابا نظيفا . أجلسها . أسند ظهرها إلى صدره بكوز ماء ، بقطعة قماش بللها ، مسح وجهها ، يديها ، قدميها ، خلع عنها الجلباب الذى تلبسه ، ألبسها الجلباب المغسول ، أعد لها كوب شاى، أعطاها حبة زسبرين ، عصر لها شقة ليمون فى كوز ماء. أرادت أن تقضى حاجتها ، أسندها إلى كتفه ، بدد خجلها ، عيب يا هانم ، السنا اخوات . داخل الدار فى مربط قديم لعزة بيعت قضت حاجتها .كنس لها المصطبة التى تشغل صحن الدار ، مصطبة رجال الليل، قعدات المعسل والحشيش . فرش الحصير ، أجلسها على المصطبة ، واربت هانم عينيها . الضوء يملأ الدار . يمامة تهدل على السطح . صحوة تتمشى فى أوصال هانم . حلم اكدت أنها لن تموت . الموت لا يقدر أن يأخذها من جوار فتح الله . فتح الله يعرف ان هانم هى ما يرتبطه بالبلد ، بلد السوالم .هل حقا كانت هانم تكرههم .هل تعود الحيرة داخل فتح الله .هل تغير دماغه منها .هل لحظة صحوها أرجعته إلى حيرته وإلى الانقسام داخله.

أحس فجأة يضيق لم يدر سببه . أدارت هانم عينيها . ألمت بكل ما فعله فتح الله . نظرت إلى جلبابها ، يديها ، أعملت ذاكراتها، أحست بخجل حقيقى حين تذكرت خلعها جلبابها أمام فتح الله وقضاء حاجتها سحبت عينيها بعيدا عن فتح الله مداراة لخجلها . فى عينيها الدار نظيفة كأنها فى ليلة عرس. حاولت أن تقف . لم تستطع .جلست . لفت بهما الدار بشدة . صوبت عينيها نحوه . لم تكن تعرف أنه يحبهسا كل هذا الحب. وفى المسافة الزمنية التى أحست فيها هانم بدبيب النهاية ، أحست بعتمة ضبابية أن اكتشافها لمع متأخرا .كانت تتفتح داخلها دلائل صدق حب فتح الله لها مع دلائل الاحساس الجسدى بالنهاية . لم تستمتع لحظة واحدة خالصة باكتشافها أنه يحبها كل هذا الحب. يأس ألم بعدد خلايا جسدها ، خلية خلية. يأس كأنه العقوبة . عقوبة تكتشفها هى وتخضع مرغمة لها . أمل تعجز عن افصاحه ، أن تحيا لحظة واحدة مع اكتشافها بعيداً عن يقين الموت . لا تملك القدرة من الحياة أن تسأل نفسها سبب عماها عن عاطفة فتح الله . لم يجد جديد . كانت تعرف أنه حتما كان سيفعل ما فعل. كانت تغرف كلماته أن ينطقها . تصرفاته قبل يأتيها . لكنهما أبداً لم تكتشف قبلا ، ولا تكتشف إلا فى لحظة آفلة. إحساس فوق اليأس ، فوق الألم ، يفوق الحياة نفسها ، يعلو على الموت . الممدة على المصطبة . ظهرها الحائط . إلى جوارها الرجل الذى أحبها تنظر إليه . ليس بعينيها ، فإن عينيها قد كفتا عن وظيفة الابصار

، تنظر إليه بخلايا جسدها كله مخترقة الملابس والسر والغموض. أحساسها لم يعد يرتسم فى شكل معنى . لا تعبر عنه الكلمات . المعنى والكلمات ينتسبان إلى شاطئ تقلع عنه . إحساسها رؤى تنفغر داخلها . هى ذاتها غدت رؤية . إحساسها قطيفة حمراء غامقة. تزداد غمقة حتى لتصل إلى لون أسود . إحساسها ، قطيفة لحمتها الحياة بطولها ، سداها الموت بعمقه .حياة بلا نبض الحياة. موت بلا همود الموت. حياة تموت. موت يحيا .فى لحظة لقاء متوهجة مكتومة معتمة ملعونة . اليأس لا يرتسم معنى . يبرز شكل أرض تسيخ تحت رجليها .الأرض تنفتح . بئر تقع فيه بقدميها أولا. تحاول قدماها أن تتمسكا بأرض، بتراب .الأرض تغور . هى يشدها البئر . يشدها البئر، انها داخل البئر .. داخله .. يشدها .يشدها.

يحاول فتح الله أن يمد يده ، يمسك شيئا لا يقبض عليه . الحياة ليست وقفا على ارادتنا . تعاش مرة واحدة . اكتشاف لا يدريه إلا وهو يفقد هانم .على الخشبة تمدد الجسد . غسلته المغسلة ، وضعت القطن على الخارج .كلوب صغير خافت الضوء تقدم النعش ، النعش على كتف فتح الله . واحدة من مقابر الحريم ،انزلوها برأسها ، قالب من الطوب الأخضر تحت رأس الجسد المسجى . أهيل التراب .فقيه ضرير جلس خلف القبر يردد كلمات كئيبة . لا وقت للحزن ، رجع المشيعون لا يزيد عددهم عن زصابع اليدين . تخلف فتح الله ،وقف وحيدا .الكلوب يبتعد . على المقابر يزحف ظلام ثقيل .. أمه ..سيد أبو دراع ..عبد الشاطر ..أخيرا هانم .. الظلام .. السكوت نواح خافت يأتيه ممن بعيد ،من داخل البلد . بلدة كئيبة ، مقبضة ، ليس بها ما يربطه إليها . يبرز وجه خالته تضيع فى جهامته ابتسامة يلتقطها فتح الله دائما. الاصابع الطويلة المعروفة . تحركت قدماه .كان الطريق الثانى من داخل المقابر يقود إلى جسر المصرف النظامى ، الجسر الذى ترقد البلد الموبوءة فى ظله. سارت القدمان تيهة مشاعر تلفه. لا يعرف شيئا . لا يدرى شيئا . لا يرغب فى شئ . لا يرغب عن شئ .كل شئ كأى شئ . ماتت هانم حقا . هو يحبها الان . ما عادت سدا فى وجه . خالة أناه. هج . ه هج يا خالة . القدمان تخطوان . الكون كله ظلام وفراغ . تحت المقابر ظلام وفراغ .على سطح الأرض ظلام وفراغ ، السماء ظلام وفراغ : وأنتم يا رجال الليل، يا صحاب ، قادم إليكم ، لم أقتل السيد أبو دراع صدقونى ، ردوا ، مدوا أيديكم عيناى توشك ألا ترى موضع قدمى .. رصاصة واحدة تضئ الطريق.

مختارات من نصوص

أبى حيان التوحيدى

قرن الرؤى

* هو على بن محمد بن العباس أبو حيان التوحيدى .

* «التوحيدى» على الأرجح -نسبة إلى المهنة التى عرف بها والده .. وهى بيع نوع من التمر المسمى (التوحيد) .

* انحدر من أسرة فقيرة ،معدمة ،مغمورة فى غالب الأمر.

* لم يشر، أو يتحدث، أو يأتى على ذكر أى شئ يتعلق بطفولته أو أهله أو تربيته أو نشأته الأولى .. وظلت هذه المناطق -بما فيها حياته الشخصية بعد ذلك- سرا مغلقا لا يعلم أحد- أى أحد- عنه شيئا بالمرة.

* اهتمامه بالعلم والدراسة قد صرفه عن التفكير فى الزواج وإنجاب النسل ، فلم يعرف عنه أن تزوج أو رزق أولادا بدليل قوله هو نفسه : أنه ظل طول عمره لا يجد حوله «ولدا نجيبا، وصديقا حبيبا ، وصاحبا قريبا ،وتابعا أديبا ، ورئيسا منيبا».

* ويبدو أن التوحيدى -كما يرجح د. أحمد أمين -كان مكبوت الغريزة الجنسية لفقره المدقع الفظيع ..الذى لم يمنعه الزواج فقط.. وإنما حتى من التسرى بالنساء والجوارى على عادة الأغنياء فى زمنه .

* امتهن فى حياته مهنة الوراقة (نسخ الكتب المشهورة للأغنياء والموسرين) وهى من أشق المهن فى عهده ، وأضيعها للعمر ، وأهبها للبصر، وبرغم كل ما أنفقه فيها من البصر والعمر لم تكن تدر عليه- فى معظم الأحيان -ما يقيم الأود، ويمنع من غائلة الجوع ، وإراقة الوجه.

* اضطهده من أدباء عصره وأعلامه(ونجوم السياسة فيه ، وأصحاب الأمر والنهى والقدرة والسلطان فى نفس الوقت) الصاحب بن عباد .. وابن العميد .وكان كل منهما وزيرا أديبا يشار إليه ، ويخشى جانبه ، ويتعاطى النثر ، ويقرض الشعر ،وكان أبو حيان شديد الاعتداد والثقة بالنفس فى حضرتهما ،وقد أوغر هذا الاعتداد المفرط صدريهما عليه فمعناه وحرماه واجتهدا فى التضييق عليه والحط من شأنه وإذلالة فانتقم لنفسه الانتقام الوحيد الذى يجيده ..فوضع فيهما كتابا أسماه(مثالب الوزيرين).. جمع فيه كل ما وعته ذاكرته الشخصية ،وذاكرة الآخرين من معايبهما الأخلاقية وصفاتهما المرذولة ،ونوادرهما المحطة من شأنهما ،والمسفهة لهما.

* أسلوب التوحيدى- كما وصفه د. أحمد أمين -«رائع جزل ، يلتزم المزاوجة ولا يلتزم السجع، ولا يتفخفخ فى الأسلوب على حساب المعنى .ولئن قالوا عنه : أنه هو الجاحظ الثانى، ففى رأيى- الكلام للدكتور أمين- أن الجاحظ وإن كان أكثر تشعبا ، وأكثر انطلاقا-فأبو حيان أجزل لفظا وأوسع علما، لأن الجاحظ كان مسجل القرن الثانى ،وفى القرن الثانى بدأن نشأة العلوم، وأبو

حيان مسجل القرن الرابع ،وقد نضجت العلوم، وشتان بين علم ناشئ ،وعلم ناضج».

* كان مفكرا حرا ، ومجددا ،ومتمردا على الكثير من أفكاره عصره ،وكارها للمحافظة والتقليد ، ولم يكتف بترديد أراء أهل السنة فى التوحيد والتنزيه آراء أهل السنة فى التوحيد والتنزيه والصفات الإلهية ،فكان من الطبيعى أن يدفع الضريبة التى دفعها –ويدفعها– كل المفكرين والمجددين الأحرار على مدى التاريخ ..فاتهم بالكفر والزندقة والإلحاد ..وساد الزعم بأنه أحد زنادقة الإسلام الثلاثة .. ابن الراوندى ..والتوحيدى .. وأبى العلاء المعرى.

* لم يعرف له بالتحديد مسقط رأس ومحل ميلاد ،وموطن أصلى .. ولم يشرهو إلى كل ذلك –كما ألمحنا –أية إشارة من أى نوع ..مولده ..موطنه ..نشأته ..أمه .. إخوته أو اخواته ..أهله ..إلخ!.

الإشارة الوحيدة التى تؤرخ تاريخا ما لحياته ، موجودة فى رسالته التى بعث بها إلى القاضى أبى سهل على بن محمد مبررا فيها إحراقه لكتبه!.

* أحرق كل كتبه فى آخر حياته ،والقليل الذى وصلنا منها كان قد تم نسخه من قبل البعض هنا وهناك!.

* جاء فريدا ..وعاش شريدا .. ومات وحيدا.

* ولد فى ٣١١هـ (على أرجح الاحتمالات).

ومات فى ٤١٤هـ (فى أقربها إلى الصحة).

وبذلك يكون قد عاش حتى أبلى مائة ونيفا من السنين.

* أى أنه الشاهد الأعظم ،والمفكر الأكبر، والأديب الألمع ، لهذا القرن الحافل المواز فى الحضارة العربية الإسلامية القرن الرابع الهجرى.

* ولذلك استحق ما وصفه به ياقوت الرومى فى كتابه «معجم الأدباء» «فيلسوف الأدباء»، وأديب الفلاسفة ، ومحقق المتكلمين ،ومتكلم المحققين ، وإمام البلغاء ..فرد الدنيا الذى لا نظير له ذكاء وفطنة ، وفصاحة ومكنة».

كدت أحترق بك

رسالة إلى القاضى أبى سهل على بن محمد فى شان حرق كتبه

كان أبو حيان قد أحرق كتبه فى آخر عمره لقله جدواها- فى رأيه- وضنابها على من لا يعرف قدرها بعد موته ، فكتب إليه القاضى أبو سهل على بن محمد يعذله على سوء هذا الصنيع ،ويعرفه قبح ما اعتمد من هذا الفعل الشنيع ، فكتب أبو حيان يعتذر من ذلك إليه:

حرسك الله أيها الشيخ من سوء ظنى بمودتك وطول جفائك ، وأعاذنى من مكافأتك على ذلك ، وأجارنا جميعا مما يسود وجه عهد إن رعيناه كنا مستوحشين من أجله .. وأدام الله نعمته عندك، وجعلنى فى الحالات كلها فداك.

وأفانى كتابك غير محتسب ولا متوقع على ظمأ برح منى إليه ،وشكرت الله تعالى على النعمة به على ، وسألته المزيد من أمثاله -الذى وصفت فيه- بعد ذكر الشوق إلى والصبابة نحوى -ما نال قلبك ،والتهب فى صدرك من الخبر الذى نمى إليك فيما كان منى من إحراق كتبى النفيسة بالنار ،وغسلها بالماء ، فعجبت من انزواء وجه العذر عنك فى ذلك كأنك لم تقرأ قوله تعالى عز وجل «كل شئ هالك إلا وجهه ، له الحكم وإليه ترجعون» وكأنك لم تأبه لقوله تعالى «كل من عليها فان» وكأنك لم تعلم أنه لاثبات لشئ من الدنيا وإن كان شريف الجوهر، كريم العنصر ما دام مقلبا بين الليل والنهار ، معروضا على أحداث الدهر وتعاور الأيام ، ثم إنى أقول:

إن كان لديك أيدكُ الله قد نقب خفك ما سمعت ، فقد أدما ظهرى ما فعلت ،فليهن عليك ذلك ، فما انبريت له، ولا اجترات عليه ، حتى استخرت الله عز وجل فيه أياما وليالى ،وحتى أوحى إلى فى المنام بما بعث راقد العزم ، أوجد فاتر النية ، وأحيا ميت الرأى ،وحث على تنفيذ ما وقع فى الروع، وتربع فى الخاطر ، وأنا أجود عليك الآن بالحجة فى ذلك إن طالبت ، أو بالعذر إن استوضحت ، لتثق بى فيما كان منى ،وتعرف صنع الله تعالى فى ثنيه لى.

إن العلم ، حاطك الله ، يراد للعمل كما أن العمل يراد للنجاة ،فإذا كان العمل قاصرا عن العلم كلا على العالم ، وأنا أعوذ بالله من علم عاد كلا ، وأورث ذلا، وصار فى رقبة صاحبه غلا، ،وهذا ضرب من الاحتجاج المخلوط بالاعتذار. ثم أعلم ، علمك الله الخير، أن هذه الكتب حوت من أصناف العلم سره وعلانيته : فأما ما كان سرا فلم أجد له من يتحلى بحقيقته راغبا ، وأما كان علانية فلم أصب من يحرص عليه طالبا .على أنى جمعت أكثرها للناس، ولطلب المثالة منهم ،ولعقد الرياسة بينهم، ولمد الجاه عندهم ، فحرمت ذلك كله ، ولا شك فى حسن ما اختاره الله لى، وناطه بناصيتى ، وربطه بأمرى ،وكرهت مع هذا وغيره أن تكون حجة على لآلى .،ومما شحذ العزم على ذلك ورفع الحجاب عنه أنى فقدت ولدا نجيبا ، وصديقا حبيبا ، وصاحبا قريبا ،وتابعا أديبا ،

ورئيسا منيبا ، فشق على أن أدعها لقوم يتلاعبون بها ، ويدنسون عرضى إذا نظروا فيها ،ويشتمون بسهوى وغلطى إذا تصفحوها ، ويتواؤون وعيبى من أجلها.

فان قلت: ولم تسمهم بسوء الظن وتقرع جماعتهم بهذا العيب؟.

فجوابى لك: إن عيانى منهم فى الحياة هو الذى حقق ظنى بهم بعد الممات .وكيف أتركها لأناس جاورتهم عشرين سنة فما صح لى من أحدهم وداد ، ولا ظهر لى من إنسان منهم حفاظ .ولقد اضطرت بينهم بعد العشرة والمعرفة فى أوقات كثيرة إلى أكل الخضر فى الصحراء ، وإلى التكفف الفاضح عند الخاصة والعامة ، وإلى بيع الدين والمروءة، وإلى تعاطى الرياء بالسمعة والنفاق ، وإلى مالا يحسن بالحر أن يرسمه بالقلم ،ويطرح فى قلب صاحبة الألم، وأحوال الزمان بادية لعينك ، بارزة بين مسائك وصباحك وليس ما قلته بخاف عليك مع معرفتك وفطنتك ، وشدة تتبعك وتفرغك ، وما كان يجب أن ترتاب فى صواب ما فعلته وأتيته ، بما قدمته ووصفته ، وبما أمسكت عنه وطويته ، إما هربا من التطويل ، وإما خوفا من القال والقيل وبعد.، فقد أصبحت هامة اليوم أوغد ، فإنى فى عشر التسعين ،وهل لى بعد الكبرة،والعجز أمل فى حياة لذيذة ، أو رجاء لحال جديدة! ألست من زمرة من قال القائل فيهم:

نروح ونغدو كل يوم وليلة وعما قليل لا نروح ولانغدو وكما قال الآخر:

تفوقت دارت الصبى فى ظلاله إلى أن أتانى بالفطام مشيب .

وهذا البيت للورد الجعدى وتمامه يضيق عنه هذا المكان.

والله يا سيدى لو لم أتعظ إلا بمن فقدته من الاخوان أو الأخدان فى هذا الصقع من الغرباء والأدباء والأحباء لكفى ، فكيف بمن كانت العين تقربهم ،والنفس تستنير بقربهم ، فقدتهم بالعراق والحجاز والجبل والرى ،وما وإلى هذه المواضع ،وتواتر إلى نعيهم واشتدت الواعية بهم فهل أنا إلا من عنصرهم ؟ وهل لى محيد عن مصيرهم؟ أسأل الله تعالى رب الأولين أن يجعل اعترافى بما أعرف ، موصولا بنزوعى عما أقترف ، أنه قريب مجيب.

وبعد ، فلى فى إحراق هذه الكتب أسوة بائمة يقتدى بهم ،ويؤخذ بهديهم ،ويعشى إلى نارهم ، منهم : أبو عمرو بن العلاء ،وكان من كبار العلماء ، مع زهد ظاهر ، وورع معروف ، دفن كتبه فى باطن الأرض فلم يوجد لها أثر.

وهذا داود الطائى ، وكان من خيار مثل صراع أو مأساة، فطورا يستخلصه التصوف وطورا اتستأثر به الفلسفة ولسوف نلحظ أن قسما من رؤى التوحيدى الجمالية ينتمى إلى النزعة الصوفية ، بينما سينتمى قسم آخر منها إلى النزعة الفلسفية !.

من هذه الزاوية المثالية ، يمكن أن ندرك التأثير الشديد لدى التوحيدى بفكر أفلاطون ،وقد مرت بنا شذرات من مثل هذا التأثر ، ويواجهنا الآن وجه آخر من أبرز وجوه هذا التأثر ،وهو استنكاف التوحيدى (كأفلاطون) للشعر والشعراء ، فهو يقرر فى« الإمتاع والمؤانسة» لست من الشعر والشعراء فى شئ وأكره أن أخطو على دحض ،وأحتسى غير محض» ولعله فى ذلك متأثر- بجوار

أفلاطون الذى أخرج الشعراء من مدينته الفاضلة- بموقف القرآن من الشعر والشعراء، حيث وصف القرآن الشعراء بأنهم يقولون ما لا يفعلون وفى كل واد يهيمون ، ويروى لنا التوحيدى عن ابن كعب الانصارى قوله : «إن من شرف النثر أن النبى لم ينطق إلا به أمرا وناهيا ، ومستخبرا ومخبرا ، وهاديا وواعظا ، وغاضبا وراضيا ، وما سلب النظم إلا لهبوطه عن درجة النثر ، ولانزه عنه إلا لما فيه من النقص».

وعلى الرغم من أن التوحدى قد يرى بوضوح أن «المحسوسات معابر للمعقولات» فإنه كثيرا ما يرى أن «المعقولات» هى أشرف من المادة ، وأن المعنى من ثم أهم من صياغته .ولقد سأله أبو اسحق الصابى فى تفضيل النثر والنظم فأجاب: «النثر أشرف جوهرا ، والنظم أشرف عرضا» لأنه يربط الجوهر بالعقل ،والعرض بالحس، والعقل أشرف من الحس، حتى لو كانت «المحسوسات معابر للمعقولات».

فى هذا الفكر المثالى نجد العديد من التناقضات ،وفى فكرالتوحيدى أمثلة وافرة لهذا الفكر ولتناقضاته . نحن نراه يعتبر «اللفظ» مجرد وعاء أو إناء «للمعنى» ففى مقابسته الهامة رقم٦٠ من «المقابسات» يورد قول أستاذه السجستانى : «العقل يطلب المعنى، فلذلك لاحظ للفظ عنده ، وإن كان متشوقا معشوقا .والدليل على أن المعنى مطلوب النفس -دون اللفظ الموشح بالوزن المحمول على الضرورة- أن المعنى متى صور بالسانح والخاطر وتوفى الحكم ، لم يبال بما يقويه من اللفظ ، الذى هو كاللباس والمعرض والإناء والظرف » . لكن التوحيدى يعود فى موضع آخر من « الإمتاع والمؤانسة » ليرفض الفكرة التى تقول : « إن من عبر عن نفسه بلفظ ملحون أو محرف أو موضوع غير موضعه ، وأفهم غيره ، فقد كفى ». إنه لايوافق على ذلك لأنه - يقول د. زكريا ابراهيم - « يحرص دائما على جمال اللفظ ، وموسيقية العبارة ، وحلاوة التعبير ، ورشاقة الصياغة ، وحسن السبك » . وهذا الاعتناء هو ماأكده أحمد أمين فى مقدمة مما أجده من انكسار النشاط ، وانطواء الانبساط ، لتعاود العلل على ، وتخاذل الأعضاء منى . فقد كل البصر ، وانعقد اللسان ، وجمد الخاطر ، وذهب البيان ، وملك الوسواس ، وغلب اليأس ، من جميع الناس . ولكنى حرست منك ما أضعته منى ، ووفيت لك بما لم تف به لى . ويعز على أن يكون لى الفضل عليك ، أو أحرز المزية دونك ،وماحدانى على مكاتبتك إلا ماأتمثله من تشوقك إلى . وتحرقك على ، وإن الحديث الذى بلغك قد بدد فكرك ، وأعظم تعجبك ، وحشد عليك جزعك . والأول يقول :

وقد يجزع المرء الجليد ويبتلى
عزيمة رأى المرء نائبة الدهر
تعاوده الأيام فيما ينوبه
فيقوى على أمر ويضعف عن أمر

على أنك لو علمت فى أى حال غلب على مافعلته ، وعند أى مرض ، وعلى أية عسرة وفاقة ، لعرفت من عذرى أضعاف ما أبديته ، واحتججت لى بأكثر مما نشرته وطويته . وإذا أنعمت النظر

تيقنت أن لله جل وعز فى خلقة أحكاما لايعاذ عليها ، ولايغالب فيها . لأنه لايبلغ كنهها ، ولاينال غيبها ، ولايعرف قلبها ، ولايقرع بابها . وهو تعالى أملك لنواصينا ، وأطلع على أدلنينا وأقاصينا ، له الخلق والأمر، وبيده الكسر والجبر ، وعلينا الصمت والصبر ، إلى أن يوارينا اللحد والقبر ، والسلام .

إن سرك ، جعلنى الله فداك ، أن تواصلنى بخبرك ، وتعرفنى مقر خطابى هذا من نفسك ، فافعل ؟ لأنى لا أدع جوابك إلى أن يقضى الله تعالى تلاقيا يسر النفس ، ويذكر حديثا بالأمس ، أو بفراق نصير به إلى الرمس ، ونفقد معه رؤية الشمس . والسلام عليك خاصا ، بحق الصفاء الذى بينى وبينك ، على جميع إخوانك عاما ، بحق الوفاء الذى يجب على وعليك والسلام ،

وكتب هذا الكتاب فى شهر رمضان سنة ٤٠٠ هـ

الحـق

كتب أحمد بن اسماعيل إلى ابن المعتز رقعة فى فصل منها يصف الحق بقوله :

ولم أر كالحق أصدق قائلا ، ولا أفضل عالما ، ولاأجمل ظاهرا ، ولا أعز ناصرا ، ولا أوثق عروة ، ولاأحكم عقدة ، ولا أعلى فى النصفة ، لا يجرى لأحد الا جرى عليه ، ولا يجرى على أحد الا جرى له ، يستوى الملك والسوقة فى واحته ويعتدل البغيض والحبيب فى محضه ، طالبه حاكم على خصمه ، وصاحبه أمير على أميره ، من دعا إليه ظهر اليه برهانه ، ومن جاهد عليه كثر أعوانه ، يمكن دعاته من آلة القهر ، ويجعل فى أيديهم آلة النصر ، ويحكم لهم بغلبة العاجلة ، وسعادة الآجلة . ولم أر كالباطل أضعف سببا ، ولا أوعر مذهبا ، ولا أجهل طالبا ، ولا أزل صاحبا ، ومن اعتصم به أسلمه ، ومن لجأ اليه خذله ، يرتق فينفتق ، ويرقع فينخرق ، إن حاول صاحبه بيعه بارت سلعته ، وإن رام ستره زادت ظلمته لايقارنه البرهان ، ولايفارقه الخذلان ، قد قذف عليه بالحق يدمغه ويقمعه فيمحقه ، صاحبه فى الدنيا مكذب وفى الآخره معذب ، إن نطق دل على عيبه ، وإن سكت تردد فى ريبه .

(البصائر والذخائر)

بسط ونشو ولذاذة

(الليلة الحادية والعشرون)

(وسأل مرة عن المغنى إذا راسله (١) آخر لم يحب أن يكون ألذ وأطيب ، وأحلى وأعذب ؟.

فكان من الجواب : إن أبا سليمان قال فى جواب هذه المطالب مايمنع من افتضاب قول وتكلف جواب ، ذكر أن المسموع الواحد إنما هو بالحس الواحد ، وربما كان الحس الواحد أيضا غليظا أو كدرا ، فلا يكون لنيله اللذة به (٢) بسط ونشو ولذاذة وكذلك (المسموع ربما لم يكن فى غاية الصفاء على تمام الأداء بالتقطيع) الذى هو نفس فى الهواء ، فلا تكون أيضا إنالته للذة على

التمـام والوفـاء ، فـاذا ثنى المسـمـوع – أعنى توحـد النغم بالنغم – قـوى الحس المدرك ، فنال مسموعين بالصناعة ، ومسموعا واحدا بالطبيعة ، والحس لايعشق المواحدة والمناسبة والاتفاق إلا بعد أن يجدها فى المركب ، كما أن العقل لايعشق الا بعد أن ينالها فى فضاء البسيط ، فكلما قوى الحس باستعماله ، التذ صاحبه بقوته حتى كأنه يسمع مالم يسمع بحس أو أكثر ، وكما أن الحس إذا كان كليلا (كان الذى يناله كليلا) ، كذلك الحس إذا كان قويا كان مايناله قويا .

قال : هذا كله موهوب للحس ، فما للعقل فى ذلك ؟ فانا نرى العاقل تعتريه دهشة وأريحية واهتزاز .

قلت : قد أتى على مجموع هذا ومعرفته أبو سليمان فى مذكراته لابن الخمار وذكر أن من شأن العقل السكون ، ومن شأن الحس التهيج ، ولهذا يوصف العاقل بالوقار والسكينة ، ومن دونه يوصف بالطيش والعجرفة ، والانسان ليس يجد العقل وجدانا فيلتذ به ، وإنما يعرفه إما جملة وإما تفصيلا ، أعنى جملة بالرسم وتفصيلا بالحد ، ومع ذلك يشتاق إلى العقل ، ويتمنى أن يناله ضربا من النيل ويجده نوعا من الوجدان ، فلما أبرزت الطبيعة الموسيقى فى عرض الصناعة بالآلات المهيأة ، وتحركت بالمناسبات التامة والأشكال المتفقة أيضا ، حدث الاعتدال الذى يشعر بالعقل وطلوعه وانكشافه وأنجلائه ، فبهر الاحساس ، وبث الايناس ، وشوق إلى عالم الروح والنعيم ، وإلى محل الشرف العميم ،ويعث على كسب الفضائل الحسية والعقلية ، أعنى الشجاعة والجود والحلم والحكمة والصبر ، وهذه كلها جماع الأسباب المكملة للإنسان فى عاجلته وآجليته، وبالواجب ما كان ذلك كذلك ، لأن الفضائل لاتقتنى إلا بالشوق إليها ،والحرص عليها ،والطلب لها، والشوق والطلب والحرص إلا بمشوق وباعث وداع ،فلهذا برزت الاريحية والهزة ،والشوق والعزة، فالاريحية للروح ،والهزة للنفس ،والشوق للعقل ،والعزة للإنسان .ومما يجب أن يعلم أن السمع والبصر أخص بالنفس من الإحساسات الباقية، لأنهما خادما النفس فى السر والعلانية ، ومؤنساها فى الخلوة ، وممداها فى النوم واليقظة، وليست هذه الرتبة لشئ من الباقيات ، بل الباقيات آثارها فى الجسد الذى هو مطية الإنسان ، لكن الفرق بين السمع والبصر فى أبواب كثيرة : ألطفها أن أشكال المسموع مركبة فى بسيط ، وأشكال المبصر مبسوطة فى مركب.

قلت : وقد حكيت هذا لأبى زكريا الصيمرى فطرب وارتاح وقال :

ماأبعد نظر هذا الرجل ! وما أرقى لحظه! وما أعز جانبه !

(الامتاع والمؤانسة)

الغريب فى غربته غريب

رسالة (يا)

سـألتنى – رفق الله بك ، ، وعطف على قلبك – (و) أن زذكر لك الغريب ومحنه ، وأصف لك

الغربة وعجائبها ، وأمر فى أضعاف (٣) ذلك بأسرار لطيفة ومعان شريفة ، إما معرضا ، وإما مصرحا ، وإما مبعدا ، وإما مقربا ، فكنت على أن أجيبك إلى ذلك . ثم أنى وجدت فى حالى شاغلا عنك ، وحائلا دونك ، ومفرقا بينى وبينك . وكيف أخفض الكلام الآن وأرفع ، وما الذى أقول وأصنع ، وبماذا أصبر ، وعلى ماذا أجزع . وعلى العلات التى وصفتها والقوارف التى سترتها أقول :

إن الغريب بحيث ماحطت ركائله ذليل

ويد الغريب قصيرة ولسانه أبدا كليل

والناس ينصر بعضهم بعضا ، وناصره قليل

وقال آخر:

وماجزعا من خشية البين أخضلت

دموعى ، ولكن الغريب غريب (٤)

ياهذا ! هذا وصف غريب نأى عن وطن بنى بالماء والطين ، وبعد عن آلاف له عهدهم الخشونة واللين ، ولعله عاقرهم الكأس بين الغدران والرياض ، واجتلى بعينه محاسن الحدق المراض ، ثم إن كان عاقبه ذلك كله إلى الذهاب والانقراض – فأين أنت عن قريب قد طالت غربته فى وطنه ، وقل حظه ونصيبه من حبيبه وسكنه ؟! وأين أنت عن غريب لاسبيل له إلى الأوطان ، ولاطاقة به على الاستيطان؟ قد علاه الشحوب وهو فى كن ، وغلبه الحزن حتى صار كأنه شن (٥). إن نطق نطق حزنان منقطعا ، وإن سكت سكت حيران مرتدعا ، وإن قرب قرب خاضعا ، وإن بعد بعد خاشعا وإن ظهر ظهر ذليلا ، وإن توارى توارى عليلا وإن طلب طلب واليأس غالب عليه ، وإن أمسك أمسك والبلاء قاصد اليه ، وإن أصبح أصبح حائل اللون من وساوس الفكر ؛ وإن أمسى أمسى منتهب السر من هواتك الستر ، وإن قال قال هائبا، وإن سكت سكت خائبا ، قد أكله الخمول ، ومصه الذبول ، وحالفه النحول ، لايتمنى إلا على بعض بنى جنسه ، حتى يفضى إليه بكامنات نفسه ، ويتعلل برؤية طلعته ، ويتذكر لمشاهدته قديم لوعته فينثر الدموع على صحن خده ، طالبا للراحة من كده.

وقد قيل : الغريب من جفاه الحبيب وأنا أقول : بل الغريب من واصله الحبيب ، بل الغريب من تغافل عنه الرقيب ، بل الغريب من حاباه الشريب (٦) ، بل الغريب من نودى من قريب ، بل الغريب من هو فى غربته غريب ، بل الغريب من ليس له نسيب ، بل الغريب من ليس له من الحق نصيب . فان كان هذا صحيحا ، فتعال حتى نبكى على حال أحدثت هذه الغفوة وأورثت هذه الجفوة.

لعل انحدار الدمع يعقب راحة

من الوجد أو يشفى نجى البلابل (٧)

ياهذا! الغريب من غربت شمس جماله ، واغترب عن حبيبه وعذاله، وأغرب فى أقواله وأفعاله ، وغرب فى إبداره وإقباله ، واستغرب فى طمره (٨) وسرباله ، ياهذا الغريب من نطق وصفه بالمحنة بعد المحنة ، ودل عنوانه على الفتنة عقيب الفتنة ، وبانت حقيقته فيه فى الفينة حد الفينة . الغريب من إن حضر كان غائبا ، وإن غاب كان حاضرا ، الغريب من إن رأيته لم تعرفه ، وإن لم تره لم تستعرفه ، أما سمعت القائل حين قال :

بم التعلل؟ لا أهل ، ولا (زمن)

ولانديم ، ولا كأس ، ولا سكن (٩)

هذا وصف رجل لحقته الغربة ، فتمنى أهلا يأنس بهم ، ووطنا يأوى اليه ، ونديما يحل عقد سره معه ، وكأسا ينتشى منها ، وسكنا يتوادع عنده ، فأما وصف الغريب الذى اكتنفته الأحزان من كل جانب ، واشتملت عليه الأشجان من كل حاضر وغائب ، وتحكمت فيه الأيام من كل جاء وذاهب ، واستغرقته الحسرات على كل فائت وآئب ، وشتتهع الزمان والمكان بين كل ثقة ورائب ،– وفى الجملة ، أتت عليه أحكام المصائب والنوائب ، وحطته بأيدى العواتب عن المراتب ، فوصف يخفى دونه القلم ، ويفنى من ورائه القرطاس، ويشل غن بجسه (١٠) اللفظ، لأنه وصف الغريب الذى لا اسم له فيذكر ، ولا رسم له فيشهر ، ولاطى له فينشر ، ولاعذر له فيعذر ، ولاذنب له فيغفر ، ولاعيب عنده فيستر.

هذا غريب لم يتزحزح عن مسقط رأسه ، ولم يتزعزع عن مهب أنفاسه، وأغرب الغرباء من صار غريبا فى وطنه ، وأبعد البعداء من كان بعيدا فى محل قربه ، لأن غاية المجهود أن يسلو عن الموجود، ويغمض عن المشهود ، ويقصى عن المعهود ، ليجد من يغنيه عن هذا كله بعطاء ممدود ، ورفد مرفود ، وركن موطود (١١) ، وحد غير محدود.

ياهذا ! الغريب من إذا ذكر الحق هجر ، وإذا دعا إلى الحق زجر . الغريب من إذا أسند كذب ، ورذا تظاهر (١٢) عذب . الغريب من إذا امتار لم يمر (١٣)، وإذا قعد لم يزر . يارحمتا للغريب (١٤)! طال سفره من غير قدوم ، وطال بلاؤه من غير ذنب ، واشتد ضرره من غير تقصير ، وعظم عناؤه من غير جدوى !

الغريب من إذا قال لم يسمعوا قوله ، وإذا رأوا لم يدوروا حوله ، الغريب من إذا تنفس أحرقه الأسى والأسف ، وإن كتم أكمده الحزن واللهف . الغريب من إذا أقبل لم يوسع له ، وإذا أعرض لم يسئل عنه ، الغريب من إذا سأل لم يعغط ، وإن سكت لم يبدأ . الغريب من رذا عطس لم يشمت (١٥) ، وإن مرض لم يتفقد . الغريب من إن زار أغلق دونه الباب ، وإن استأذن لم يرفع له الحجاب.

الغريب من رذا نادى لم يجب ، وإنهادى لم يحب ، اللهم إنا قد أصبحنا غرباء بين خلقك ، فآنسنا فى فنائك. اللهم وأمسينا مهجورين عندهم، فصلنا بحبائك (١٦) اللهم إنهم عادونا من

أجلك لأنا ذكرناك لهم فنفروا ، ودعوناهم إليك فاستكبروا ، وأوعدناهم بعذابك فتحيروا ، ووعدناهم بثوابك فتجبروا ، وتعرفنا بك إليهم فتنكروا ، وصناك عنهم فتنمروا ، وقد كعنا (١٧) عن نذيرهم ، ويئسنا من توقيرهم .

اللهم إنا قد حاربناهم فيك وسالمناهم لك ، وحكمنا لهم عنهم لوجهك ، وصبرنا على زذاهم من أجلك ، فخذ لنا بحقنا منهم ، وإلا فاصرف قلوبنا عنهم ، وانسنا حديثهم واكفنا طيبهم وخبيثهم.

أيها السائل عن الغريب ومحنته ! إلى ههنا بلغ وصفى فى هذه الورقات . فانها استزدت زدت ، وإن اكتفيت اكتفيت ، والله أسأل لك تسديدا فى المبالغة ، ولى تأييدا فى الجواب ، لنتلاقى على نعمته ، ناطقين بحكمته ، سابقين إلى كلمته.

ياهذا ! الغريب فى الجملة من كله حرقة ، وبعضه فرقة ، وليله أسف ، ونهاره لهف ، وغداؤه حزن ، وعشاؤه شجن ، وآراؤه (١٨) ظنن ، وجميعه فتن ، ومفرقه محن ، وسره علن ، وخوفه وظن.

الغريب من إذا دعا لم يجب ، وإذا هاب لم يهب.

الغريب من إذا استوحش استوحش منه : استوحش لأنه يرى ثوب الأمانة ممزقا ، واستوحش منه لأنه يجد لما يقبله من الغليل محرقا.

الغريب من لبسته خرقة ، وأكلته سلقة وهجعته خفقة .

دع هذا كله ! الغريب من أخبر عن الله بأنباء الغيب داعيا اليه .

بل الغريب من تهالك فى ذكرى الله متوكلا عليه ، بل الغريب من توجه الى الله قاليا لكل من سواه ، بل الغريب من وهب نفسه لله متعرضا لجدواه.

ياهذا ! أنت الغريب فى معناك

(الإشارات الالهية)

مقابسة

(فى النثر والنظم وأيهما أشد أثرا فى النفس)

قال أبو سليمان، وقد جرى كلام فى النظم والنثر : النظم أدل على الطبيعة . لأن النظم ، من حيز التركيب والنثر أدل على العقل . لأن النثر من حيز البساطة. وإنما المنظوم بأكثر مما تقبلنا المنثور لانا للطبيعة أكثر منا بالعقل . والوزن معشوق للطبيعة والحس : ولذلك يفتقر له (عند) مايعرض استكراه فى الفظ . والعقل يطلب المعنى فلذلك لاحظ للفظ عنده وإن كان متشوقا معشوقا . والدليا على أن المعنى مطلوب النفس دون اللفظ الموشح بالوزن المحمول على الضرورة ، أن المعنى متى صور السائح والخاطر وتوفى لحكم لم يبل بما يقويه من الفظ الذى هو كاللباس والمعرض والاناء والظرف . لكن العقل مع هذا يتخير لفظا بعد لفظ ، ويعشق صورة دون صورة ، ويأنس بوزن دون وزن ، ولهذا شقق الكلام بين ضروب وأصناف النظم . وليس هذا للطبيعة ؟ بل الذى يستند إليها ماكان حلوا فى السمع ، خفيفا على القلب. بينه وبين الحق صلة. وبين الصواب

وبينه آصرة . وحكمها مخلوط باملاء النفس . كما أن قبول النفس راجع إلى تصويب العقل .

ثم قال: ومع هذا ففى النثر ظل النثر ولولا ذلك ماخف ولاحلا ولاطاب ولاتحلا ، وفى النظم ظل من النثر، ولولا ذلك ماتميزت أشكاله ولاعذبت موارده ، ومصادره ، ولابحوره وطرائقه ، ولاائتلفت وصائله وعلائقه .

وقال كلاما أكثر من هذا وقد أخرته إن شاء الله لرسالة معدودة فى الكلام على الكلام . ثمرة هذا فيها بتمامه مع سائر مايكون لها بشرح تام وعناية بالغة إن ساق الله الى غايتها . ورفع هذا الفساد الذى قد منع من كل ماتهم النفس به من الخير . وصد عن كل مايكون سببا للسعادة . ولاملجأ إلا إلى الله فى كشف هذه الضراء ، وإماطة هذه اللأواء ، فهو أول كل خير وميسر كل طالب وناصره .

(المقابسات)

الأسلوب المثالى

ثم قال : فخير الكلام على هذا التصفح والتحصيل ما أيده العقل بالحقيقة ، وساعده اللفظ بالرقة ، وكان له سهولة فى السمع وريع فى النفس ، وعذوبة فى القلب ، وروح فى الصدر ، إذا ورد لم يحجب ، وإذا صدر لم ينس ، وإذا طال لم يمل ، وإذا قصر لم يحقر ، له غنج كغنج العين ، ودل كدل الحبيب ، ولذة كلذة الغناء ، وانقياد كانقياد الذليل ، وتيه كتيه العزيز ،وجمش كجمش (١٩) الغانية ، ووقار كوقار الشيخ ، وحلاوة كحلاوة العافية ، ولين كلين الصبيب (٢٠) ، وأخذ كأخذ الخمر ، وولوج كولوج النسيم ، ووقع كوقع القطر ، وريح كريح العطر واستواء كاستواء السطر ، وسبك كسبك التبر ، يجمع لك بين الصحة والبهجة والتمام ، فأما صحته : فمن جهة شهادة العقل بالصواب ، وأما بهجته : فمن جهة جوهر اللفظ ، واعتدال القسمة ، وأما تمامه : فمن جهة النظم الذى يستعير من النفس شغفها ويستثير من الروح كلفها.

(مثالب الوزيرين)

هوامش

(١) راسله آخر ، أى تابعه فى غنائه مساندة له.

(٢) به أى المسموع

(٣) أى: تضاعيف وثنايا

(٤) خضل (من باب فرح) خضلا ، وأخضل واخضل واخضوضل : ندى وابتل ، فهو خضل وخاضل.

(٥) الشن (وبهاء القرية الخلق الصغيرة والجمع : شنان

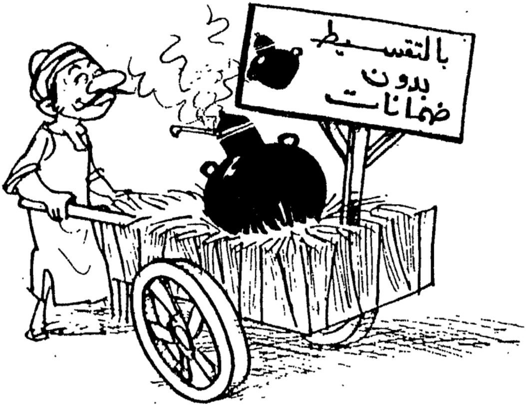
(٦) الشريب : من يشاركك فى الشرب ، من يستقى أو يسقى معك ، النديم ، ويقصد به نديم المحبوب.

(٧) هذا البيت لذى الرمة (راجع ديوانه . نشرة مكارتنى ص ٤٩٢ بيت رقم ٢ . كمبردج سنة ١٩١٩م(١٣٣٧هـ)

(٨) الطمر : الثوب البالى ، والسربال : القميص ، أو كل مايلبس.

(٩) السكن (محركة) : كل مايستأنس به .

(١٠) وشل يشل: قل وضعف وافتقر ، ومنه الوشل : الماء القليل . والبجس : تفجر الماء ، ومنه : عين بجيس : غزيرة.



(١١) وطيد : ثابت.

(١٢) تنزه عن الأدناس ، أو زصلها : تظاهر (بالظاء المعجمة)

(١٣) مار عياله يمير ميرا وأمارهم وامتار لهم : جلب لهم الطعاء

(١٤) تذكر لبيب على بن الجهم : يارحمتا للغريب بالبلد النازح ، ذا بنفسه صنعا!

(١٥) التشميت والتسميت : الدعاء للعاطس.

(١٦) الحباء (بكسر الحاء) : العطية مهر المرأة.

(١٧) كعت عنه أكيع وأكاع كيعا وكيعوعة : إذا هبته وجبنت عنه ، فهو كائع ، وهم كاعة.

(١٨) ص : ورواه . وظنن جمع ظنه بالكسر : تهمة ، أو : ورؤاه؟ جمع رؤية الغريب من فجعته محكمة ، ولوعته مضرمة.

(١٩) الجمش : الصوت الخفى.

(٢٠) الصبيب : المصبوب والعسل الجيد.

مدخل إلى قراءة

« حى بن يقظان »

لابن طفيل

تقديم: محمود أمين العالم

إن « حى بن يقظان » ليست مجرد قصة فلسفية كما يقال ، بل هى رؤية فلسفية كاملة ، وإن جاء التعبير عنها فى بنية قصصية ، وهى بنية قصصية من حيث زمنيتها أو تاريخيتها الداخلية ، ، فنحن مع هذه القصة نتحرك منذ أن تولد أو ولد كائن حى غفل (ولهذا أعطاه ابن طفيل (١) اسما مجردا هو « حى» ونسبه إلى والد يقظان ، لعله الله الذى لاينام ، أو لعل اليقظان هو القوة المتفتحة العارفة فيه التى سوف تؤسس له بالجهد الذاتى العقلى عالما معرفيا كاملا مقطوع الصلة بكل المكتسبات والموروثات السابقة على وجوده).

نتحرك مع هذا الكائن الحى فى عالم معرفى يبدأ من المحسوس الطبيعى إلى التجربة والممارسة والتركيب والتصنيع لنصل إلى التنظير العقلى حتى نبلغ معه الاستشراف الماورائى الميتافيزيقى ، الروحى المفارق . وبهذه التنمية الداخلية تتشكل الأحداث العملية والفكرية لهذه القصة . وتتم هذه التنمية خلال مراحل تاريخية تحسب كل منها بالأعوام السبعة ، فهى سبعة أعوام أو ثمانية وعشرون عاما ، أو خمسة وثلاثون عاما وهكذا . إن الأعوام السبعة هى المعيار الذى نقيس به هذه المراحل وهذه الانتقالات ، بما لعدد سبعة من دلالة فى تاريخ الفلسفة ، وتاريخ المذاهب الباطنية عامة . وإلى جانب هذا ، فان هذه البنية القصصية تتمثل فى تعدد أشخاصها فهناك حى بن يقظان ، وهناك الراوى – ابن طفيل – وهناك كما سنرى الظبية التى ستعتنى بالطفل حى ، وهناك أبسال وسلامان ، ومايجرى فى القصة من لقاءات ومجاهدات وحوارات واتفاق واختلاف . وفى هذه البنية القصصية تتعدد الأصوات ، فبرغم أن لها ساردا أو راويا واحدا ، فان القصة تتحول فى بعض مواقعها من السرد على لسان الراوى إلى مخاطبة القارئ « فاصغ الآن بسمع قلبك وحدق ببصر عقلك إلى ما أشير به إليك لعلك أن تجد منه هديا يلقيك على جادة الطريق » (٢).

على أنه برغم هذه البنية القصصية ، فان « حى بن يقظان» ليس مجرد قصة فلسفية ، كما سبق أن ذكرت – بل نسق فلسفى كامل يكاد يعالج أهم القضايا الفلسفية فى الفكر العربى الإسلامى فى المرحلة المسماة بالوسيطة، ولهذا نجد الأستاذ الدكتور عاطف العراقى يؤلف كتابا بعنوان « الميتافيزيقا فى فلسفة ابن طفيل» ليس له مصدر أساسى غير قصة حى بن يقظان. فالقصة تبدأ بحوار مع الفلاسفة السابقين عليه مثل الفارابى وابن سينا والغزالى وابن باجه ، وقد يتضمن هذا الحوار نقدا ، بل تبدأ القصة خطابها بقولها « سألت أيها الأخ الكريم الصفى الحميم – منحك الله البقاء الأبدى وأسعدك السعد السرمدى – أن أبث إليك ما أمكننى بثه من أسرار الحكمة المشرقية التى ذكرها الشيخ (الإمام) الرئيس أبو على بن سينا» . ثم تأخذ القصة فى بيان النشأة الأولى « لحى » هل بالتولد الطبيعى من الطين أو بالميلاد من أب وأم ، وبيان كل حالة من هاتين الحالتين ، والعلاقة بين الجسد والنفس ، وبين التولد والروح ، وبين المادة والصورة، ثم الوظائف المختلفة لأعضاء الجسم ،وعندما تموت الظبية التى قامت على تغذيته ورعايته ،

ويكتشف سر موتها ، تبدأ تأملاته الفلسفية حول الاختلاف والوحدة فى الأشياء والنباتات والحيوانات ، ثم حول طبائع الأشياء ،فاكتشافه لقانون السببية ، ثم إدراكه للعلة الأولى فى الوجود ،وتساؤله حول حدوث العالم أو قدمه ،والعلاقة بين العالم وواجب وجوده، وصفاته ، ثم يعرض لمسألة النفس العاقلة بعد الموت ، هل مصيرها العدم أو الخلود ،ويعرض بشكل رمزى للعلاقة بين الدين والفلسفة ، ويصل أخيرا إلى مسألة الاتصال بالقوى العلوية المفارقة متطلعا وإلى التشبه بها إلى غير ذلك .. إنها إذن-كما رأينا- ليست قصة فلسفية تعالج موضوعا محددا ، أو حدثا واحدا بل هى رؤية فلسفية شاملة متكاملة تجمع بين المحسوس والمجرد، الطبيعى وما وراء الطبيعى .ونستطيع أن نجد مصادرها الأولى عند بعض الفلاسفة السابقين مثل الفارابى وابن سينا وبخاصة ابن باجة فى رؤيته للمتوحد فى كتابه «تدبير المتوحد» كما نستطيع كذلك أن نتبين تأثيرها بعد ذلك فى فلسفة ابن رشد بوجه خاص (٣) كما نستطيع أن نتبين فى القصة تعبيرا فلسفيا عن فلسفة دولة الموحدين فى الأندلس التى حاولت أن ترفع من شأن العقل وتتخذ منه مرتكزا لدولتها لتضعف من نفوذ الفقهاء ورجال الدين الذين كانوا ، يواصلون هذا النفوذ برغم سقوط دولة المرابطين ذات التوجه الدينى المتعصب ، لم يكن إذن كتاب ، «حى بن يقظان» أو قصته عملا منبتا عن تاريخ الفلسفة العربية الاسلامية الوسيطة ،كما أنه لم يكن منبتا أو معزولا عن معركة عصره ومجتمعه .ولهذا تختلف هذه القصة عن كل الأبنية القصصية السابقة واللاحقة-الفكرية منها أو الأدبية- التى تكثر الدراسات حول أوجه التشابه والاختلاف بينها وبين قصة« حى بن يقظان» فلاشك أن قصة «سلامان وأبسال» اليونانية التى ترجمها «حنين بن اسحاق العبادى» ذات دلالة مختلفة تماما عن دلالة قصة ابن طفيل رغم التشابه السطحى بينهما ،وكذلك الأمر بالنسبة لقصة حى بن يقظان لابن سينا وقصة« حى بن يقظان» أو الغربة الغربية للسهروردى ، فهما قصتان رمزيتان عن قوى النفس المختلفة والتمييز بينها ،وهناك قصة أخرى بعنوان «الكريتيكون» للأب بالتازار جراثيان نشرت فى منتصف القرن السابع عشر بين١٦٥٠-١٦٥٣وهى تشبه تماما فى نصفها الأول« حى بن يقظان» برغم أن ترجمة بوكوك« لحى بن يقظان» لم تنشر إلا عام ١٦٨١ ، ثم هناك قصة روبنسون كروز» «لدانيل دى فو» التى نشرت عام١٧١٩ والتى تأثرت بغير شك بالبنية(٤) القصصية لقصة ابن طفيل وإن اختلفا تماما من حيث الدلالة ، «فروبنسون كروز» قد يكون تصويرا وتجسيدا لفلسفة جان جاك روسو حول الصفاء الأول للإنسان الذى أفسده المجتمع ، وهو ما يختلف تماما عن فلسفة قصة «حى بن يقظان» على أن المشترك بين أغلب هذه القصص السابقة على قصة ابن طفيل أو اللاحقة لها هو التوحد أو التفرد فى جزيرة منعزلة ، أو فى سجن ، أو فى طريق بحثا وتطلعا إلى معرفة عليا ، أو امتحانا واكتشافا لقدرات خاصة.

على أنه بصرف النظر عن النواة القصصية التى تتمثل فى عزلة حى بن يقظان والتى نجدها

فى قصص أخرى بشكل أو بآخر ، فإننا نستطيع أن نتبين العلاقة المباشرة بين« حى بن يقظان» لابن طفيل وبين المتوحد فى« تدبير المتوحد» لابن باجة ، وأكاد أقول أن حى بن يقظان هو الامتداد المتطور لمتوحد ابن باجة. ولد ابن باجة فى أواخر القرن الخامس الهجرى والحادى عشر الميلادى ،ومات مسموما عام ٥٥٣ هـ/١١٣٨ م وقضى الجانب الأكبر من حياته فى ظل دولة المرابطين التى كانت تتسم بالتعصب الدينى كما سبق أن أشرنا.

يؤكد ابن باجة فى كتابه أن الإنسان مدنى بطبعه ولاحياة له بغير المجتمع ، ولكن المجتمع ملئ «بالشرور والرذائل وتغلب الجوانب المادية» ،ولهذا فلا سبيل للفيلسوف الذى يريد أن يصل إلى الحقيقة إلا الابتعاد عن الناس ، ولكنها ليست دعوة إلى عزلة مطلقة بل إلى عزلة مختارة أو منتقاة –لوصح التعبير –أى عزلة بين علماء من أمثاله ، وليست عزلة انفرادية ،ومع ذلك فقد انتهى الأمر به إلى عزلة انفرادية، فما أندر أن يجد المرء علماء متفرغين للعلم! ولكن كيف يستقيم هذا مع قول ابن باجه بأن الإنسان بالذات مدنى بالطبع ؟ . ويقول ابن باجه إن الإنسان بالذات مدنى بالطبع، ولكنه متوحد بالعرض ، ذلك أن حياة التوحد قد تكون خيرا تماما كالطعام ، فالطعام خير بالذات ولكنه قد يكون شرا بالعرَض بالنسبة للمريض .والسموم شر بالذات ولكنها قد تكون خيرا بالعرض فى حالة العلاج مثلا ، ولم تكن دعوة ابن باجة فى الحقيقة دعوة للعزلة عن المجتمع بقدر ما كانت نقدا غير مباشر لمظاهر التعصب والجهالة والشرور والرذائل التى كانت سائدة فى المجتمع فى ظل دولة المرابطين ، وكانت تعبيرا عن معاناته الفكرية فى هذه الفترة ، وكان توحده وسيلة لتنمية الصفات العقلية توصلا إلى الاتصال بالعقل الفعال وتحقيقا للإنسان الكامل، وبرغم الطابع العقلى لفكره فلا نستطيع أن نغفل عن تأثره بالفلسفة الأفلاطونية المحدثة ذات التوجه الغنوصى الباطنى.

وفى تقديرى أن حى بن يقظان لابن طفيل هو التجسيد المتطور– كما سبق أن ذكرنا– لمتوحد ابن باجه فى مرحلة جديدة هى مرحلة دولة الموحدين حيث الازدهار والاستقرار والتفتح العقلى .لقد أصبح ابن طفيل طبيبا خاصا للسلطان أبو يعقوب يوسف ،وكان هو الذى قدم ابن رشد إليه لتحقيق مطلب السلطان فى شرح وتلخيص كتب أرسطو حتى يسهل إطلاع الناس عليها واستيعابهم لها، دعما للتوجه العقلانى للدولة، فى مواجهة نفوذ الفقهاء ورجال الدين المتزمتين وقد حل ابن رشد محل ابن طفيل فى مكانته من السلطان بعد وفاته عام ١١٨٥ ميلادية.

وقبل أن نعرض لتقييم «حى بن يقظان» وتحديد دلالتها ، قد يكون من الضرورى أن نعرض لبعض محاورها الأساسية عرضا مختصرا.

تبدأ قصة «حى بن يقظان» كأنما هى محاولة للإجابة على سؤال حول« أسرار الحكمة الشرقية» التى ذكرها الشيخ الإمام أبو على بن سينا وكيف هذا السؤال قد حرك عند ابن طفيل أو راوى القصة خاطرا شريفا أفضى به إلى حال لم يشهدها من قبل معنى هذا إن الإجابة على

السؤال لا تحتاج إلى مجرد تعرف أو تقرير أو شرح ، وإنما إلى معاناة وجدانية باطنية ، فهذا هو ما يتفق مع ما يسمى بالحكمة الشرقية أو فلسفة ابن سينا التى تتسم بالوجه الغنوصى والإشراقى ،وهنا يشير إلى مختلف المحاولات والاجتهادات السابقة للتعبير عن هذه الحال ،عند الفارابى وابن سينا والغزالى وابن باجه ، منتقدا بعض أقاويلهم ، ثم يسعى إلى الجمع بين هذه الأقاويل المختلفة ، وإضافتها إلى ما استجد فى عصره منها حتى استقام له الحق ، أولا بطريق البحث النظرى ثم بطريق الذوق اليسير بالمشاهدة أى المعاناة الباطنية، وهكذا– كما يقول– «أصبح أهلا لكلام يؤثر عنا».

ولعل ابن طفيل فى قوله هذا، يدفعنا إلى الاختلاف مع د. محمد عابد الجابرى فى قوله بأن ابن طفيل فى« حى بن يقظان» يريد أن يذكر أسرار الحكم المشرقية للشيخ الرئيس ابن سينا ، ولكن ذكر هذه الأسرار لا يعني تبنيها ولا الدفاع عنها بل العكس(٥) ففى تقديرى أن حى بن يقظان تعبير عن فلسفة ابن طفيل التى فيها بعض من غنوصية ابن سينا والفلسفة الأفلاطونية المحدثة وإن تجاوزتهما تجاوزا عقليا.

تبدأ القصة بعد ذلك بحكاية هذا الطفل «حى» الذى تصف تواجده بأحد فرضين الفرض الأول أنه تولد من تخمر الطين من غير أب أو أم فى جزيرة من جزر الهند ، لملابسات طبيعية أتاحت هذا التولد الذى تعلق به بعد ذلك الروح من أمر الله تعالى.

أما الفرض الثانى فهو أنه مولود من أخت ملك ،ولدته نتيجة زواج سرى لا يرضى عنه أخوها ، ولهذا اضطرت إلى التخلص منه ، بأن وضعته فى تابوت فى اليم الذى حمله إلى هذه الجزيرة ،على أن الفرضين على اختلافهما يعبران عن دلالة واحدة سوف نعرض لها فيما بعد.

الطفل الوليد أو المتولد تتلقاه ظبية وتعتنى به حتى يشتد عوده ، فيأخذ هو بتطوير ملكاته ومعارفه ..فيتعلم أصوات الحيوانات بتقليده لها حتى ألفها وألفته واستطاع طوال السنوات السبع الأولى أن يغطى عريه متخذا ملبسا من أوراق الشجر ثم من جلود الحيوانات وأجنحة الطيور ،كما يتخذ لنفسه عصاة لحماية نفسه ، ويحسن استخدام يديه، وفى نهاية هذه المرحلة السبعية الأولى تموت الظبية ، ويكون موتها فرصة لمحاولة اكتشاف أسباب الموت، بالتالى سر الحياة الذى أخذ يتبينه بعد أن قام بتشريح عدد من الحيوانات . لقد اكتشف أن سر الحياة هو هذه الحرارة التى أحس بها فى ركن من أركان القلب وكان اكتشافه للنار قبل ذلك مدخلا لاكتشاف سر الحياة على أن هذه الحرارة ليست مجرد شئ يلمس فحسب ، بل هى شئ مختلف عن الجسمية ، إنها الروح ،وهكذا توصل إلى أن الجسم ، كل جسم حى له أعضاء كثيرة ،ولكنه واحد بالروح ، وبدأ يتكشف له ما بين الأشياء الحية جميعا من اختلافات فى الصفات والطبائع رغم هذه الروح التى توحدها .هناك إذن روح زائد عن الجسمية ،فالجسم هو مجرد امتداد (كما يقول ديكارت فيما بعد) له أبعاد

ثلاثة طول وعرض وعمق أما الروح فشئ متميز وزائد عن هذا الامتداد ،وهكذا أشرف على تخوم العالم العقلى ، ويدأ يكشف عن قانون السببية بين الأشياء فلكل شئ فاعل أو علة ،ولكل شئ صورة هى استعداده الخاص. ولكن ما مصدر هذه الصور ،وما مصدر وجود الموجودات جميعا؟ ويدأ شوقه إلى معرفة هذا الفاعل الأول، وكان قد بلغ الثمانية والعشرين من عمره أى أربع سنوات سبع .وبدأ يفكر فى الأفلاك من فوقه اكتشف صورتها الكروية . ورآها على أختلافها شيئا واحدا يتصل بعضه ببعض. إنها جميعا تشبه شخصا من أشخاص الحيوان ،وهنا نبت سؤال جديد: هل هذا العالم حادث خرج إلى الوجود من العدم ، أم أنه كان قديما لم يسبقه العدم؟ وتشكك ولم يترجح عنده أحد الحكمين على الآخر، ولكن لابد لهذا العالم من فاعل ليس بجسم . فجميع الموجودات تفتقر فى وجودها إلى هذا الفاعل على أننا نكاد نستشعر بوضوح من بعض نصوصه- رغم تشككه السابق- أنه أقرب إلى القول بقدم العالم يقول العالم كله ، بما فيه من السماوات والأرض والكواكب وما فيها وما فوقها وما تحتها فعله وخلقه ،ومتأخر عنه بالذات وإن كانت غير متأخرة بالزمان (صفحة ٩١) أى أنها مخلوقة أو معلومة له. فهى بهذا متأخرة عنه من حيث الرتبة ولكنها فى الوقت نفسه غير متأخرة عنه من حيث الزمان ، أى أنها قديمة مثله ، ولعلنا نجد هنا نفس الصيغة الاشكالية التى سنجدها بعد ذلك فى فلسفة ابن رشد فى وصفه للعالم بأنه حادث ،وقديم ، أى أنه قديم قدم الله ،ولكنه حادث فى الوقت نفسه ،وعندما نصل مع حى بن يقظان إلى هذه الحقيقة يكون قد مرت عليه خمس وثلاثون سنة ،وهنا يتساءل أى: قوة داخلة استطاع بها أن يعرف هذا الفاعل القديم؟ ليس باللمس أو بالبصر أو بالشم أو بالذوق قد عرفه ، هناك قوة غير جسمية إذن قوة لافساد لها أبدا ، أى قوة خالدة ذات طبيعة ربانية فى داخله هى التى أتاحت له هذه المعرفة إنها القوة العقلية ، وهنا نكاد نتبين كذلك الإرهاص بنظرية ابن رشد فى خلود القوة العاقلة فى النفس مع فناء الأجساد ،والنفوس الفردية ، بل نجد كذلك ما سوف نجده بعد ذلك عند ابن رشد من أن العذاب والثواب فى حالة المعاد أمران معنويان ،وهنا أراد جى بن يقظان أن يزداد معرفة واقترابا من هذا الفاعل واجب الوجود كله. كيف؟ هل يتحقق له ذلك بالتشبه بالحيوان غير الناطق ، أم بالتشبه بالأجسام السماوية ، أم بالتشبه به هو نفسه أى بالموجود الواجب للوجود؟ وينتهى إلى ضرورة هذه الأحوال الثلاثة حقا، إن التشبه الأول عائب بذاته -كما يقول- ولكنه ضرورى ، لأنه لابد من الغذاء لإبقاء الروح الحيوانى ، على أن يأخذ من الطعام كفايته ولا يزيد ، وهنا يدخل فى التمييز بين أنواع الأغذية المختلفة تحقيقا لهذه الغاية . أما التشبه الثانى بالأجسام السماوية فهو ضرورى كذلك ، إنه يستلزم التطهر الدائم ،والعمل على مساعدة كل ذى حاجة أو عاهة أو تواجهه عقبة سواء كان حيوانا أو نباتا ، هذا إلى جانب الطواف باستدارة فى الجزيرة تشبها بحركة هذه الأجسام السماوية . أما التشبه الثالث فهو أن يأخذ بقطع علاقته بالمحسوسات

، وألا يفكر فى شئ سواه، وأن يغيب عن كل الذوات إلا ذاته ، وأن يفنى عن نفسه ، وأن يخلص فى مشاهدة الحق، ما يزال يحاول ذلك حتى تأتى له . وشاهد ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولاخطر على قلب بشر، كان يغيب ثم يعود إلى عالم المحسوسات ثم يأخذ به الشوق مرة أخرى إلى المقام العالى وهكذا . وأصبح من اليسر عليه أن يذهب ويعود كلما أراد . وكان فى هذه الحال قد أناف على سبع مرات من السنوات السبع، من منشأه ، أى بلغ ما يقرب الخمسين عاما، وهنا يلتقى بأبسال الذى انتقل إلى هذه الجزيرة من جزيرة قريبة منها لها ملة من الملل الصحيحة المأخوذة من بعض الأنبياء المتقدمين ، وكان أبسال مع أخيه سلامان على رأس هذه الجزيرة .وكان بينهما خلاف ،فأبسال أشد غوصا على الباطن وأكثر عثورا على المعانى الروحية وأطمع فى التأويل ، أما سلامان فكان أشد احتفاظاً بالظاهرة وأشد بعدا عن التأويل،ولهذا افترق عنه أبسال وجاء إلى هذه الجزيرة يتعبد على طريقته ويلتقى بحى بن يقظان ذات مرة خرج فيها حى من مغارته . ثم أخذ يعلمه الكلام، ولما تم له ذلك اكتشف أن ما توصل إليه حى بن يقظان هو نفسه الذى تقول به ملته التى أتى بها نبى من الأنبياء ،وهكذا تطابق عند حى بن يقظان المعقول والمنقول وقربت عليه طرق التأويل ، ورأى فيه أبسال وليا من أولياء الله. ولعل هذا هو ما دعا أغلب مؤرخى الفلسفة إلى القول بأن قصة حى بن يقظان تذهب إلى التوفيق بين الدين والفلسفة وسنعرض لهذا فيما بعد.

ثم يحكى أبسال لحى بن يقظان حكاية الجزيرة الأخرى التى جاء منها ، وكيف أن أهلها يأخذون الدين بظاهره وبرموزه وأمثاله دون تأويل لها. فضلا عن الطقوس وأشكال العبادات المختلفة مثل العبادات والصلاة والزكاة والحدود، وقطع يد السارق واقتناء الأموال والمتاجرة عامة ، ويعجب حى بن يقظان من كل هذا وينتقده ، ويرى ضرورة أن يذهب إلى هذه الجزيرة لإقناع الناس وبث أسرار الحكم لهم ، ويذهبان إلى الجزيرة حيث يلتقيان بسلامان ويأخذ حى بن يقظان فى الحديث مع أهل الجزيرة معبرا عن رأيه، وينقبض الناس عنه بل يستهزئون به، وبأقواله ، ذلك أنهم فرحون ، راضون بما لديهم ويشعر حى بن يقظان أنهم قد اتخذوا لهم هواهم ، وأصبح معبودهم شهواتهم ، وقد غمرتهم الجهالة كما غمرهم الجشع ، وحب المتاجرة والمنافسة والربح ، وهكذا تبين حى بن يقظان أنه لا سبيل للحكمة إليهم ، فلقد رأى سرادق العذاب قد أحاط بهم وظلمات الحجب قد غشيتهم ، فهم يتخذون من الدين وسيلة ليستقيم بها معاشهم ، ولهذا رأى أن ظاهر الدين بأمثاله ورموزه أليق بهم وأفيد لهم ،ومن الصالح أن يظلوا فى حدود هذا الفهم الظاهرى للدين بغير تأويل ،وعاد حى بن يقظان وأبسال إلى جزيرتهما ليواصلا عبادتهما كل على طريقته حتى أتاهما اليقين.

هذه هى المحاور الأساسية –فى تقديرى– لقصة حى بن يقظان ،وتبقى بعض الملاحظات العامة عليها:

١- إن الأيديولوجية التى كانت سائدة بشكل عام فى المرحلة التاريخية المسماة بالوسيطة ، هى الأيديولوجية الدينية، وكانت هى الإطار العام لكل الأفكار والفلسفات فى هذه المرحلة ،ولهذا فإن الجانب الدينى فى هذه الأفكار والفلسفات ليس هو المعيار الأساسى لتقييمها وإنما المعيار هو الموقف من هذا الجانب الدينى ، بمعنى الاختلاف فى نقطة البداية المعرفية : هل الانطلاق من الوحى الدينى تفسيراً للموجودات ، أم الانطلاق من العقل الإنسانى تفسيرا للموجودات ، بل وللدين كذلك؟ ولهذا فليس من الموضوعية اتخاذ بعض الدارسين التوجه الدينى الإيمانى عند فلاسفة هذا العصر ومن بينهم ابن طفيل أساسا للحكم عليهم بالاتجاه المثالى غير العقلانى أو غير المادى عامة.

٢- إن الفرضين اللذين قال بهما ابن طفيل لتفسير نشأة حى بن يقظان ، لا يختلفان كثيرا من الناحية الفلسفية التى تسعى القصة إلى تأكيدها ، فسواء كانت النشأة متولدة من تخمير قطعة من الطين ، أو ثمرة ولادة من أم وأب .فإن الدلالة واحدة وهى التى حاول ابن طفيل أن يؤكدها بقصته ، فلقد استطاع حى بن يقظان المتولد من الطين أو المولود من أبوين أن يبلغ مرتبة عالية من المعرفة بدون موروثات فطرية ، أو مكتسبات من تعليم أو من وحى ، وإنما تحققت هذه المرتبة المعرفية بجهده الذاتى الحسى والتجريبى والعملى والاستدلالى العقلى ، المعارف إذن ليست فطرية يتذكرها الإنسان ويستخلصها بشكل تلقائى كما فعل هذا العبد الجاهل فى إحدى محاورات افلاطون الذى استطاع سقراط أن يستخلص منه كل قوانين الهندسة والرياضة!.

-هذا هو المعنى الجوهرى فى تقديرى للقول بالتولد من الطين أو بعزلة الطفل المولود عن أبويه بعد ولادته مباشرة ،ولا يشير التولد من الطين إلى أى دلالة مادية خالصة كما يقول بعض المفسرين ، وإن كان من الممكن ذلك، بشكل عابر ، لأن الله قد أسبغ على هذا الجسد المتولد ، روحا من عنده فور تولده كما تقول القصة ، وفضلا عن هذا فإن النشأة من الطين التى تشكل بها الجسد لا تعنى -كما يقول تفسير من التفاسير -الحط من شأن الجسد الإنسانى واحتقاره بدليل محاولة حى فى النهاية التخلى عن جسده فى رحلته الباطنية للاتصال والمشاهدة ،فالمقصود من طبيعة النشأة بفرضيها معا هو كما ذكرنا التمهيد لتقديم نظرية موضوعية فى المعرفة الإنسانية.

٣- يكاد جوهر القصة أن يكون- كما ذكرنا فى النقطة السابقة-هو تقديم نسق كامل لنظرية فى المعرفة ، ويتم تقديم هذا النسق لا بالتنظير المجرد وإنما بالتمثيل والتشخيص العملى ،وخلاصة النظرية أن المعرفة لا تستمد من معارف فطرية ، وإنما تتحقق عبر مراحل ومستويات تبدأ بالخبرة الحسية ، لترتفع إلى التجربة والممارسة العملية ، ثم إلى الاستدلال العقلى النظرى ثم إلى المعاناة الوجدانية المؤسسة على الذوق والحدس ، وصولا إلى حال من الاتصال والمشاهدة بالمقام الإلهى ، دون أن تعنى هذه الخطوة الأخيرة التخلى عن مراتب الوصول السابقة وإلغاء الحس والعقل كما

تذهب بعض الدراسات.

وفضلا عن هذا كله ، فإن هذا المسار المعرفى الذى اجتازه حى بن يقظان قد نجح فى تحقيقه بجهده الذاتى ، بغير معارف فطرية أو موروثات ذاتية أو مكتسبات اجتماعية ، أو وحى دينى أو إرشاد نبوى ولا يعنى هذا رفضا للشرط الاجتماعى للمعرفة ، وإنما الهدف الأساسى هو رفض النظرية المثالية اللدنية القبلية للمعرفة.

٤ -إن الفكر -بحسب هذه النظرية المعرفية -يمكن أن يتحقق بدون اللغة ، فضلا عن أن اللغة إنما يتم تعلمها بالمثال والنموذج من العينى المحسوس إلى النظرى بشكل متدرج.

٥- إن حى بن يقظان لا تقول بالتوفيق بين الدين والفلسفة ، أو بين النقل والعقل كما يقول أغلب المفسرين ، بل تقول بعكس ذلك تماما، أى بالانفصال بينهما ، حقا أنها تقول بوحدة الحقيقة النهائية عند كليهما ، ولكن لكل منهما منهجه الخالص به ، فمنهج الإيمان الخالص ، غير منهج العقل الاستدلالى .لقد توصل حى بن يقظان إلى الحق فى غير حاجة إلى رسالة من نبى أو تعليم وإرشاد من فقيه ، توصل إلى الحق بالاعمال العقلى تدرجا من الإدراك الحسى إلى التصور النظرى فالمشاهدة الذوقية الوجدانية على حين أن سلامان وأهل جزيرته ممن صدق إيمانهم ، إنما يدركون الحق بإيمانهم الخاص ، وممارستهم للشعائر، ورفضهم التأويل اكتفاء بالوحى وظاهر الشرع هناك إذن منهجان لا اتصال بينهما ، وصولا إلى الحق! ولعل ابن طفيل حرص أن يجسد هذا فى جزيرتين ، فكل جزيرة هى تجسيد لمنهج فى طريق الحق أما بقاء أبسال معه فى جزيرته فهو لقاء بين عالم الدين الذى يقبل التأويل وهو أبسال والفيلسوف العقلى هو «حى» الذى يلتقى مع أبسال فى التأويل ولكنه يتجاوزه فى الرؤية الفلسفية الشاملة .ولعلنا نجد فى هذا التمييز بين الجزيرتين ، بين التسليم بظاهر الوحى وتأويله إرهاصا لكتاب ابن رشد «فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال». على أن هذا التمييز لا يعنى عند ابن طفيل أو عند ابن رشد من بعده تمييزا طبقيا اجتماعيا كما يقول بعض الدارسين بقدر ما هو تمييز بين منهجين للمعرفة ومستويين للإدراك.

٦-أكتفى هنا بالإشارة إلى بعض القضايا الفلسفية التى ذكرناها فى معرض تلخيصنا للقصة ، والتى سوف تصبح من الأعمدة الأساسية فى بناء ابن رشد الفلسفى وهى القول بقدم العالم وحدوثه فى الوقت نفسه ، والقول بخلود القوة العاقلة ، وبأن الجزاء والعقاب فى الآخرة، يقتصران على الجانب المعنوى .والقول بالسببية الموضوعية التى تربط أجزاء الموجودات على اختلافها .والتى تعد دليلا على القول بالعلة الأولى أى الله، ثم أخيرا القول بوحدة الوجود بالمعنى الصوفى وإنما بمعنى الترابط العضوى بين كل عناصر الطبيعة .وما فوق الطبيعة.

٧- أكتفى أخيرا بالإشارة إلى موقف إنسانى عميق الدلالة الأخلاقية ، لعلى قد أشرت إليه

إشارة عابرة عند الحديث عن محاولة «حى» التشبه بحركة الأشياء السماوية ، فهو يلزم نفسه ألا يرى ذا حاجة أو عاهة أو مضرة أو ذا عائق من الحيوان والنبات وهو يقدر على إزالتها إلا ويزيلها «وهو يوضح هذا قائلا أو راويا على لسان ابن طفيل «فمتى وقع بصره على نبات قد حجبه عن الشمس حاجب أو تعلق به نبات آخر يؤذيه أو عطش عطشا يكاد يفسده أزال عنه ذلك الحاجب إن كان ما يزال وفصل بينه وبين ذلك المؤذى بفاصل لا يضر المؤذى «وتعهده بالسقى ما أمكنه «ومتى وقع بصره على حيوان قد أرهقه ضبع أو نشب به ناشب أو تعلق به شوك أو سقط فى عينيه أو أذنيه شئ يؤذيه أو مسه ظمأ أو جوع تكفل بإزالة ذلك كله عن جهده وأطعمه وأسقاه «ومتى وقع بصره على ماء يسيل إلى سقى نبات أو حيوان وقد عاق ممره ذلك عائق من حجر سقط فيه أو جرف أنهار عليه أزال ذلك كله وعنه وما زال يمعن فى هذا النوع من ضروب التشبه حتى بلغ فيه الغاية».

وإلى جانب هذا المسلك الأخلاقى الرفيع أشير إلى ما سبق ذكره من رفضه للمال والمتاجرة والشرور عامة ، ونقده للطقوس الدينية الشكلية «وليس فى هذا الموقف ، أو فى فلسفة ابن طفيل عامة أى استعلاء فردى نخبوى كما تقول بعض الدراسات ، وإنما تفيض هذه الفلسفة روحا إنسانية بالغة الرهافة فضلا عن استنارتها العقلية ونبالتها الأخلاقية.

هذه بعض الملاحظات المستخلصة من هذا النص الفلسفى العميق للدلالة-، الذى لا يعد -كما يقال كذلك- نفيا للعقل أو للعلم التجريبى ، أو تغييبا للذات الإنسانية ، وإنما هو رؤية متسقة عقلانية ، تمثل اقتدار الإنسان على الوصول إلى الحقيقة والفضيلة بمجاهداته الذاتية دون أن ينفى الآخر وإن اختلف معه ، على أنه برغم هذا الطابع العقلانى الذى يتسم به هذا النص الفلسفى ، فإنه لا يخلو من تاثيرات غنوصية إشراقية صوفية ، ويبدو أنه كان على ابن رشد أن يقوم بالدور الفلسفى التاريخى لتطوير الطباع العقلانى وتعميقه فى تراثنا الفلسفى ، وأن يسعى إلى تخليصه أو تمييزه- على الأقل- من هذه التاثيرات الغنوصية ، فكانت شروحه وتلاخيصه لكتب أرسطو -الذى كان لابن طفيل فضل تشجيعه عليها- وكانت إضافاته إلى هذه الشروح والتلاخيص «فضلا عن كتاباته الفلسفية الأخرى ، فكان ابن رشد بهذا امتدادا عقلانيا متطورا لفلسفة أرسطو وابن طفيل وللفلسفة العربية الإسلامية عامة فى عصره.

الهوامش

(١) ولد أبو بكر بن طفيل فى السنوات العشر الأول من القرن الثانى عشر الميلادى أى بين ٤٩٥ إلى ٥٠٥هجرية على حد ترجيح د. عبد الرحمن بدوى ، وتوفى عام ٥٨١هـ-١١٨٥م.

(٢) نقرأ قصة «حى بن يقظان» لابن طفيل فى« حى بن يقظان» لابن سينا وابن طفيل والسهروردى «تحقيق وتعليق أحمد أمين» الطبعة الثالثة دار المعارف عام ١٩٦٦ ص١٠٧.

(٣) نلاحظ فى الطبعة الثالثة لحى بن يقظان التى أشرنا إليها من قبل خطأ يبدو مطبعيا فى تحديد العلاقة بين ابن طفيل وابن رشد نقرأ «وكان ابن رشد أكبر منه سنا» وقد حل ابن طفيل طبيبا للسلطان لما طعن ابن رشد فى السن »(ص٧ ونقرأ «ويذهب بعض المؤرخين أنه كان تلميذا لابن رشد ولكنه هو نفسه لا يذكر ذلك ص١٠ وإن جاء فى نفس الصفحة «ثم تخلى ابن طفيل عن عمله كطبيب للمنصور وتركه لابن رشد».

(٤) هناك دراسة مقارنة لحى بن يقظان وروبنسون كروز للأستاذ حسن محمود عباس ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ١٩٨٣.

(٥) محمد عابد الجابرى :نحن والتراث ص٢٩٢ دار الطليعة -بيروت والمركز الثقافى العربى- الدار البيضاء طبعة أولى ١٩٨٠.



مختارات من قصة حي بن يقظان لابن طفيل
كيف تكون حي بن يقظان؟.

ذكر سلفنا الصالح- رضى الله عنهم- إن جزيرة من جزائر الهند التى تحت خط الاستواء ،وهى الجزيرة التى يتولد بها الإنسان من غير

من غير أم ولا أب (وبها شجر يثمر نساء ،وهى التى ذكر المسعودى (١) إنها فى جوارى الواقواق (٢) لأن تلك الجزيرة أعدل بقاع الأرض هواء ، وأتمها لشروق النور الأعلى عليها استعدادا ، وإن كان ذلك على خلاف ما يراه جمهور الفلاسفة وكبار الأطباء ،فإنهم يرون أن أعدل ما فى المعمورة الإقليم الرابع ، فإن كانوا قالوا ذلك لأنه صح عندهم أنه ليس على خط الاستواء عمارة لمانع من الموانع الأرضية ، فلقولهم : إن الأقليم الرابع أعدل بقاع الأرض(الباقية) ،وجه ، وإن كانوا إنما أرادوا بذلك إن ما على خط الاستواء شديد الحرارة ،كالذى يصرح به أكثرهم فهو خطأ يقوم البرهان على خلافة(٣) ، وذلك أنه قد تبرهن فى العلوم الطبيعية أنه لا سبب لتكون الحرارة إلا الحركة ، أو ملاقاة الأجسام (الحارة) والإضاءة ، وتبين فيها أيضا أن الشمس بذاتها غير حارة ولا متكيفة بشئ من هذه الأمور المزاجية(وقد) تبين فيها أيضا أن الأجسام التى تقبل الإضاءة أتم القبول ،هى الأجسام الصقيلة غير الشفافية ، ويليها فى قبول ذلك الأجسام الكثيفة غير الصقيلة ، فأما الأجسام الشفافة التى لا شئ فيها من الكثافة فلا تقبل الضوء بوجه ،وهذا وحده مما برهنه الشيخ أبو على(وحده) خاصة ،ولم يذكره من تقدمه(٤) فإذا تم وصحت هذه المقدمات ،فاللازم عنها أن الشمس لا تسخن الأرض كما تسخن الأجسام الحارة أجساما أخرى تماسها، لأن الشمس فى ذاتها غير حارة(٥) ، ولا الأرض أيضا تسخن بالحركة لأنها ساكنة ،وعلى حالة واحدة فى شروق الشمس عليها وفى وقت مغيبها (عنها) وأحوالها فى التسخين والتبريد ، ظاهرة الاختلاف للحس فى هذين الوقتين ، ولا الشمس أيضا تسخن الهواء ، أولا ثم تسخن بعد ذلك الأرض بتوسط سخونة الهواء،وكيف يكون ذلك ونحن نجد (أن) ما قرب من الهواء من الأرض فى وقت الحر، أسخن كثيرا من الهواء الذى يبعد منه علوا؟ فبقى أن تسخين الشمس للأرض إنما هو على سبيل الإضاءة لا غير فإن الحرارة تتبع الضوء أبدا ، حتى إن الضوء إذا أفرط فى المرآة المقعرة أشعل ما حاذاها. وقد ثبت فى علوم التعاليم بالبراهين القطعية ، أن الشمس كروية الشكل ، وإن الأرض كذلك(٦) ، وأن الشمس أعظم من الأرض كثيرا وأن الذى يستضيئ من الأرض بالشمس أبدا هو أعظم من نصفها ، وإن هذا (النصف) المضئ من الأرض فى كل وقت أشد ما يكون الضوء فى وسطه لأنه أبعد المواضع من الظلمة (عند محيط الدائرة)

ولأنه يقابل من الشمس أجزاء أكثر ،وما قرب من المحيط كان أقل ضوءا حتى ينتهى إلى الظلمة عند محيط الدائرة الذى ما أضاء (موقعه) من الأرض (قط) ، وإنما يكون الموضع وسط دائرة الضياء إذا كانت الشمس على سمت رؤوس الساكنين فيه وحينئذ تكون الحرارة فى ذلك الموضع أشد ما يكون فإن كان الموضع مما تبعد الشمس(فيه) عن مسامته رؤوس أهله كان شديد البرودة جدا ، وإن كان مما تدوم فيه المسامته كان شديد الحرارة ، وقد ثبت فى علم الهيئة أن بقاع الأرض التى على خط الاستواء لا تسامت الشمس رؤوس أهلها سوى مرتين فى العام عند حلولها برأس الحمل ،وعند حلولها برأس الميزان ، وهى فى سائر العام ستة أشهر جنوبا منهم ، وستة أشهر شمالا منهم ، فليس عندهم حر مفرط ، ولا برد مفرط، وأحوالهم بسبب ذلك متشابهة.

وأما الذين زعموا أنه تولد(من الأرض) فإنهم قالوا أن بطنا من أرض تلك الجزيرة ، تخمرت فيه طينة على مر السنين (والأعوام) ، حتى امتزج فيها الحار بالبارد ،والرطب باليابس ، امتزاج تكافؤ وتعادل فى القوى.

وكانت هذه الطينة المتخمرة كبيرة جدا ،وكان بعضها يفضل بعضا فى اعتدال المزاج والتهيؤ لتكون الأمشاج ،وكان الوسط منها أعدل ما فيها واتمه مشابهة بمزاج الإنسان ، فتمخضت تلك الطينة ، وحدث فيها شبه نفاخات الغليان لشدة لزوجتها ، وحدث فى الوسط منها (لزوجة) ونفاخة صغيرة جدا ، منقسمة بقسمين، بينهما حجاب رقيق ممتلئة بجسم لطيف هوائى فى غاية من الاعتدال اللائق به ، فتعلق عند ذلك «الروح» الذى هو من أمر الله تعالى وتشبث به تشبثا يعسر إنفصاله عنه عند الحس وعند العقل ، إذ قد تبين أن هذا الروح دائم الفيضان على العالم ، فمن الأجسام مالا يستضاء به وهو الهواء الشفاف جدا ،منها ما يستضاء به بعض استضاءة ،وهى الأجسام الكثيفة غير الصقيلة ،وهذه تختلف فى قبول الضياء ،وتختلف بحسب ذلك ألوانها ،ومنها ما يستضاء به بعض استضاءة ،وهى الأجسام الكثيفة غير الصقيلة ،وهذه تختلف فى قبول الضياء ، وتختلف بحسب ذلك ألوانها ،ومنها ما يستضاء به غاية الاستضاءة ،وهى الاجسام الصقيلة كالمرآة ونحوها ، فإذا كانت هذه المرآة مقعرة على شكل مخصوص ، حدث فيها النار لإفراط الضياء،وكذلك الروح الذى هو من أمر الله (تعالى) فياض أبدا على جميع الموجودات ، فمنها ما لا يظهر أثره فيه لعدم الاستعداد ،وهى الجمادات التى لا حياة لها ،وهذه بمنزلة الهواء فى المثال المتقدم ،ومنها ما يظهر أثره فيه وهى أنواع النبات بحسب استعداداتها ،وهذه بمنزلة الأجسام الكثيفة فى المثال المتقدم ،ومنها ما يظهر أثره فيه ظهورا كثيرا ،وهى أنواع الحيوان ،،وهذه بمنزلة الأجسام الصقيلة فى المثال المتقدم.

ومن هذه الأجسام الصقيلة ما يزيد على شدة قبوله لضياء الشمس أنه يحكى صورة الشمس ،ومثالها ،وكذلك أيضا من الحيوان ما يزيد على شدة قبوله للروح أنه يحكى الروح ويتصور بصورته

،وهو الإنسان خاصة ، وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم :«إن الله خلق آدم على صورته»(٧) فإن قويت فيه هذه الصورة حتى تتلاشى جميع الصور فى حقها ،وتبقى هى وحدها وتحرق سبحات نورها كل ما أدركته ، كانت حينئذ بمنزلة المرآة المنعكسة على نفسها ، المحرقة لسواها ، وهذا لا يكون إلا للأنبياء صلوات الله عليهم(أجمعين) وهذا كله مبين فى مواضعه اللائقة به، فليرجع إلى تمام ما حكوه من وصف ذلك التخلق.

قالوا : فلما تعلق هذا الروح بتلك القرارة، خضعت له جميع القوى وسجدت (له سخرت) بأمر الله (تعالى)فى كمالها ، فتكون بإزاء تلك القرارة نفاخة أخرى منقسمة إلى ثلاث قرارات ، بينها حجب لطيفة ومسالك نافذة ، وامتلأت بمثل ذلك الهوائى الذى امتلأت منه القرارة الأولى ، إلا أنه ألطف منه.

وسكن فى هذه البطون الثلاثة المنقسمة من واحد ، طائفة من تلك القوى التى خضعت له، وتوكلت بحراستها والقيام عليها ، وإنهاء ما يطرأ فيها من دقيق الأشياء وجليلها إلى الروح الأول المتعلق بالقرارة الأولى.

وتكون أيضا بإزاء هذه القرارة من الجهة المقابلة للقرارة الثانية ، نفاخة ثالثة مملوءة جسما هوائيا ، إلا أنه أغلظ من الأولين وسكن هذه القرارة فريق من تلك القوى الخاضعة ،وتوكلت بحفظها والقيام عليها، فكانت هذه القرارة الأولى والثانية والثالثة أول ما تخلق من تلك الطينة المتخمرة (الكبرى) على الترتيب الذى ذكرناه.

كيف تربى حى ين يقظان؟

إن الظبية التى تكفلت به وافقت خصبا ومرعى أثيثا ، فكثر لحمها ودر لبنها ،حتى قامت بغذاء ذلك الطفل أحسن قيام ،وكانت معه لا تبعد عنه إلا لضرورة الرعى ، وألف الطفل تلك الظبية حتى كان بحيث إذا هى أبطأت عنه أشتد بكاؤه فطارت إليه(٨).

ولم يكن بتلك الجزيرة شئ من السباع العادية ، فتربى الطفل ونما واغتذى بلبن تلك الظبية إلى أن تم له حولان ، وتدرج فى المشى وأثغر(٩) فكان يتبع تلك الظبية ،وكانت هى ترفق به وترحمه وتحمله إلى مواضع فيها شجر مثمر فكانت تطعمه ما تساقط من ثمراتها الحلوة النضيجة وما كان منها صلب القشر كسرته له بطواحنها ،ومتى عاد إلى اللبن أروته ،ومتى ظمئ إلى الماء أوردته ومتى صحا(١٠) ظللته ومتى حضر (١١) أدفأته، وإذا جن الليل صرفته إلى مكانه الأول، وجللته بنفسها وبريش كان هناك ، مما ملئ به التابوت(١٢) أولا فى وقت وضع الطفل فيه ،وكان فى غدوهما ورواحهما قد ألفهما ربرب يسرح(وينعش)ويبيت معهما حيث مبيتهما.

فما زال الطفل مع الظباء على تلك الحال : يحكى(١٣) نغمتها بصوته حتى لا يكاد يفرق بينهما ،وكذلك كان يحكى جميع ما يسمعه من أصوات الطير وأنوع سائر الحيوان ، محاكاة شديدة(لقوة

انفعاله لما يريده) وأكثر ما كانت محاكاته لأصوات الظباء فى الاستصراخ والاستئلاف والاستدعاء والاستدفاع إذ للحيوانات فى هذه الأحوال المختلفة أصوات مختلفة ، فألفته الوحوش وألفها ،ولم تنكره ولا أنكرها فلما ثبت فى نفسه أمثلة الأشياء بعد مغيبها عن مشاهدته ،حدث له نزوع إلى بعضها ،وكراهية لبعض.

وكان فى ذلك كله ينظر إلى جميع الحيوانات فيراها كاسية بالأوبار والأشعار و(أنواع) الريش ،وكان يرى مالها من العدو وقوة البطش، ومالها من الأسلحة المعدة لمدافعة من ينازعها ، مثل القرون والأنياب والحوافر والصياصى (١٤) والمخالب ثم يرجع إلى نفسه ، فيرى ما به من العرى وعدم السلاح ،وضعف العدو، وقلة البطش ،عندما كانت تنازعه الوحوش أكل الثمرات ، وتستبد بها دونه ،وتغلبه عليها ، فلا يستطيع المدافعة عن نفسه ، ولا الفرار عن شئ منها.

وكان يرى أترابه من أولاد الظباء ، قد نبتت لها قرون ، بعد أن لم تكن وصارت قوية بعد ضعفها فى العدو ، ولم ير لنفسه شيئا من ذلك كله . فكان يفكر فى ذلك ولا يدرى (ما) سببه ،وكان ينظر إلى ذوى العاهات والخلق الناقص ، فلا يجد لنفسه شبيها فيهم ،وكان أيضا ينظر إلى مخارج الفضول من سائر الحيوان، فيراها مستورة ، أما مخرج أغلظ الفضلتين فبالأذناب ، وأما (مخرج) أرقهما فبالا وبار وما أشبهها ولأنها كانت(أيضا) أخفى قضبانا منه.

فكان ذلك يكربه ويسوؤه .فلما طال همه فى ذلك كله ،وهو قد قارب سبعة أعوام ، ويئس من أن يكمل له(ذلك) وما قد أضر به نقصه . اتخذ من أوراق الشجر العريضة شيئا جعل بعضه خلفه وبعضه قدامه، وعمل من الخوص والحلفاء(١٥) (شبه) حزام على وسطه ، علق به تلك الأوراق فلم يلبث إلا يسيرا حتى ذوى ذلك الورق وجف وتساقط (عنه) فما زال يتخذ غيره ويخصف بعضه ببعض طاقات مضاعفة ، وربما كان ذلك أطول لبقائه ، إلا أنه على كل حال ، قصير المدة ، واتخذ من أغصان الشجر عصيا سوى أطرافها وعدل متنها ،وكان يهش بها على الوحوش المنازعة له ، فيحمل على الضعيف منها، ويقاوم القوى منها ، فنبل بذلك قدره عند نفسه بعض نبالة، رأى أن ليده فضلا كثيرا على أيديها :إذ أمكن له بها من ستر عورته وإتخاذ العصى التى يدافع بها عن حوزته، وما استغنى به عما أراده من الذنب والسلاح الطبيعى.

معرفته عالم الكون والفساد

ثم إنه بعد ذلك أخذ فى مأخذ آخر فتصفح جميع الأجسام التى فى عالم الكون والفساد(١٦): من الحيوانات على اختلاف أنواعها ،والنبات والمعادن وأصناف الحجارة والتراب والماء والبخار والثلج والبرد، والدخان (والجليد) واللهيب والحر ، فرأى لها أوصافا كثيرة وأفعالا مختلفة ،وحركات متفقة ومتضادة، وأمعن النظر فى ذلك ،والتشبث فرأى أنها تتفق ببعض الصفات وتختلف ببعض ، وأنها من الجهة التى تتفق بها واحدة ،ومن الجهة التى تختلف فيها متغايرة ومتكثرة . فكان تارة ينظر خصائص الأشياء وما يتفرد به بعضها عن بعض ، فتكثر عنده كثرة تخرج عن الحصر ،

وينتشر له الوجود انتشارا لا يضبط ،وكانت تتكثر عنده أيضا ذاته ، لأنه كان ينظر إلى اختلاف أعضائه وأن كل واحد منها منفرد بفعل وصفة تخصه ،وكان ينظر إلى كل عضو (منها) فيرى أنه يحتمل القسمة إلى أجزاء كثيرة جدا ، فيحكم على ذاته بالكثرة ،وكذلك على ذات كل شئ . ثم كان يرجع إلى نظر آخر من طريق ثان ، فيرى أن أعضاءه ، وأن كانت كثيرة ، فهى متصلة كلها بعضها ببعض، لا انفصال بينها بوجه ، فهى فى حكم الواحد ، وأنها لا تختلف إلا بحسب اختلاف افعالها، وأن ذلك الاختلاف إنما هو بسبب ما يصل إليها من قوة الروح الحيوانى ، الذى إنتهى إليه نظره أولا، وأن ذلك الروح واحد فى ذاته ،وهو (أيضا) حقيقة الذات ، وسائر الأعضاء كلها كالآلات ، فكانت تتحد عنده ذاته بهذا الطريق.

ثم كان ينتقل إلى جميع أنواع الحيوان، فيرى كل شخص منها واحدا بهذا النوع من النظر ، ثم كان ينظر إلى نوع منها: كالظباء والخيل، والحمر ، وأصناف الطير صنفا صنفا ، فكان يرى أشخاص كل نوع يشبه بعضه بعضا فى الأعضاء الظاهرة والباطنة ، والإدراكات ،والحركات ،والمنازع ، ولا يرى بينها اختلافا إلا فى أشياء يسيرة بالإضافة إلى ما اتفقت فيه .وكان يحكم بأن الروح الذى لجميع ذلك النوع شئ واحد ، وأنه لم يختلف إلا أنه انقسم على قلوب كثيرة ، وإنه لو أمكن أن يجمع جميع الذى إفترق فى تلك القلوب منه ويجعل فى وعاء واحد ، لكان كله شيئا واحدا ، بمنزلة ماء واحد ، أو شراب واحد ، يفرق على أوان كثيرة ، ثم يجمع بعد ذلك ، فهو فى حالتى تفريقه وجمعه شئ واحد ، وإنما عرض له التكثر بوجه ما ، فكان يرى النوع كله بهذا النظر واحدا ، ويجعل كثرة أشخاصه بمنزلة كثرة أعضاء الشخص الواحد التى لم تكن كثيرة فى الحقيقة.

ثم كان يحضر أنواع الحيوان كلها فى نفسه ويتأملها فيراها تتفق فى أنها تحس وتتغذى ،وتتحرك بالارادة إلى أى جهة شاءت ،وكان قد علم أن هذه الأفعال هى أرخص أفعال الروح الحيوانى .فظهر له بهذا التأمل ، أن الروح الحيوانى الذى لجميع جنس الحيوان واحد بالحقيقة . وإن كان فيه اختلاف يسير ، اختص به نوع دون نوع ، بمنزلة ماء واحد مقسوم على أوان كثيرة بعضه أبرد من بعض ،وهو فى أصله واحد. وكل ما كان فى طبقة واحدة من البرودة، فهو بمنزلة اختصاص ذلك الروح الحيوانى بنوع واحد ، وبعد ذلك ، فكما أن ذلك الماء كله ،فكذلك الروح الحيوانى واحد ، وإن عرض له التكثر بوجه ما. فكان يرى جنس الحيوان كله واحدا بهذا النوع من النظر . ثم كان يرجع إلى أنواع النبات على اختلافها ، فيرى كل نوع منها تشبه أشخاصه بعضها بعضا فى الأغصان ،والورق ، والزهر ،والثمر ،والأفعال ، فكان يقيسها بالحيوان ، ويعلم أن لها شيئا واحدا اشتركت فيه ،هو لها بمنزلة الروح للحيوان ،.وأنها بذلك الشئ واحد. وكذلك كان ينظر إلى جنس النبات كله ، فيحكم باتحاده بحسب ما يراه من إتفاق فعله فى أنه يتغذى وينمو.

ثم كان يجمع فى نفسه جنس الحيوان وجنس النبات ، فيراهما جميعا متفقين فى الاغتذاء والنمو ،.إلا أن الحيوان يزيد على النبات بفضل الحس والإدراك (والتحرك) ،وربما ظهر فى النبات

شئ شبيه به، مثل تحول وجوه الزهر إلى جهة الشمس، وتحرك عروقه إلى جهة الغذاء ، وأشباه ذلك ، فظهر له بهذا التأمل أن النبات والحيوان شئ واحد، بسبب شئ واحد مشترك بينهما ، هو فى إحداهما أتم وأكمل ،وفى الآخر قد عاقه عائق(ما) ، وأن ذلك بمنزلة ماء واحد قسم بقسمين أحدهما جامد ،والآخر سيال ، فيتحد عنده النبات والحيوان.

ثم ينظر إلى الأجسام التى لا تحس ولا تغتذى ، ولا تنمو من الحجارة والتراب ،والماء ،والهواء ،واللهب ، فيرى أنها أجسام مقدر لها طول وعرض وعمق ، وأنها لا تختلف ، إلا أن بعضها ذو لون ، وبعضها لالون له، وبعضها حار ،وبعضها بارد، ونحو ذلك من الاختلافات. وكان يرى أن الحار منها يصير باردا ،والبارد (يصير) حارا ،وكان يرى الماء يصير بخارا والبخار(يصير) ماء والأشياء المحترقة تصير جمرا؛ ورمادا ،ولهيبا ، ودخانا ،والدخان إذا وافق فى صعوده قبة حجر انعقد فيه وصار بمنزلة سائر الأشياء الأرضية ، فيظهر له بهذا التأمل ، أن جميعها شئ واحد فى الحقيقة ، وإن لحقتها الكثرة بوجه ما ، فذلك مثل ما لحقت الكثرة للحيوان والنبات.

معرفته العالم الروحانى

النفس الحيوانية والنفس النباتية

وطبائع الجمادات

وكذلك نظر إلى سائر الأجسام من الجمادات والأحياء، فرأى أن حقيقة (وجود) كل واحد منهما مركبة من معنى الجسمية، ومن شئ آخر زائد على الجسيمة: إما واحد، وإما أكثر من واحد، فلاحت له صور الأجسام على اختلافها وهو أول مالاح له من العالم الروحانى ، إذ هى صور لاتدرك بالحس ، وإنما تدرك بضرب (ما) من النظر (العقلى) ،ولاح له فى جملة ما لاح من ذلك ، أن الروح الحيوانى الذى مسكنه القلب- هو الذى تقدم شرحه أولا- لابد(له أيضا) من معنى زائد على جسيمته يصلح بذلك المعنى لأن يعمل هذه الأعمال الغريبة (التى تختص به) من ضروب الإحساسات وفنون الادراكات ، وأصناف الحركات وذلك المعنى هو صورته وفصله الذى انفصل به عن سائر الأجسام ، وهو الذى يعبر عنه النظار بالنفس الحيوانية.

وكذلك أيضا للشئ الذى يقوم للنبات مقام الحار الغريزى للحيوان شئ يخصه هو فصله ،وهو الذى يعبر عنه النظار بالنفس النباتية وكذلك لجميع أجسام الجمادات : وهى ما عدا الحيوان والنبات (مما) فى عالم الكون والفساد شئ يخصها ، به يفعل كل واحد منها فعله الذى يختص به مثل صنوف الحركات ،وضروب الكيفيات المحسوسة عنها ، وذلك الشئ هو فصل كل واحد منها ،وهو الذى يعبر النظار عنه بالطبيعة.

فلما وقف بهذا النظر على أن حقيقة الروح الحيوانى الذى كان تشوقه إليه أبدا مركبة من معنى الجسمية (ومن)معنى آخر زائد على الجسمية ، وأن معنى (هذه) الجسمية مشترك ولسائر الأجسام ،والمعنى الآخر المقترن به ينفرد به هو وحده ، هان عنده معنى الجسمية فاطرحه ،وتعلق

فكره بالمعنى الثانى ،وهو الذى يعبر عنه بالنفس ، فتشوق إلى التحقق به فالتزم الفكرة فيه ،وجعل مبدأ النظر فى ذلك تصفح الأجسام كلها، لا من جهة ما هى أجسام بل من جهة ما هى ذوات صور تلزم عنها خواص ، ينفصل بها بعضها عن بعض ، فتتبع ذلك وحصره فى نفسه ، فرأى جملة من الأجسام ، تشترك فى صورة ما يصدر عنها فعل ما، وأفعال ما، ورأى فريقا من تلك الجملة ، مع أنه يشارك الجملة بتلك الصورة ، يزيد عليها بصورة أخرى، يصدر عنها أفعال ما، ورأى طائفة من ذلك الفريق ، مع أنها تشارك الفريق فى الصورة الأولى والثانية تزيد عليه بصورة ثالثة، تصدر عنها أفعال ما خاصة بها، مثال ذلك : أن الأجسام الأرضية (كلها) : مثل التراب والحجارة، والمعادن، والنبات ،والحيوان ، وسائر الأجسام الثقيلة ، هى جملة واحدة تشترك فى صورة واحدة تصدر عنها الحركة إلى أسفل ، ما لم يعقها عائق عن النزول ،ومتى حركت إلى جهة العلو بالقسر ثم تركت تحركت بصورتها إلى أسفل.

مشكلة حدوث العالم وقدمه

فلما تبين له أنه كله كشخص واحد فى الحقيقة ،(قائم محتاج إلى فاعل مختار)،واتحدت معه أجزاؤه الكثيرة، بنوع من النظر الذى اتحدت به عنده الأجسام التى فى عالم الكون والفساد ، تفكر فى العالم بجملته ، هل هو شئ حدث بعد أن لم يكن ،وخرج إلى الوجود بعد العدم ؟ أو هو أمر كان موجودا فيما سلف، ولم يسبقه العدم بوجه من الوجوه ؟ فتشكك فى ذلك ولم يترجح عنده أحد الحكمين على الآخر ، وذلك أنه كان إذا أزمع على اعتقاد القدم، اعترضته عوارض كثيرة ، من استحالة وجود(ما) لا نهاية له ، بمثل القياس الذى استحال عنده به وجود جسم لا نهاية له ،وكذلك (أيضا) كان يرى أن هذا الوجود لا يخلو من الحوادث ، فهو لا يمكن تقدمه عليها ، وما لا يمكن أن يتقدم على الحوادث ، فهو أيضا محدث ، وإذا أزمع على اعتقاد الحدوث، اعترضته عوارض آخر ، وذلك أنه كان يرى أن معنى حدوثه ، بعد أن لم يكن ، لا يفهم إلا على معنى أن الزمان تقدمه ، والزمان من جملة العالم وغير منفك عنه ، فإذن لا يفهم تأخر العالم عن الزمان ،وكذلك كان يقول: «إذا كان حادثا ، فلابد له من محدث ،وهذا المحدث الذى أحدثه ، لم أحدثه الآن ولم يحدثه قبل ذلك؟ الطارئ طرأ عليه ولا شئ هناك غيره أم لتغير حدث فى ذاته ،(فإن كان) فما الذى أحدث ذلك التغير ؟ «وما زال يتفكر فى ذلك عدة سنين ، فتتعارض عنده الحجج ، ولا يترجح عنده أحد الاعتقادين على الآخر.

فلما أعياه ذلك، جعل يتفكر ما الذى يلزم عن كل واحد من الاعتقادين، فلعل اللازم عنهما يكون شيئا واحدا . فرأى أنه إن أعتقد حدوث العالم وخروجه إلى الوجود بعد العدم . فاللازم عن ذلك ، ضرورة ، أنه لا يمكن أن يخرج إلى الوجود بنفسه ، وأنه لابد له من فاعل يخرجه إلى الوجود ، وأن ذلك الفاعل لا يمكن أن يدرك بشئ من الحواس ، لأنه لو أدرك بشئ من الحواس لكان جسما من الأجسام ، ولو كان جسما(من الأجسام) لكان من جملة العالم، وكان حادثا واحتاج إلى

محدث ولو كان ذلك المحدث الثانى أيضا جسما لاحتاج إلى محدث ثالث، والثالث إلى رابع ، ويتسلل ذلك إلى غير نهاية(وهو باطل) فإذن لابد للعالم من فاعل ليس بجسم ، وإذا لم يكن جسما فليس إلى إدراكه بشئ من الحواس سبيل ، لأن الحواس الخمس لا تدرك إلا الأجسام ، أو ما يلحق الأجسام ، وإذا (كان) لا يمكن أن يحس فلا يمكن أن يتخيل ، لأن التخيل ليس شيئا إلا احضار صور المحسوسات بعد غيبها ، وإذا لم يكن جسما فصفات الأجسام كلها تستحيل عليه ، وأول صفات الأجسام هو الامتداد فى الطول والعرض والعمق ،وهو منزه عن ذلك وعن جميع ما يتبع هذا الوصف من صفات الأجسام ، وإذا كان فاعلا للعالم فهو لا محالة قادر عليه وعالم به «ألا يعلم من خلق، وهو اللطيف الخبير؟

ورأى أيضا أنه إن اعتقد قدم العالم ، وأن العدم لم يسبقه ، وأنه لم يزل كما هو ، فإن اللازم عن ذلك أن حركته قديمة لا نهاية لها من جهة الابتداء ، إذ لم يسبقها سكون يكون مبدؤها منه ،وكل حركة فلابد لها من محرك ضرورة ، والمحرك إما أن يكون قوة سارية فى جسم من الأجسام- إما جسم المتحرك نفسه ، وإما جسم آخر خارج عنه -وإما أن تكون قوة(ليست سارية ولا شائعة فى جسم ،وكل قوة سارية فى جسم وشائعة فيه ، فإنها تنقسم بانقسامه ،وتتضاعف بتضاعفه ، مثل الثقل فى الحجر مثلا ، المحرك له إلى أسفل ،فإنه إن قسم الحجر نصفين انقسم ثقله نصفين ، وإن زيد عليه آخر مثله، زاد فى الثقل آخر مثله ،فإن أمكن أن يتزايد الحجر أبدا إلى غير نهاية ، كان تزايد هذا الثقل إلى غير نهاية ، وأن وصل الحجر أبدا إلى غير نهاية ، كان تزايد هذا الثقل إلى غير نهاية ، وأن وصل الحجر إلى حد من العظم ووقف . وصل الثقل إلى ذلك الحد ووقف ، لكنه قد تبرهن أن كل جسم (فأنه) لا محالة متناه ، فإذن لكل قوة فى جسم(فهى) لا محالة متناهية ،فإن وجدنا قوة تفعل فعلا لا نهاية له، فهى قوة ليست فى جسم ،وقد وجدنا الفلك يتحرك أبدا حركة لانهاية لها ولا انقطاع و إذ فرضناه قديما .لا ابتداء له فالواجب على ذلك أن تكون القوة التى تحركه ليست فى جسمه ،ولاجسم خارج عنه ، فهى إذن لشئ برئ عن الأجسام ،وغير موصوف بشئ من أوصاف الجسمية ، وقد كان لاح له فى نظرة الأول فى عالم الكون والفساد أن حقيقة وجود كل جسم، إنما هى من جهة صورته التى هى استعداده لضروب الحركات ، وأن وجوده الذى له من جهة مادته ضعيف لا يكاد يدرك، فإذن وجود العالم كله انما هو من جهة استعداده لتحريك هذا المحرك البرئ عن المادة ،وعن صفات الأجسام المنزه ، عن أن يدركه حس ، أو يتطرق إليه خيال (سبحانه) . وإذا كان فاعلا لحركات الفلك على اختلاف أنواعها ، فعلا لا تفاوت فيه ولا فتور، فهو لا محالة قادر عليه وعالم به.

الله: وجوده ، وصفاته ،وكيف يعرف

فانتهى نظره بهذا الطريق إلى ما انتهى إليه بالطريق الأول، ولم يضره فى ذلك تشككه فى قدم العالم أو حدوثه ، وصح له على الوجهين جميعا وجود فاعل غير جسم ، ولا متصل بجسم ولا

منفصل عنه ، ولا داخل فيه، ولا خارج عنه ، إذ الاتصال ،والانفصال ،والدخول ، والخروج ، هى كلها من صفات الأجسام ،وهو منزه عنها.

ولما كانت المادة من كل جسم مفتقرة إلى الصورة إذ لا تقوم إلا بها ولا تثبت لها حقيقة دونها ،وكانت الصورة لا يصح وجودها إلا من فعل هذا الفاعل (المختار) تبين له افتقار جميع الموجودات فى وجودها إلى هذا الفاعل ، وأنه لاقيام لشئ منها إلا به ، فهو إذن علة لها ،وهى معلولة له، سواء كانت محدثة الوجود، بعد أن سبقها العدم ، أو كانت لا ابتداء لها من جهة الزمان ، ولم يسبقها العدم قط ، فإنها على كلا الحالين معلولة ومفتقرة إلى الفاعل ،متعلقة الوجود به ، ولولا دوامه لم تدم ، ولولا وجوده لم توجد ، ولولا قدمه لم تكن قديمة ،وهو فى ذاته غنى عنها وبرئ منها ! وكيف لا يكون كذلك وقد تبرهن أن قدرته وقوته غير متناهية ، وأن جميع الأجسام ،وما يتصل بها أو يتعلق (بها) ولو ببعض تعلق ، هو متناه منقطع فإذن العالم كله بما فيه من السماوات (والأرض) والكواكب ،وما بينها ،وما فوقها ،وما تحتها ، فعله (وخلقه) ،وهو متأخر عنه بالذات ، وإن كان غير متأخر بالزمان ،كما أنك إذا أخذت فى قبضتك جسما من الأجسام ، ثم حركت يدك، فإن ذلك الجسم لا محالة يتحرك تابعا لحركة يدك ، حركة متأخرة عن حركة يدك تأخرا بالذات ، وإن كانت لم تتأخر بالزمان عنها بل كان ابتداؤهما معا فكذلك العالم كله معلول ومخلوق لهذا الفاعل بغير زمان (إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون)(١٧)

فلما رأى أن جميع الموجودات فعله تصفحها من قبل ذا تصفحا على طريق الاعتبار ،فى قدرة فاعلها ،والتعجب من غريب صنعته ،ولطيف حكمته ودقيق علمه ، فتبين له فى أقل الأشياء الموجودة ، فضلا عن أكثرها ،من آثار الحكمة وبدائع الصنعة ، ما قضى منه كل العجب ،وتحقق عنده أن ذلك لا يصدر إلا عن فاعل مختار فى غاية الكمال (وفوق الكمال) «لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر(١٨).

فأصغ الآن بسمع قلبك ،وحدق ببصر عقلك إلى ما أشير إليه، لعلك أن تجد منه هدايا يلقيك على جادة الطريق ! وشرطى عليك أن لا تطلب منى فى هذا الوقت مزيد بيان بالمشافهة على ما أودعه هذه الأوراق فإن المجال ضيق ،والتحكم بالألفاظ على أمر ليس من شأنه أن يلفظ به خطر.

فأقول : إنه لما فنى عن ذاته وعن جميع الذوات ولم ير فى الوجود إلا الواحد(الحى) القيوم ،وشاهد ما شاهد ، ثم عاد إلى ملاحظة الأغيار عندما أفاق من حالة تلك التى هى شبيهة بالسكر ، خطر بباله أنه لا ذات له يغاير بها ذات الحق (تعالى) وأن حقيقة ذاته هى ذات الحق ، وأن الشئ الذى كان يظن أولا أنه ذاته المغايرة لذات الحق ، ليس شيئا فى الحقيقة ، بل ليس ثم شئ إلا ذات الحق ، وأن ذلك بمنزلة نور الشمس الذى يقع على الأجسام الكثيفة (فتراه) يظهر فيها فإنه وإن نسب إلى الجسم الذى ظهر فيه فليس هو فى الحقيقة شيئا سوى نور الشمس . وإن زال ذلك الجسم . زال نوره ويبقى نور الشمس بحالة لم ينقص عند حضور ذلك الجسم ولم يزد عند مغيبه ،ومتى حدث جسم يصلح لقبول ذلك النور، قبله ،فإذا عدم الجسم ذلك القبول ، لم يكن له معنى

،وتقوى عنده هذا الظن بما قد كان بان له من أن ذات الحق، عز وجل ،لا تتكثر بوجه من الوجوه ، وأن علمه بذاته ،هو ذاته بعينها ، فلزم عنده من هذا أن من حصل عنده العلم بذاته ،فقد حصلت عنده ذاته وقد كان حصل عنده العلم فحصلت عنده الذات .وهذه الذات لا تحصل إلا عند ذاتها ،ونفس حصولها هو الذات ، فإذن هو الذات بعينها ،وكذلك جميع الذوات المفارقة للمادة العارفة بتلك الذات الحق التى كان يراها أولا كثيرة، وصارت عنده بهذا الظن شيئا واحدا ،وكادت هذه الشبهة ترسخ فى نفسه لولا أن تداركه الله برحمته وتلافاه بهدايته: فعلم أن هذه الشبهة إنما ثارت عنده من بقايا ظلمة الأجسام ،وكدورة المحسوسات فإن الكثير والقليل والواحد والوحدة ،والجمع والاجتماع ،والافتراق ، هى كلها من صفات الأجسام ، وتلك الذوات المفارقة العارفة بذات الحق ، عز وجل، لبراءاتها عن المادة ، لا يجب أن يقال إنها كثيرة ، ولا واحدة .لأن الكثرة وإنما هى مغايرة الذوات بعضها لبعض ،والواحدة أيضا لا تكون إلا باتصال .ولا يفهم شئ من ذلك إلا فى المعانى« المركبة المتلبسة بالمادة. غير أن العبارة فى هذا الموضع قد تضيق جدا لأنك إن عبرت عن تلك الذوات المفارقة بصيغة الجمع حسب لفظنا هذا ، أوهم ذلك معنى الكثرة فيها، وهى بريئة عن الكثرة . وإن أنت عبرت بصيغة الافراد ، أوهم (ذلك) معنى الاتحاد ،وهو مستحيل عليها .وكأنى بمن يقف على هذا الموضع من الخفافيش الذين تظلم الشمس فى أعينهم يتحرك فى سلسلة جنونه ، ويقول :لقد أفرطت فى تدقيقك حتى أنك(قد) انخلعت عن غريزة العقلاء ، وأطرحت حكم المعقول ،فإن من أحكام العقل أن الشئ إما واحدا وإما كثير ، فليتئد فى غلوائه، وليكف من غرب لسانه وليتهم نفسه ،وليعتبر بالعالم المحسوس الخسيس الذى هو بين أطباقه بنحو ما اعتبر به« حى بن يقظان» حيث كان ينظر فيه بنظر(آخر) فيراه (كثيرا) كثرة لا تنحصر ، ولا تدخل تحت حد ، ثم ينظر (فيه) بنظر آخر ،فيراه واحدا .ويبقى فى ذلك مترددا ولم يمكنه أن يقطع عليه بأحد الوصفين دون الآخر ، هذا ،فالعالم المحسوس منشؤه الجمع والافراد ،وفيه تفهم حقيقته وفيه الانفصال والاتصال ،والتحيز والمغايرة، والاتفاق والاختلاف ، فما ظنه بالعالم الإلهى الذى لا يقال فيه كل ولابعض ،ولا ينطبق فى أمره بلفظ من الألفاظ المسموعة ، إلا وتوهم فيه شئ على خلاف الحقيقة ، فلا يعرفه إلا من شاهده ،ولا تثبت حقيقته ، إلا عند ما حصل فيه، وأما قوله : «حتى انخلعت عن غريزة العقلاء وأطرحت حكم المعقول » فنحن نسلم له ذلك ونتركه مع عقله وعقلائه وأطرحت حكم المعقول » فنحن نسلم له ذلك ونتركه مع عقله وعقلائه فإن العقل الذى يعنيه هو أمثاله ، إنما هو القوة الناطقة التى تتصفح أشخاص الموجودات المحسوسة ، وتقتنص منها المعنى الكلى .والعقلاء الذين يعنيهم ، هم ينظرون بهذا النظر ،والنمط الذى كلامنا فيه فوق هذا كله ، فليسد عنه سمعه من لا يعرف سوى المحسوسات وكلياتها وليرجع إلى فريقه الذين «يعملون ظاهرا من الحياة الدنيا ،وهم عن الآخرة معرضون»(١٩).

هوامش

١- الواقواق : بلاد فى الصين على الأرجح.

٢-لاحظ غلطة ابن طفيل فى رده على الفلاسفة فهو يذهب خطأ إلى أن منطقة خط الاستواء ليست شديدة الحرارة.

٣-لاحظ تأثره الشديد بابن سينا ، فهو يجاريه حتى فى الخطأ لثقته به.

٤- خطأ آخر يرتكبه ابن طفيل فى قوله أن الشمس فى ذاتها ليست حارة.

٥- قوله أن الأرض كروية دليل على سبق العرب فى هذه المسألة ، فهم يعتقدون يعتقدون أن كولومبوس هو الذى أثبت كروية الأرض بعد اكتشافه أمريكا فى القرن الخامس عشر.

٦- « أن الله خلق آدم على صورته » أو خلق الإنسان على صورته مقولة مسيحية ، ولكنها تسربت إلى الفكر الإسلامى وظهرت عند المتصوفة بشكل واضح وهناك حديث شريف رواه البخارى عن أبى هريرة بهذا المعنى.

٧- طارت إليه: الظبية لا تطير وهى تعنى أسرعت إليه.

٨- أثغر : ظهرت أسنانه

٩- ضحا: برز للشمس

١٠-خصر: برد

١١- هذا يشير: إلى اعتقاد ابن طفيل برواية الولادة من أب وأم

١٢-يحكى : يقلد.

١٣-الصياصى: جمع صيص وهو شوكة الديك وقرن البقرة والظبية إلخ وكل ما يمتنع به.

١٤- الخوص والحلفاء : اسما نبتتين يستخرج منهما خيطان تنسج منها الأكياس.

١٥-عالم الكون والفساد : العالم الأرضى ، لأن الكائنات التى توجد على الأرض من حيوان ونبات وجماد تكون(تخرج من العدم إلى الوجود) وتفسد(تخرج من الوجود إلى العدم).

١٦- سورة يس الآية ٨٣

١٧- سورة سبأ ، الآية ٣

١٨ سورة الروم، الاية ٧

من أوراق الكاتب الشهيد :

كين سيرا ويوا

ترجمة وإعداد : فريدة النقاش

كان توحيد جماهير " الأوجونى" أسهل كثيرا من جمع عدد من الخريجين والمثقفين ليلتقوا فى رؤية واحدة دفاعا عن " الأوجونى" إذ كان المثقفون مشدودين ومتطلعين للحصول على مكان لهم لدى السلطة .

لم تكن هذه هى المرة الوحيدة التى يعبر فيها الكاتب والشاعر النيجيرى الشهيد " كين سيرا ويوا " عن خيبة أمله فى بعض مثقفى أهله ، هؤلاء المثقفون الذين انشغلوا بأنفسهم وبنجاحهم الخاص وغضوا الطرف عن محنة شعبهم التى وهب لها " سيرا ويوا " جهده وعمره، وقال لأبيه الذى اقترب من التسعين وجاء ليزوره فى سجنه ذات مساء:

" مثلى يتوقعون المتاعب والآلام ويمكن أن يفقدوا حياتهم دفاعا عن مثلهم ، وعلى الطريق الذى اختاروه لأنفسهم.. ".

وكان " سيرا ويوا " نموذجا آخر للمثقف الذى بقدر ماعرف واجبه تجاه شعبه عاش فى ضميره .

كان الشاعر والكاتب الدرامى والروائى الصحفى الساخر والمناضل من أجل حقوق الأقليات العرقية ومن أجل بيئة نظيفة ومستوى حياة لائق لشعبه .. وكأنه كان يتنبأ بمصيره المرتقب على أيدى الدكتاتورية العسكرية المستبدة الفاسدة التابعة والمتواطئة مع شركات النفط الكبرى فى العالم ، والتى لفقت له مع ثمانية من رفاقه تهمة قتل أربعة من المواطنين من أهالى " الأوجونى" المتهمين بالتعاون مع السلطة العسكرية وقدمتهم لمحكمة استثنائية حكمت عليهم بالشنق ورفضت كل الأدلة القاطعة التى تقدم بها أهالى " الأوجونى" وحركتهم ، وسارعت بتنفيذ الحكم بليل رغم الاحتجاجات والصرخات التى انطلقت من كل أرجاء العالم .

هددت رابطة دول الكومنولث التى تقودها بريطانيا وتضم كل الدول التى كانت فى السابق مستعمرات بريطانية بأن توقع عقوبات رادعة على الطغمة العسكرية فى نيجيريا إلا أن مثل هذه العقوبات لم توقع حتى الآن.

وكان " سيرا ويوا " يكاد يتنبأ بمثل هذا الموقف المهادن اللامبالى من قبل حكومات الغرب الضالعة مع شركات النفط والمساندة موضوعيا للدكتاتوريات العسكرية حين قال :

" إن الغرب يعبر عن قلقه على الأفيال ويوقف تصدير قرون الخراتيت ، ولكنه لا يشعر بأدنى قلق على الكائنات البشرية التى تموت .."

وقد صحت نبوءته . وعجز المتشدقون بالدفاع عن حقوق الإنسان عن إنقاذ الكاتب البرئ ورفاقه من حبل المشنقة ، بل لم تتعرض شركة شل التى فضحتها حركة الدفاع عن بقاء شعب " أوجو نى"

التى أسسها " سيرا ويوا " ورأسها - لأى عقاب باعتبارها مجرمة ومرتكبة للمذابح العرقية بسبب تدميرها المنظم للبيئة فى منطقته التى تحولت إلى أرض خراب على حد تعبيره.

وفى ساحة الإعدام غنى " كين سيرا ويوا " ورفاقه نشيد حركتهم، وهتفوا فى وجه جلاديهم ، إن النضال سوف يستمر وسوف ينتصر شعب " الأوجونى" وكل الشعوب التى تتعرض للاستغلال والنهب والإذلال .. المهم أن تستيقظ وتنظم نفسها ، ويلعب مثقفوها المخلصون دورهم .

تعرض " سيرا ويوا " للسجن أربع مرات منذ بدأ نضاله السياسى ، وحين سجن فى المرة قبل الأخيرة عام ١٩٩٣ كتب مذكراته بعنوان " شهر ويوم .. مذكرات الاعتقال ".

وكتب له الروائى الانجليزى " وليام بويد " - أحد أقرب أصدقائه مقدمة ليصدر الكتاب بعد تنفيذ حكم الإعدام ، وكانت واحدة من رسائل " سيرا ويوا " الأخيرة لبويد تحمل هذه الكلمات :

" إن معنوياتى مرتفعة للغاية .. ولا يساورنى الشك أبدا فى أن فكرتى سوف تنجح مع الزمن وأنا مهيأ على الصعيد العقلى لأسوأ الاحتمالات ولكننى مفعم بالأمل فى ماهو أفضل ، وأظن أننى قد حققت نصراً أخلاقياً ".

* * *

يقول بويد فى مقدمته للكتاب

التقيت " بسيرا ويوا " للمرة الأولى سنة ١٩٨٦ بناء على طلبه وكان ناشرا فى ذلك الوقت قال إنه قرأ أولى رواياتى " رجل طيب فى أفريقيا " والتى اكتشف أن أحداثها تقع فى نيجيريا رغم الأقنعة والأسماء الروائية ، إذ كانت نيجيريا هى وطنى فى سنوات المراهقة وبداية العشرينيات من عمرى.

وكان " كين " طالبا فى جامعة " إبادان " غرب نيجيريا فى منتصف الستينيات ، وكان أبى المرحوم " ألكسندر بويد " مديرا للخدمات الصحية هناك وقام بعلاج " كين " وتعرف عليه وأدرك" كين " أن " د. مورى" فى الرواية كان تصويرا لدكتور " بويد " ، فملأه الفضول للتعرف على ابنه.

وفى يوم صيفى مشمس ، من الأيام القليلة شديدة الحرارة فى انجلترا أخذنا نذرع معا إحدى الساحات المربعة النظيفة فى كلية بكامبردج ونتحدث عن نيجيريا . كان " كين قصيرا ممتلئاً دافق الحيوية له ابتسامة كبيرة آسرة ، يدخن " البايب " التى عرفت فيما بعد أنها كانت بمثابة شعار وعلامة يميزه الناس بها فى نيجيريا . وبدا فى الصور التى كانت تنشرها الصحف النيجيرية له فى الأيام الأخيرة وهو فى طريقه إلى المحكمة أو خارجا منها نحيفا ومتكئا على عصا وكأنه طعن فى السن بعد ثمانية عشر شهرا من السجن .. وكان البايب كالعادة معلقا بين أسنانه .

لم يكن " سيرا ويوا " ناشراً فحسب ، بل عمل قبل ذلك فى التجارة - وهو ماسوف يحكى عنه فى مذكراته - وكان صحفيا لامعا يكتب فى السياسة وله أسلوب لاذع قوى ، وكاتب رواية ومسرحياً وشاعراً ومؤلف قصص أطفال غزير الإنتاج نشر معظم أعماله بنفسه ، وكان بالإضافة لذلك كله كاتبا

لامعا للدراما التلفزيونية التجارية الكوميدية الأكثر شعبية فكتب " باس وفرقته " فى مائة وخمسين حلقة شاهدها الأفارقة وطالبوا باعادتها ويقدر عدد هؤلاء بثلاثين مليونا . ويحكى المسلسل قصة مجموعة من الشباب النيجيرى الكسول الذى لايفعل شيئاً سوى تدبير خطط عقيمة للحصول على الثروة ، وفى ثنايا الكوميديا برزت نزعة تعليمية واضحة لم يخجل منها الكاتب أبدا ، كان ماهو غلط فى مسلك وتوجه هؤلاء الشبان هو نفسه الغلط العام فى نيجيريا ، فما من أحد منهم كان يريد أن يعمل ، وسلكوا جميعا كما لو أن العالم مدين لهم بتقديم سبل العيش وإذا لم يحصلوا على ذلك بالطرق الصحيحة فانهم لايتورعون عن فعل العكس وتبريره.

وكلما أتى " كين " إلى لندن كنا نلتقى عادة فى " نادى شلس الفنى " وكان يأتى كثيرا إذ كانت زوجته وأطفاله الأربعة يعيشون فى انجلترا حيث يتلقى الأطفال تعليمهم ، ورغم تنوع كتاباته وغناها أعتقد أن عمله الرئيسى هو " سوزا بوى" أو " فتى الجندية" الذى يحمل عنوانا فرعيا يقول إنها " رواية بالإنجليزية البالية مزج فيها بطريقة فريدة بين الانجليزية التقليدية ، واللغة التى استخدمها سكان المستعمرات البريطانية فى غرب أفريقيا وانجليزية أخرى تحمل فى ثناياها وجملها روحا غنائية كلاسيكية وحسا أدبيا شعبيا يلتقط مفرداته الانجليزية برشاقة وذكاء لتصبح اللغة فى نهاية المطاف أداة طيعة للقصة التى تحكيها عن صبى قروى بسيط أصبح جنديا فى جيش بيافرا الانفصالى أثناء الحرب الأهلية النيجيرية وطالما حلم الصبى أن يصبح جنديا (سوزا) . ولكن الوقائع الفظة لهذا الصراع الضارى خيبت آماله وأحلامه بقسوة.

وفى رأيى أن " سوزا بوى" أو فتى الجندية ليست مجرد رواية أفريقية عظيمة ، لكنها أيضا رواية عظيمة ضد الحرب من بين أفضل روايات القرن العشرين قاطبة (لم تترجم إلى العربية).

تأسست الرواية على التجربة الشخصية " لكين " أثناء الحرب الأهلية بين بيافرا والحكومة الاتحادية ، كذلك كانت جل أعماله مستقاة مباشرة من خبرته الخاصة فى الحياة خاصة فى هذه المرحلة من الصراع.

" وبيافرا " هو اسم مجموعة عرقية غير متماسكة تسكن شرق نيجيريا وتهيمن عليها قبائل الإبو الذين قرر زعيمهم الانفصال عن الاتحاد النيجيرى بما فيه من غالبية نفط البلاد الاحتياطى وسقط فى هذه الحرب مايقرب من مليون قتيل معظمهم راحوا ضحية المجاعة.

وحين اندلعت الحرب سنة ١٩٦٧ كان " كين " يقضى عطلته وسرعان ماوجد نفسه محاصرا فى " بيافرا" التى لو بقى فيها لاضطر مرغما إلى المشاركة فى القتال ، فهرب إلى المناطق الاتحادية حيث شغل موقعا مدنيا فى ميناء " بونى" الذى يتحكم فى تصدير النفط فى دلتا نهر النيجر وبقى هناك حتى سقوط " بيافرا " سنة ١٩٧٠ . ومن واقع هذه التجربة كتب مذكراته " فى سهل معتم ".

وقد شكلت هذه الحرب خلفية صراعه المقبل ضد العسكرية النيجيرية ، إذ عرف جيدا ذلك الشعور

بالعجز وقلة الحيلة الذى يداهم الأقلية العرقية فى مواجهة الدكتاتورية العسكرية المهيمنة ، حيث النفط وثروات النفط هى عوامل إفساد تدمير للمجتمع ، وحيث تبرز الحاجة لأن يصبح الإنسان صادقا أمام ضميره ومخلصاً له .

وقد ظهرت هذه الصرامة الأخلاقية بشكل خاص فى كتابات " كين " السياسة الساخرة التى واصلها ككاتب عمود فى عدة صحف يومية وتجلت فى الكثير منها روح " سويفتية " لاذعة (نسبة إلى كاتب المقالات الساخرة البريطانى جوناثان " سويفت ") ، فسخر من أمراض المجتمع النيجيرى القبلية ، تجاهل حقوق الأقليات، تفشى روح التكالب على المادة ، عدم الكفاءة واستغلال النفوذ على نطاق واسع . وفضلا عن مسلسل " باسى وفرقته " كانت كتاباته الصحفية اللاذعة هى السبب فى شهرته الواسعة بين مواطنيه .

أخذ " كين " ينغمس منذ نهاية الثمانينات فى قضية قومه " الأوجونى" الذين يصل تعدادهم إلى نصف مليون مواطن ويعيشون فى دلتا نهر النيجر الخصبة . ومن سوء طالعهم أن موطنهم يقبع فوق احتياطى هائل للنفط النيجيرى مما جعل أرض الأوجونى أرضا للخراب والتلوث بسبب عمليات التنقيب والاستخراج بعد أن كانوا يعيشون فى رغد وسلام فلاحين وصيادين.

ويقول " كين " فى آخر مقابلة تلفزيونية أجرتها معه القناة الرابعة (القناة الثقافية) فى التلفزيون البريطانى وأذيعت بعد شنقه تحت عنوان " بلا أسوار الرجل المشنوق .. عار نيجيريا) وترجمها الزميل " نبيل زكى"

يقول :

تتكون نيجيريا من ثلاثمائة مجموعة عرقية تختلف كل منها عن الأخرى . وقامت بريطانيا بتجميع هذه المجموعات فى دولة واحدة ، ورغم أنه من المفترض أن الشكل الذى يضم هذه المجموعات هو الاتحاد الفيدرالى لدولة نيجيريا فقد حاول العسكريون منذ تولوا السلطة أن يجعلوا من هذا الاتحاد دولة مركزية واحدة.

وفى ظل الدولة المركزية انتهجت الجماعات العرقية الرئيسية الكبرى سياسة الخداع والتضليل تجاه الجماعات العرقية الصغيرة . والسبب أن ٩٤٪ من الناتج القومى الإجمالى لنيجيريا هو البترول ، ويوجد هذا البترول – فى الأساس – فى أراضى دلتا نهر النيجر التى تقطنها الجماعات العرقية الصغيرة.

ومنذ عام ١٩٥٨ ، وبلاد " الأوجونى" تنتج البترول ، ولكن شعب الأوجونى لايملك أى شئ يدل على امتلاكه أى ثروات أو موارد " إننى أريد العدل لشعب " أوجونى".

خلال ثلاث وثلاثين سنة أطلقت شركات البترول الغاز فى نيجيريا مما تسبب فى هطول الأمطار الحمضية والمعروف أن معدل سقوط المطر فى منطقة الأوجونى مرتفع للغاية ، وهكذا تهطل الأمطار

الحمضية بغزارة وتفسد التربة.

ونظرا لأن العلاقة بين الحكومة النيجيرية والأقليات العرقية هى علاقة استعمارية ، فإن مصالح شركة " شل " تمتزج مع مصالح هؤلاء الذين يديرون دفة الأمور فى نيجيريا الآن ..

إننى أتهم شركة شل بالعنصرية لأنها ترتكب أفعالا فى " أوجونى" لاتجرؤ على أن تمارس مثلها فى أوربا أو أمريكا حيث تقوم بعمليات تنقيب عن البترول أيضاً.

وقد توالت الحكومات العسكرية على نيجيريا وواصلت الحياة - يقول بويد - اعتمادا على هذه العوائد الضخمة من النفط الذى استفادت منه الطغمة العسكرية وكدست مليارات الدولارات .

وكان لابد من اسكات صوت أى حركة تقاوم هذه الأوضاع وإخمادها . ومع صعود " أباشا " وطغمته الشرهة القميئة أصبح " كين " يقف وجها لوجه مع الخطر . ومع ذلك فقد عاد إلى نيجيريا بعد لقائنا الأخير ليواصل الاحتجاج فى بلد أصبح فيه كل من الاغتصاب والقتل وإحراق القرى أعمالا عادية تتعمدها سياسة الإرهاب الحكومى المنظم ، وكان أن سقط ألفا قتيل من أهل " الأوجونى" فى هذه العمليات منذ بدء حركتهم المنظمة سنة ١٩٩٠.

* * *

يتحدث " كين " فى برنامجه التلفزيونى الأخير عن دور الأدب فيقول إنه :

فى دول الغرب يكتب الكتاب للتسلية ويمارسون الترف الفكرى ، فيطرحون تساؤلات حول وجود الفرد ، وأنتم تعرفون مشكلات الحصر النفسى والقلق لدى الفرد عندكم ، أما بالنسبة لكاتب نيجيرى فى موقفى فانه لايستطيع المضى على هذا النحو.

الأدب يجب أن يكون مقاتلا ، وليس بوسعك أن تدعو للفن من أجل الفن ، فهذا الفن يجب أن يفعل شيئاً لتغيير حياة أفراد المجتمع والأمة.

إن للأدب فى مجتمع مثل المجتمع النيجيرى مهمة تختلف تماما عن مهمته فى المجتمع البريطانى.

وأنتم تعرفون أن الكاتب لايكسب مالا فى نيجيريا ، ورغم أن نيجيريا تضم مائة مليون نسمة فان معظم مواطنيها لايستطيعون القراءة والكتابة وبالتالى فان للأدب رسالة مختلفة فى نيجيريا .

وها أنذا أمامكم . لقد كتبت ٢٢ كتابا ، و١٥٠ برنامجا ومسلسلاً تليفزيونيا أستمتع بها كل مشاهد .. ومع ذلك فانني فقير ، وهذا لايهمنى ، وكل مايهمنى هو أن يكون فنى قادرا على تغيير وجه الحياة بالنسبة لعدد كبير من الناس ، وتغيير مجتمع بأكمله ، وبلادى برمتها .

وعلى هذا الأساس فان الأدب الذى أكتبه ينبغى أن يكون مختلفا كل الاختلاف عما يعرفه الغربيون.. والقصص التى أرويها يجب أن تكون من نوعية مغايرة لتلك التى يرويها الفنان فى العالم الغربى ، وأن يكون لها هدف مختلف.

لم تعد المسألة الآن مجرد رحلة من رحلات الأنا لممارسة التأملات الذاتية ، وإنما القضية الآن هى

السياسات الاقتصادية وكل شئ تعرفه .. وعندئذ يصبح للفن مغزى ومعنى ودلالة سواء بالنسبة للفنان ذاته ، أو بالنسبة لمتذوقى هذا الفن ، لأنك لاتنتظر منهم قراءة كتبك فحسب وإنما عليك أن تعيش حياتهم.

لذلك أقول إن للفنان فى مجتمعنا دوراً مختلفاً . وفى تقديرى» أنه دور أكثر قيمة وأهمية من دور الفنان فى الغرب وعندما تطالب بحقوق الشعوب ، فانه ليس بمقدورك أن تشرع فى التساؤل عما إذا كنت ستواجه خطر دخول السجن أو ستتعرض للقتل أو أى شئ آخر ، فالحق هو الحق ، ويجب القتال من أجله.

تلك كانت حياتى خلال العشرين سنة الماضية وفى هذه السن ، وعند هذه المرحلة من حياتى ليس هناك حقا ما أخافه أو أخشاه .

وقد رأينا العديد من الطغاة فى الماضى يتساقطون ، والطغاة الجدد سوف يتساقطون أيضاً.

* * *

وفيما يلى مقتطفات من مذكرات السجن والأشعار التى كتبها هناك :

مذكرات السجن

فى الواحد والعشرين من يونية ١٩٩٣ ، وكنا عند مفترق طرق فى " بورت هاركوت " حيث يزدحم التقاطع مع الطريق السريع الذى يربط المدينة " أبا " فى الشمال ، وقعت الدراما فى مواجهة مكتب الاشتراكات فى المواصلات العامة خيل إلى أن الكثيرين من الواقفين عرفوا أننى معتقل ، أما أنا فأعرف على وجه اليقين أنها المرة الرابعة التى أتعرض فيها للاعتقال فى غضون ثلاثة أشهر ..

* * *

دفعوا إلى بأوراق ، وطلبوا منى أن أملأها ببيان عن نشاطى فى يوم الانتخابات فى الثانى عشر من يونيه ١٩٩٣.

وكانت " الأوجونى" تحت قيادة حركة الدفاع عن بقاء شعبها قد قاطعت الانتخابات ، وقبل أن أكتب شيئاً طلبت السماح لى بمقابلة المحامى ، وتماما كما توقعت – رفضوا طلبى ، بهدوء أخرجت قلمى وكتبت ، وأنا أعرف جيدا أن ما أكتبه لن يجرى استخدامه أبداً ومع ذلك وقعت عليه بافتخار .

وسرعان مادخلت على شابة جميلة تحمل رتبة ضابط كبير جاءت لتفحص ما كتبت ، قرأته وبدا عليها الرضا ، وقدمت لى مكاناً أجلس عليه فوق كرسى متهالك فى مكتبها الذى تظلله الستائر . كم كان ذلك لطيفا منها ، ما أن أخذت أتأمل هذا اللطف إلا وكانت المرأة قد اختفت ومعها الورقة وبقيت وحيدا مع البايب الذى حشوته وأشعلته لأدخن بعمق بينما يحلق عقلى كطائر مجنح.

* * *

عادت السيدة وسألتنى أن أصحبها للمبنى الرئيسى ، وفيما نعبر الحوش الرئيسى وقد امتلأ

بالسيارات فى فوضى ضارية ، همس طائر لى أنهم سوف يأخذوننى إلى معتقل فى " لاجوس " ، وهو شئ لم أستبعده من قبل ، أخذت أهيئ نفسى لأكون قادرا على مواجهة كل الاحتمالات وحينئذ فقط وحين همست لنفسى بضرورة هذا الإعداد تذكرت أننى لم آكل شيئاً طيلة اليوم.

* * *

وكأننى لم أكن أعرف هناك فى الدور الأرضى سوف التقى برجال ونساء قادمين من مناطق العبودية فى دولة العبودية الحديثة التى تسمى نيجيريا ، وفى الأدوار العليا يقبع الاستعماريون المحليون ، ليس من الضرورى أن يحسنوا الكلام أو حتى يتلقوا تعليما جيدا ولكنهم يقبضون على زمام السلطة ويعرفون ذلك جيدا .

سألت الرجل الغليظ القابع على المكتب ، وكان عقلى يحوم فى مكان آخر.

– منذ متى وأنت تعيش فى "ريفر ستيت ".

– منذ عام

أو ربما قال شيئاً كهذا ، فلم أكن أستمع ولم آبه لإجابته .

– هل يروق لك المكان هنا ؟

– نعم

– هل تراهن أنكم سوف ترحلوننى إلى " لاجوس "

– من قال لك ذلك ؟

– الطير

– ماذا ؟

– الريح

– أنا لن أرسلك إلى " لاجوس "

كان يكذب . وددت أن أسدد قبضتى لشفتيه اللتين تكذبان . أخرجت البايب وحشوته ، وأشعلت ثقابا وأخذت أسحب أنفاسا عميقة ، رقص الدخان فى الهواء وهو يصعد بطيئاً إلى السقف.

* * *

قام الرجل متثاقلا وخرج بطيئاً من الغرفة يتبعه ثوبه الفضفاض الذى يمسح قذارة الأرض . وبقيت مع أفكارى تحوم المظالم حول الأرض كنمر يطارد فريسته ، وأن تقع تحت رحمة الحمقى لهى الإهانة الحقيقية ، وأن تحولك أدوات القوة التى تملكها الدولة إلى ذرات من تراب لهو الجرح ذاته .

* * *

كان الجميع فيما عداى قد ناموا، أخذت أفكر فيما مضى من عمرى وكيف لو أننى كنت مازلت شابا لربما وقعت تحت إغراء سنوات الجموح تلك وقفزت من السيارة ، وانتزعت مسدسا من الحراس

النائمين وأطلقت النار لأؤمن لنفسى السلامة أو الدخول فى مغامرة قد تنتهى بالموت . وللحظة استدعيت أسرتى ، أبى ، أمى ، إخواتى وإخوتى وكيف يشعرون الآن . تذكرت أطفالى ، ذلك المريض فى بورت هاركوت ، وذاك الوسيم ابن الرابعة عشرة الذى كان يدرس فى " ريتون " بانجلترا وقد دفنته بنفسى فى مقبرة " ريتون ".

ولكن المجرى الرئيسى لفكرى كان متجها لشعب الأوجونى والعناء الذى كان عليه أن يتحمله ، بل كان مجبراً على تحمله عبر مايزيد على قرن من الزمان ذلك العمل الذى عقدت العزم على إزاحته عن كاهله فى حياتى .

هذا الشعب الذى يمشى كالنائم إلى مصيره .. إلى الفناء دون أن يعرف ما ألحقه الاستعمار الداخلى به من أذى ينتظره المزيد منه فى مقتبل الأيام . وقعت على مهمة إيقاظه من سبات قرن من الزمان وقبلت المهمة والمسئولية برضى .

فهل سيكون قادرا على الصمود فى وجه العنف الذى يفرضه الكفاح ؟

* * *

أن تموت محاربا من أجل أن ينصلح عالم معوج لهى أعظم هبة من الحياة

* *

ومن الأشعار التى كتبها فى السجن

نشيد الأوجونى

ياخالق الأوجونى
أرضا للمجد والغنى
هبنا سلامك وحبك الخالد
وألق ببذور العدل نثارا فى أرضنا
وامنحنا بعض حكمتك والقوة
لنلحق العار بأعدائنا

* * *

ياخالق الأوجونى
أرضا للمجد والغنى
امنحنا بركاتك الخالدة أيها المعبود
امنحها لكل من الجوكانا
وللكانا وإيليم
وتاييوبابى

*　　*　　*

السجن الحقيقى

ليس هو القف الذى يرشح
ولا البعوض الذى ينخرط فى الزن
طليقا فى الزنزانة الرطبة التعيسة
ولاهو صرير المفتاح حين يغلق
الحارس الباب عليك
لا ، ولا الغثاء الذى يعافه
كل من الإنسان والحيوان
لا ولا فرا غ النهار الذى
ينزلق فى ضجر الليل
إنه ليس هذا
ليس هذا
ليس هذا
بل الأكاذيب التى حاكوها
وصبّوها فى الآذان
إنه رجل الأمن يحوم فى المكان
يعدد أوامره القاسية الفاجعة
التى يقوم آخرون بتنفيذها لقاء
وجبة تعيسة فى اليوم
ومديرة تكتب فى سجلها
عقوبات هى تعرف أنها لاتستحق
هو العجز الأخلاقى
والشلل العقلى
يضفى شرعية مزورة
على الاستبداد
ويتخفى الجبن فى ثياب الطاعة
ليلعق أرواحنا التى تشوهت

إنه الخوف يبلل السراويل

حين لانجرؤ على إخراج بولنا

هذا هو

هذا هو

هذا هو

يا أصدقاء

إنه يقلب حياتنا الحرة

إلى سجن كئيب

تستطيع أن تصف الحالة الحقيقية لأمة فى حين تعرف سجونها – حيث المسجونين دائما بعيدون عن البصر.. وهكذا وجدت فى نيجيريا باحة خالية كبيرة.

بنى السجن فى زمن الاستعمار ، وكان فى حينه أكبر سجن فى غرب أفريقيا مصمماً ليدخله الهواء النقى من كل جانب ، مع مبان ومعدات للتعليم مثل الورش والمكتبة ، وكانت به أيضا عيادة، وجناح للنساء مايزال قائما .. والآن تآكلت كل الأشياء وانهارت .. ذهبت أدراج الرياح حتى وكأن القسم الخاص بالإدارة لم يعرف الطلاء منذ دهور ، أما الغرفة التى يجلس فيها كبار الضباط فهى مكدسة وقذرة تتناثر فيها دون نظام كراسى وطاولات قديمة، لا مراوح أو مكيفات ، لا تليفون أو دورات مياه اللهم واحدة رديئة يستخدمها مدير السجن ، وما من أحدهم يملك سيارة .. يا إلهى إنه لبؤس فاضح. وقد كان هناك من أبناء نيجيريا من هم وزراء داخلية وقد شهدوا بأم أعينهم كل هذا العار ، ولم يتفوه أحدهم بكلمة احتجاج أو يصدر أمرا ، وكان هناك نيجيريون موقوفون تعرضوا للسجن والاحتجاز فى هذا المكان والحال وخرجوا جميعا دون أن يفعلوا شيئاً لتغييره لم أقض فى السجن أكثر من يوم واحد إلا وتيقنت أن أحوال السجون والمسجونين فى نيجيريا سوف تضاف إلى قائمة الحملات التى أعد لها .. وما أكثرها .

* * *

وزارتنى أمى

جاءت لزيارتى اليوم .

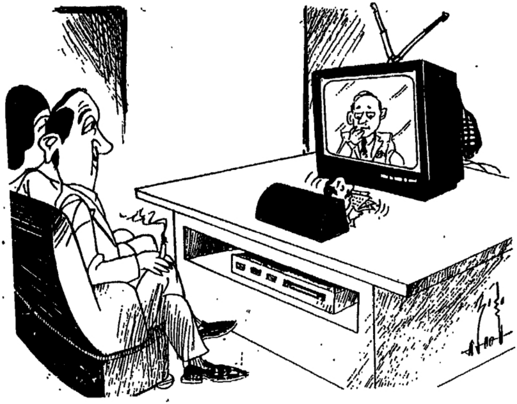
تلك السيدة الصغيرة الجميلة.

حاملة لى الزاد

من ثمار النخيل

كنت قد نسيت هذا المذاق الحلو

أستعيده الآن



من أيام الطفولة
حين كان شفتاى الصغيرتان
تلتهمان ثدييها
وفى ثمر النخيل
أشرب مرة أخرى
لبن أمى المبارك

* * *

فى مساء ذلك الأحد ، وكانت حالتى الصحية قد تدهورت تماما كان على أن أصرخ من أجل العون عبر الشباك الحديدى لزنزانتنا.

جاءنى حارس عاجز قليل الحيلة . وقال إنه أرسل طلبا عاجلا للمفتش - رئيسه - الذى كان أشد عجزا وقلة حيلة.

نظر إلى شباكى وتمتم بكلمات غير مفهومة كان يمكن أن أموت من هذه اللحظة لكننى امتلأت بعزيمة بدا لى إنها تنقذنى من هذا الموت المحدق الذى كان سيريح أعدائى .. كنت مصمماً على العيش .. طلع الفجر وبعد ساعات أرسلت فى طلب مدير السجن متحديا قلت له .. إنك قاتل كان ذلك أمام مرؤسيه الكثيرين . لم أكن أفهم لماذا هذا الرفض العنيد لإرسالى إلى المستشفى رغم نصيحة الطبيب ، رفضت من حيث المبدأ فكرة أن البوليس هو الذى يقرر وليس الطبيب.

عشرون عاماً من الصمود والعطاء

بمناسبة مرور عشرين عاماً على صدور « أدب ونقد » تقيم المجلة احتفالات ثقافية خلال شهرى يناير وفبراير، فى مقر الحزب بالقاهرة، وفى معرض الكتاب بالقاهرة، وفى الإسكندرية وسوهاج وبورسعيد والاسماعيلية.

مختارات من الفقه الأسود

اختيار وتقديم : د. حسن طلب

تكشف هذه النصوص التى اخترناها من الكتب الصفراء الملقاة على الأرصفة فى كل مكان ، عن المصادر المباشرة والمرجعية الأولى لفقه الظلام الذى نراه يكسب أرضا جديدة كل يوم ، فى وسائل الإعلام المختلفة من صحف وإذاعة وتليفزيون ، وفى المؤسسات والهيئات الدينية ، وفى الجامعات ، فيبذر فى كل شبر من هذه الأرض الطيبة بذور التخلف والتعصب والإرهاب ، يكفر الفن والفلسفة وينكر العلم ، ويصادر الكتب والأفلام ويحتقر المرأة إلى الحد الذى لايراها فيه إلا مجرد حية أو شيطان ، وقصارى ماتستطيعه هو أن تهيئ للرجل متعته وتشبع شهوته . وفوق ذلك كله ينشر الخرافة والجهل ، فينسج بخياله المريض أقاصيص يرقى بها إلى مستوى الحقائق الدينية ، حول الجن والشياطين ، وحول الجنة والنار ، مما لايقبله عقل ولايقره نظر سليم.

ولاشك فى أن بعض هذه النصوص يعتمد على الفهم المغلق المتزمت لبعض آيات القرآن الكريم ، كما أن بعضها يعتمد على أحاديث موضوعة أو ضعيفة ، فهم يبيحون العمل بالأحاديث الضعيفة فى الوعظ والزجر.

وليت الأمر وقف عند هذا الحد ، فحينئذ سنستطيع أن نواجه هؤلاء الفقهاء بالدعوة إلى تأويل عقلانى مستنير للنص القرآنى بما يتفق وروح العصر ويخدم مصالح الناس السائرة ، وكذلك بالدعوة إلى اتباع صحيح السنة دون الضعيف والموضوع من الأحاديث والأخبار ، غير أننا سنكتشف أن الأمر أكبر من ذلك بكثير ، فزواج ابنة تسع سنوات يستند إلى زواج الرسول من عائشة فى هذه السن ، والآيات التى ذكرت الجن فى القرآن كثيرة خلاف سورة الجن نفسها.

إن الأمر هنا يبدو أخطر بكثير من مجرد التنبيه على رد تأويل فاسد بآخر سليم ، أو من مجرد تصحيح حديث أو خبر موضوع من السنة بآخر متواتر أو متفق ، عليه فهذا أو ذاك لا يعالج إلا مواضع جزئية من نسق كامل يطمس على عقولنا ، ويلفنا بسواده ويمضى بنا إلى هاوية التخلف والضياع.

إن المواجهة التى تفرض نفسها هنا بوضوح ، تبدأ من التمسك بالفصل بين الدنيا والدين ، بين العمل والعبادة ، بين العقل والإيمان ، وأول خطوة فى هذا السبيل هى تنقية الدستور من المواد التى تهيئ لفقهاء الظلام سندا قانونيا يستمدون منه شرعية فتاواهم وأحكامهم ، ويدسون باسمه أنوفهم فى كل صغيرة وكبيرة من دقائق حياتنا الخاصة ، من ختان الأنثى صغيرة إلى أن يصحبوها وهى امرأة إلى سرير الزوجية ، فيملوا عليها وعلى زوجها ما الذى يجب أن يفعلاه فى حركاتهما وسكناتهما ، حتى لايغافلهما الشيطان ، فيقع على الزوجة وينجب منها ذرية مخنثة ! إن وراء هذا الفقه الظلامى العتيد ، بلا شك خيالا منحرفا شاذا لايعتد إلا بالخرافة ولايقدس إلا الأوهام ، ولايرى

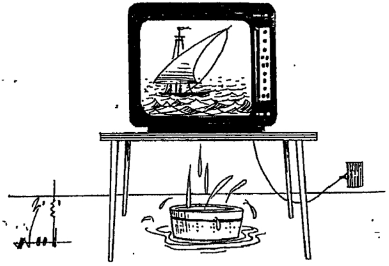
فى العلاقة بين الرجل والمرأة إلا ذلك الجانب الشهوانى الحيوانى ، الذى أغراه - وقد قاس الإنسان على الحيوان - أن يعكس الآية فيقيس الحيوان على الإنسان ، ليطلع علينا من هذا القياس بنظرية مضحكة فى (زنا الحيوان) ، ويعمم هذه النظرية فيرى أن البغل ابن زنا لأنه نتاج لقاء جنسى غير شرعى بين حمار وفرس ! دون أن ينتبه إلى النص القرآنى الذى ورد فيه " والخيل والحمير والبغال لتركبوها ، وزينة ، ويخلق مالا تعلمون "!

وحين يمد هذا الفقه المريض بصره إلى ماوراء هذه الحياة الدنيا أو مابعدها ، لايجد خياله فى الجنة إلا الصورة المنفرة التى يختزلها إلى مجرد لحظة جنسية ممتدة إلى مالا نهاية ، حيث تلتقى فيها (أيور لاتكل بأحراح لاتحفى) ، فى قسمة يكون لكل رجل فيها من الحور والجوارى ، سبعون واحدة فى أقل الروايات تقديرا .

ألا ما أبعد هذا الخيال النهم المكبوت ، عن خيال المصريين القدماء الذين لم يروا فى الجنة إلا مجرد حقل أخضر وارف كحقولهم التى حرثوها وزرعوها فى حياتهم ، يرويها نهر هو نيل ثان لايزيد فى شئ عن نيلهم الذى عاشوا على ضفافه ، وكل واحد منهم لايعاشر فى الجنة غير زوجته الأولى التى أحبها وأحبته أول مرة ، أما هذا الخيال النهم المكبوت ، فانه يمنحنا فى الآخرة ما لانطيق : نساء بلا عدد وشهوة بلا حد ، لأنه باختصار يسلبنا فى الدنيا ما لا نستطيع أن نتخلى عنه بدون أن نتحول إلى حيوانات حريتنا وعقولنا وإنسانيتنا التى كرمنا الله من أجلها.

هذا الخيال النهم المكبوت ، هو الذى يحكمنا الآن ، ولافرق بين العطش إلى الدم عند الإرهابى الذى يحمل السلاح والعطش إلى السلطة عند من يحمى فقهاء الظلام فيظلمهم ليستظل بهم ، والعطش إلى الجنس هو الذى يرمز إلى العطشين معا ، ويفسرهما.

حسن طلب



-بدون تعليق-

معزى الآخرة

قالوا : رويتم أن النبى قال : " استوصوا بالمعزى خيرا ، فانه مال رقيق وهو من الجنة " ، وقالوا : كيف يكون من الجنة ، وهو عندنا يولد ؟ وإن كان فى الجنة معزى ، فينبغى أن يكون فيها بقر وإبل وحمير وخيل.

قال أبو محمد ، ونحن نقول : إنه لم يرد أن هذه المعزى بأعيانها فى الجنة.

وكيف تكون فى الجنة وهى عندنا ؟ وإنما أراد أن فى الجنة معزى ، وقد خلق الله تعالى هذه فى الدنيا لها مثالا ، وكذلك أيضا الضأن والإبل والخيل.

ليسَ منها شئ ، إلا ولها فى الجنة مثال ، إنما تخلو الجنة من الخبائث، كالقرود والخنازير والعقارب والحيات ، وإذا جاز أن يكون فى الجنة لحم جاز أن يكون فيها معزى وضأن ، وإذا جاز أن يكون فيها طير يؤكل ، جاز أن يكون فيها نعم يؤكل ، قال الله تعالى : " ولحم طير ممايشتهون ".

ابن قيبة الدينورى (تأويل مختلف الحديث) ٩/٢١٨

أمة الكلاب

قالوا : رويتم أن رسول الله قال :" لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها ، ولكن اقتلوا منها كل أسود بهيم ". وقال :" الأسود شيطان ".

قالوا: فكأنه إنما قتله لأنه أسود أو لأنه شيطان مع عفوه عن جماعة الكلاب لأنها أمة ، وليس فى كونها أمة علة تمنع من القتل ولاتوجبه.

قالوا : ثم رويتم أنه عليه السلام أمر بقتل الكلاب حتى لم يبق بالمدينة كلب ، فكيف قتلها وهى أمة ؟ أو لا يمنعه ذلك من قتلها ؟ قالوا : وقد صارت العلة التى عفا عنها بها ، هى العلة التى قتلها بها.

ابن قتيبة الدينورى (تأويل مختلف الحديث) ١٣٢

الشعر فاحشة

ومن أقوى مايهيج الفاحشة ، إنشاد أشعار الذين فى قلوبهم مرض من العشقّ ومحبة الفواحش ، ومقدماتها بالأصوات المطربة ، فان المغنى إذا غنى بذلك حرك القلوب المريضة إلى محبة الفواحش ، فعندما يهيج مرضه ، ويقوى بلاؤه ، وإن كان فى عافية من ذلك جعل فيه مرضا ، كما قال بعض السلف : الغناء رقية الزنا ، (ورقية الحية هى ما تستخرج الحية من جحرها ، ورقية العين هى

ماتستخرج به العافية) ورقية الزنا هو مايدعو إلى الزنا ويخرج من الرجل الأمر القبيح والفعل الخبيث ، كما أن الخمر أم الخبائث ، قال ابن مسعود " الغناء ينبت النفاق فى القلب كما ينبت الماء البقل " وقال تعالى لإبليس : " واستفزز من استطعت منهم بصوتك واجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد " واستفزازه إياهم بصوته يكون بالغناء كما قال السلف وبغيره من الأصوات ، كالنياحة وغير ذلك ..

ابن تيمية (تفسير سورة النور) – ٣٩

الرقص والتصفيق

أما الرقص والتصفيق بخفة ورعونة مشابهة لرعونة الإناث ، فلا يفعلها إلا أرعن أو متصنع جاهل ، ويدل على جهالة فاعلها أن الشريعة لم ترد بها فى كتاب ولاسنة ، ولافعل ذلك أحد من الأنبياء ولامعتبر من أتباع الأنبياء ، وإنما يفعله الجهلة السفهاء الذين التبست عليهم الحقائق بالأهواء وقد حرم بعض العلماء التصفيق على الرجال لقوله صلى الله عليه وسلم " إنما التصفيق للنساء"

ابن حجر المكى (كف الرعاع) – ٧٣

معجزة !

من آياته صلى الله عليه وسلم : أن رجلا كان فى غنمه يرعاها فأغفلها ساعة من نهاره ، فخاتله ذئب فأخذ منها شاة ، فأقبل يتلهف ، فطرح الذئب الشاة ثم كلمه بكلام فصيح فقال : ويحك ؛ لم تمنعنى رزقا رزقنيه الله تعالى ؟! فجعل الرجل يصفق بيديه ويقول : تالله مارأيت كاليوم ذئبا يتكلم ! فقال الذئب : أنتم عجب وفى شأنكم عبرة ، هذا محمد يدعو إلى الحق ببطن مكة وأنتم لاهون عنه ، فهدى الرجل لرشده ، وأقبل حتى أسلم ، وحدث القوم بقصته ، وبقى لعقبه شرف يفخرون به على العرب ويقول مفتخرهم : أنا ابن مكلم الذئب.

الماوردى (إعلام النبوة) – ٩٤

غش

من ابتاع أمة على أنها بكر ، فزعم أنه لم يجدها بكرا ، نظر النساء إليها ، فان قلن : افتضاضها لمثل ماقبضها المشترى ، فهى منه وليس يخفى أثرها ، وإن قلن : هو شئ قديم قبل التبايع ، ردها ، ولايمين فى ذلك ، إنما يقطع فى هذا النساء ، وفى سماع أشهب وابن نافع عن مالك : إن قلن هو قديم ، حلف المبتاع وردها وإن قلن : نرى أثرا طريا ، حلف البائع ماكان عنده

ولزمت المشترى .

أبو الأصبغ بن سهل الأندلس (الأحكام الكبرى) - ٨/٧٧

حاجة الرجل

ينبغي للمرأة العاقلة أن تتلمح مقصود الرجل فتتبعه ، ومتى كان الرجل من أهل الصيانة والتدين وشرف النفس ، أحب سكوت المرأة عن الجماع ، واستعمالها الوقار .. ومن الرجال من يحب كلام المرأة حينئذ، ويميل إلي تهالكها عند الجماع ، ويقول هؤلاء : إذا باشرنا امرأة ساكنة فكأننا نطأ خشبة مبخورة ، قالوا : وإنما يطيب الأكل مع المنادمين المتكلمين، ويجيب الأولون عن هذا فيقولون : إنما يقضى الرجل بالوطء حاجة نفسه ، فاذا تهالكت المرأة عليه كان كأنما يقضى حاجتها.

ابن الجوزي (أحكام النساء) ٣٥٠

النساء حيات

عن عطاء الخراساني يرفع الحديث ، قال :" ليس للنساء سلام ولاعليهن سلام " قال الزبيدى : أخذ على النساء ما أخذ على الحيات ، أن يتحجرن فى بيوتهن ، وقد روينا عن أحمد بن حنبل أنه كان عنده رجل من العباد ، فعطشت امرأة أحمد ، فقال لها العابد : يرحمك الله ، فقال أحمد : عابد جاهل.

ابن الجوزي (أحكام النساء) - ٢٠٨

أكل الفجل ونهيق الحمير

وأما الصلاة عليه (الرسول) عند أكل الفجل ، فعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" إذا أكلتم الفجل وأردتم ألا يوجد لها ريح ، فاذكرونى عند أول قضمة ، أخرجه الديلمى فى مسنده ، والأشبه مارواه مجاشع بن عمرو بن أبى بكر بن حفص عن سعيد بن المسيب قال : من أكل الفجل فسره ألا يوجد منه ريحه ، فليذكر النبى صلى الله عليه وسلم عند أول قضمة . وأما الصلاة عليه عند نهيق الحمير ، فروى الطبراني من حديث أبى رافع : لاينهق حمار حتي يرى شيطانا أو يتمثل له شيطان ، فاذا كان ذلك فاذكروا الله وصلوا عليَّ [السخاوي (القول البديع) - ٢٢٨

الذباب داء ودواء

روى أبو هريرة " إذا وقع الذباب فى إناء أحدكم فامقلوه فان فى أحد جناحيه داء وفى الآخر شفاء " ، وفى رواية أبى سعيد الخدرى (فانه يقدم السقم ويؤخر الشفاء) وفى هذين الحديثين

أمران : فقهى وطبى ، أما الفقهى فهو أن الذباب إذا وقع فى ماء أو مائع فمات ، لاينجس ، وهذا قول جمهور العلماء ، وأما الأمر الطبى فهو دفع ضرر الأشياء بأضدادها.

الفيروز آبادى (سفر السعادة)- ١٢٨

فن الحجامة

كان صلى الله عليه وسلم يقول : " الشفاء فى ثلاثة ، فى شرطة محجم أو شربة عسل أو كية بنار ، وأنا أنهى أمتى عن الكى " ، قال العلماء : هذا الحديث إشارة إلى معالجة جمع الأمراض المادية ، لأن المرض إما دموى أو صفراوى أو بلغمى أو سوداوى ، فان كان دمويا فعلاجه باخراج الدم ، وإن كان الأقسام الثلاثة فعلاجها الإسهال ، نبه بالعسل على ذلك ، وبالمحجم على القصد والحجامة ، ونبه بالكى على حالة يعجز فيها الطبيب ويعيا ، وآخر الدواء الكى ، ولما حجمه صلى الله عليه وسلم أبو طيبة ، أمر له بصاعين وقال ، لسادته : خففوا عنه شيئا من خراجه ففعلوا، وكان قول : " خير ماتداويتم به الحجامة " .

الفيروز أبادى (سفر السعادة) - ١٢٢

فضل المحدثين

أخرج عبد الرحمن بن مهدى قال : من طلب العربية فآخره مؤدب ، ومن طلب الشعر فآخره شاعر يهجو أو يمدح بالباطل ومن طلب الكلام فآخر أمره الزندقة ، ومن طلب الحديث فان قام به كان إماماً ، وإن فرط فيه ثم أناب يوما ، يرجع إليه وقد عتبت وجادت .

السيوطى (صون المنطق والكلام) - ٦١

تحريم الموسيقى

الأوتار والمعازف كالطنبور والعود والصبخ أى ذى الأوتار ، والرباب والجنك والكمنجة والسنطير والدريج ، وغير ذلك من الآلات المشهورة عند أهل اللهو والسفاهة والفسوق ، هذه كلها محرمة بلا خلاف ، ومن حكى فيها خلافا فقد غلط أو غلب عليه هواه حتى أصمه وأعماه ومنعه هداه ، وزل به عن سنن تقواه .

ابن حجر المكى (كف الرعاع) - ١٢٤

لعنة الشطرنج

أخرج الديلمى أنه صلى الله عليه وسلم قال : ملعون من لعب بالشطرنج .. وأخرج الحليمى

حديثا طويلا فيه : " ومن لعب بالشطرنج والنرد والجوز والكعاب مقته الله ، ومن جلس إلى من يلعب الشطرنج والنرد ينظر إليهم ، محيت عنه حسناته كلها، وصار ممن يمقته الله ".

ابن حجر المكى (كف الرعاع) – ١٥٦

خمس كلمات !

" ونهى (الرسول) أن تتكلم المرأة مع غير زوجها أو ذى رحم غير محرم إلا خمس كلمات فيما لابد منه " – وهذا سببه ماتقدم ، لأن الكلام نغمة ، وفى النغمة فتنة وشهوة ، فاذا كلمت غير زوجها فقد أذاقته بعض شهواتها ، فقد خانت زوجها ، ألا ترى أنه استثنى المحرم لأنها لاتحل له ، وقرب رحمها منه يحول دون أن يجد طعما للذاتها ، ثم أطلق لها فى كلمات محظورات ذات عدد لابد منها للضرورة ..

قال أبو عبد الله ، رحمه الله : وكان عندنا رجل أعمى ، افتن بجارة له حتى ابتلى بلاء عظيماً وخرب منزله ، فسألت عن سبب ذلك فقيل : كان بينهما كوة ، فكانت تجئ تلك المرأة ، فتحدث امرأة الأعمى ، ويستمع الأعمى إلى حديثها ، فافتتن بها لحلاوة نغمتها وعذوبة ألفاظها .. فيما ذكر لى .

والنغمة شأنها عظيم ، ومن هنا قال :" من نابه شئ فى صلاته ، فلتسبح الرجال ، ولتصفق النساء" لحال النغمة ، فان فيها افتتانا للمصلين إذا سمعوا نغمة المرأة بالتسبيح ، والمرأة جند من جنود إبليس عظيم ، ولذلك قال إبليس حين خلقت المرأة : أنت نصف جندى ، وأنت موضع سرى ، وأنت سهمى المسموم الذى أرمى بك فلا أخطئ ، وإنما صارت مسمومة لأنها خلقت من الضلع الذى يجاور موضع الشهوة من أدم عليه السلام ، فهى من قرنها إلى قدمها شهوة ، حتى شعرها وظفرها ، فلذلك أمرت أن تستر كل شئ منها إلا ماظهر مما لايمتنع وهو : الوجه والكفان ، فبالوجه تنظر ، وبالرجل تمشى وباليد تتناول.

(الحكيم الترمذى – المنهيات ١٢٨ –٩)

عدو الله

وأما قوله : " ونهى أن يقال للذمى : ياأبا فلان " ، فذاك من أجل أن الكنية كرامة وإجلال ، فلا يحيا بها الذمى ولا يوجب له ذلك ، ولايستحق الإجلال لأنه عدو الله .

المنهيات – الحكيم الترمذى(٢٠٤)

زنا البهائم

وأما قوله :" ونهى أن تنزى الحمير على الخيل " فلأنه احتال فى خلق الله ، ومنه تكون البغال ،

وفى حديث آخر قالوا : يارسول الله إنا ننزى الحمير على الخيل - قال :" إنما يفعل ذلك الذين لايعلمون " وهو فعل الملوك الجبابرة، وهذا زنا البهائم ، حدثنا بذلك عمر بن أبى عمر بن حفص بن عمر ، عن إبراهيم بن الحكم ، عن أبان ، عن أبيه ، عن عكرمة ، عن ابن عباس رضى الله عنه ، فى قوله تعالى :" لولا أن رأى برهان ربه " ، قال : جاء جبريل عليه السلام فقال : يايوسف ، أما علمت أن الطير إذا زنا تساقط ريشه ، وأن الثور إذا زنا وقع الدود فى قرنه ، وزنا الطير أن تنزو حماقة على الدجاجة ، وزنا الثور أن ينزو على حمار أو جنس غير جنسه .

الحكيم الترمذى (المنهيات) - ٢٥٠

هيبة الزوج

ولاينبغى للرجل أن يمزح مع المرأة فتطمع فيه طمعا يخرجها عن طاعته ، ولا أن يسلم ماله إليها فيصير هو كالرهن فى يدها ، فربما استغنت واستوثقت لنفسها ثم تركته ، وقد قال الله تعالى :" "ولاتؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما " ، بل ينبغى أن يمزح بنوع من الهيبة.

وأكثر العلاج فى إصلاح المرأة منعها من محادثة جنسها ، ومن خروجها من بيتها ، واطلاعها من ذروته ، وأن تكون عنده عجوز تؤدبها وتلقنها تعظيم الزوج ، وتعرفها حقوقه ".

ابن الجوزى :(الطب الروحانى) - ٦٢

لقمة من جمر جهنم

عن عائشة رضى الله عنها قالت : أيما امرأة اعتزلت فراش زوجها بغير إذن زوجها فهى فى سخط الله حتى يستغفر لها ، وإيما امرأة استشارت غير زوجها لقمت من جمر جهنم ، وإيما امرأة رضى عنها زوجها رضى الله عليها ، إلا أن يأمرها بما لايحل لها .

السيوطى (مسند عائشة) ١٧١ .

زواج الأطفال

وبنت تسع إذنها معتبرة إن لم تكن مع الولى مجبرة.

أى إذن بنت تسع سنين صحيح معتبر نصا لقول عائشة : إذا بلغت الجارية تسع سنين فهى امرأة ، رواه أحمد وروى عن ابن عمر مرفوعا ، ومعناه : فى حكم المرأة ، ولقوله عليه السلام :" تستأمر اليتيمة فى نفسها فان سكتت فهو إذنها ، وإن أبت فلا جواز عليها ، رواه أبو داود ، وقد انتفى الإذن فيمن لم تبلغ تسع سنين ، فيجب حمله على من بلغتها.

ثم إن كان الوالى مجبرا كأبى البكر ، فاستئذانها سنة وليس بشرط كالكبيرة ، وإن لم يكن مجبرا كجد اليتيمة وعمها وأخيها ، فلا باذنها كالبالغة وأما اليتيمة دون التسع فلا تزوج بحال لأن

الولى ليس مجبراً ، ولا إذن لها حتى تبلغ تسعاً فأكثر .

ابن يونس البهوتى (المنح الشافيات) ج ٢ - ٥٠١

حوريات الجنة

وروى عن النبى أنه قال إن الله تعالى خلق وجوه الحور العين من أربعة ألوان : أبيض وأخضر وأصفر وأحمر ، وخلق أبدانها من الزعفران والمسك والكافور ، وشعرها من القرنفل ، ومن أصابع رجليها إلى ركبتيها من الزعفران المطيب ، ومن ركبتيها إلى ثدييها من العنبر ، ومن عنقها إلى رأسها من الكافور ، ولو بزقت (بصقت) واحدة منهن فى الدنيا لصارت مسكا ، ومكتوب على صدرها اسم زوجها ، واسم من أسماء الله تعالى ، وفى يد كل منهن أسورة ، وفى أصابعها عشرة خواتم من الجواهر واللؤلؤ.

الخوبوى (درة الناصحين) - ٢٢١

شعرة واحدة

وفى الخبر : إذا كان يوم القيامة ، يوقف العبد بين يدى الله تعالى فيؤتى كتابه ، ويجد فيه سيئات كثيرة ، فيقول : إلهى ، مافعلت هذه السيئات ، فيقول الله تعالى : إن لى شهوداً ثقات، فيلتفت إلى يمينه وشماله ولم ير أحداً من الشهود ، فيقول : يارب أين الشاهد، فيأمر الله جوارحه بأن تشهد عليه فتشهد ، فتقول الأذنان : إنا قد سمعنا والعينان. إنا قد نظرنا ، واللسان : أنا قلت وكذا الرجلان واليدان : إنا فعلنا ، والفرج أنا أنيت ، فيبقى العبد متحيرا ، فيأمر الله تعالى به إلى النار ، فتظهر من عينه اليمنى شعرة واحدة تستأذن من الله تعالى أن تتكلم فيأذن الله تعالى لها فتقول : يارب ألست قلت أى عبد أغرق شعرة واحدة من أجفانه بدموع عينيه من خشيتى إلا أنجيته من النار ؟ فيقول الله تعالى : بلى ، فتقول : أنا أشهد أن هذا العبد المذنب قد أغرقنى بالدموع من خشيتك ، فيأمر الله تعالى به إلى الجنة ، فينادى المنادى : ألا إن فلانا ابن فلان قد نجا من النار بشعرة واحدة من جفون عينيه !

الخوبوى - (درة الناصحين) - ٢٧٣

دموع ادم

يقال إن ادم عليه السلام بكى حين هبط من الجنة ثلاثمائة عام ومارفع رأسه إلى السماء حياء من الله تعالى ، وسجد سجدة على جبل الهند مائة عام يبكى جتى جرت دموع عينيه فى واد سرنديب ، فأبنت الله تعالى فى ذلك الوادى من دموع عينيه : الدار صينى والقرنفل ، وشربت الطيور من دموع عين آدم ، فقالو : لم نشرب شراباً أعذب من هذا ، نظن آدم أنهم يسخرون منه لعصيانه

فأوحى الله تعالى إليه : ياآدم إنى لم أخلق شراباً ألذ وأعذب من ماء عيون العصاة.

الخوبوى (درة الناصحين) ٢٧٤

شرط الكفاءة

كفاءة النكاح فيه تشترط وخالف الشيخان فى الشرط فقط لكن لمن لم يرض فسخ العقد حتى أخ على أبيع يعدى

يعنى اختلفت الرواية عن أحمد فى اشتراط الكفاءة لصحة النكاح ، فروى عنه أنها شرط ، فانه قال : إذا تزوج المولى العربية فرق بينهما ، وهذا قول سفيان ، وقال أحمد فى الرجل يشرب الشراب : ماهو بكفء لها يفرق بينهما ، وقال لو كان المتزوج حائكاً فرقت بينهما لقول عمر :(لأمنعن فروج ذوات الأحساب إلا من الأكفاء "، رواه الخلال ، وهذا اختيار الخرقى ، فلو رضيت المرأة والأولياء بغير كفء ، لم يصح النكاح لأنها حق الله ، وإن عدمت الكفاءة بعد العقد لم يبطل النكاح.

والرواية الثانية : ليست شرطا فى النكاح واختارها الشيخان ، قال فى الشرح : وهى أصح ، وهذا قول أكثر أهل العلم ، وروى عن عمر وابن مسعود لقوله تعالى :" إن أكرمكم عند الله أتقاكم " ، وقالت عائشة : إن أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة تبنى سالما وأنكحه ابنة أخيه هند ابنة الوليد بن عتبة وهو مولى لامرأة من الأنصار " أخرجه البخارى ، وأمر النبى فاطمة بنت قيس أن تنكح أسامة بن زيد مولاه، فنكحها بأمره . متفق عليه . لكن لمن لم يرض من المرأة ، والأولياء كلهم، الفسخ ، لأن للزوجة ، ولكل واحد من الأولياء فيها حقا ، حتى لو زوج الأب بغير كفء ، فللأخ الفسخ ، نص عليه لأنه ولى فى حال ، يلحقه العار بفقد الكفاءة فملك الفسخ كالمتساويين .

السابق ٥٠٤ – ٥

سبعون فى سبعين

فى الخبر أن وراء الصراط صحارى فيها أشجار طيبة ، تحت كل شجرة عينان من ماء ينفجر من الجنة ، إحداهما عن اليمين والأخرى عن اليسار ، والمؤمنون حين يجاوزون الصراط يشربون من إحدى العينين فيزول عنهم الغل والخيانة والقذر والدم والبول ، فيطهر ظاهرهم وباطنهم ، ثم يجيئون إلى حوض آخر فيغتسلون فيه ، فتصير وجوههم كالقمر ليلة البدر وتلين نفوسهم كالحرير ، وتطيب أجسادهم كالمسك ، فينتهون إلى باب الجنة ، فتخرج الحور ، فتعانق كل واحدة ، زوجها وتدخل بيته وفى البيت سبعون سريراً وعلى كل سرير سبعون فراشاً ، وعلى كل فراش زوجة عليها سبعون حلة يرى مخ ساقها من لطافة الحلل.

(الخوبوى (درة الناصحين) –٢٢٠

إمام فاجر

وأما قوله : " صلوا خلف كل بر وفاجر ، ولابد من إمام بر أو فاجر " ، فانه يريد السلطان الذى يجمع الناس ويؤمهم فى الجمع والأعياد ، يريد : لا تخرجوا عليه ، ولاتشقوا العصا ، ولاتفارقوا جماعة المسلمين وإن كان سلطانكم فاجرا ، فانه لابد من إمام بر أو فاجر ، ولايصلح الناس إلا على ذلك ، ولاينتظم أمرهم .

ابن قتيبة الدينورى (تأويل مختلف الحديث) -١٤٧-٨

هاروت وماروت

وهما ملكان أهبطا إلى الأرض حين عمل بنو آدم بالمعاصى ، وأمرا ألا يزنيا ولايقتلا ولايشربا الخمر ، فجاءتهما (الزهرة) تخاصم إليهما ، فأعجبتهما ، فأراداها، فأبت عليهما حتى يعلماها الاسم الذى يصعدان به إلى السماء فعلماها ، ثم أراداها فأبت حتى يشربا الخمر فشرباها .

وقضيا حاجتهما ، ثم خرجا فرأيا رجلا فظنا أنه قد ظهر عليهما فقتلاه ، وتكلمت الزهرة بذلك الاسم فصعدت ، فخنست ، وجعلها الله شهابا ، وغضب الله تعالى على الملكين ، فسماهما هاروت وماروت ، وخيرهما بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، فاختارا عذاب الدنيا.

فهما يعلمان الناس مايفرقون به بين المرء وزوجه . والذى أنزل الله عز وجل على الملكين فيما يرى أهل النظر والله أعلم - هو الإسم الأعظم الذى صعدت به زهرة - وكانا به قبلها وقبل السخط عليهما يصعدان إلى السماء ، فعلمته الشياطين ، فهى تعلمه أولياءها ، وتعلمهم السحر ، وقد يقال إن الساحر يتكلم بكلام فيطير بين السماء والأرض ويطفو على الماء.

ابن قتيبة الدينورى (تأويل مختلف الحديث) -١٦٩

تكفير التفكير

وأما كتب الفلسفة فالباطل غالب عليها ، بل الكفر الصريح كثير فيها ، وكتاب (الإحياء) له حكم نظائره ، ففيه أحاديث كثيرة صحيحة وأحاديث كثيرة ضعيفة أو موضوعة ، فان مادة مصنفه فى الحديث والآثار وكلام السلف وتفسيرهم للقرآن ، مادة ضعيفة.

ابن تيمية (شرح العقيدة الأصفهانية) - ١٤٦

الزراعة الكفرة

وقال بعضهم : المزارعة مذمومة ، لما روى أن النبى رأى شيئاً من آلات الحراثة فى دار قوم فقال : " مادخل هذا بيت قوم إلا ذلوا" وسئل عن قوله عز وجل :" إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على

أعقابكم " أهو التعرب ؟ قال :" لا ، ولكنه الزراعة "

الإمام الشيباني (الكسب) -٦٣

تطرف في التشبيه

وسأل بعضهم معاذاً العنبري : أله وجه ؟ (يعني الله سبحانه) ، قال : نعم ، قلت : فعين ؟ قال : نعم ، حتى عددت جميع الأعضاء من أنف وأذن وصدر وبطن ، وهو يقول: نعم ، فاستحييت أن أذكر الفرج ، فأومبت بيدي إلى فرجي ، فقال : نعم ! ، فقلت : ذكر أم أنثى ؟ قال : ذكر ، ففرح القوم غير هؤلاء المعتزلة ، فانهم لعنوه وكفروه.

ابن كرامة البيهقي (رسالة إبليس) - ٤/٣٣.

اجتهدوا .. وتعصبوا

هؤلاء ، أهل الذمة في البلاد الإسلامية ، تتركونهم هملا تستخدمونهم ، وتستبطنونهم ، ولانرى منكم فقيها يجلس مع ذمي ساعة واحدة ، يبحث معه في أصول الدين ، لعل الله تعالى يهديه على يديه ، وكان من فروض الكفايات ومهمات الدين أن تصرفوا بعض هممكم إلى هذا النوع ، فمن القبائح أن بلادنا ملأى من علماء الإسلام ، ولانرى فيها ذميا دعاه إلى الإسلام مناظرة عالم من علمائنا ، بل إنما يسلم من يسلم إما لأمر من الله تعالى لامدخل لأحد فيه ، أو لغرض دنيوى ، ثم ليت من يسلم من هؤلاء يرى فقيها يمسكه ، ويحدثه ، ويعرفه دين الإسلام ، لينشرح صدره لما دخل فيه ، بل - والله - يتركونه هملا لا يدرى ماباطنه : هل هو كما يظهر من الإسلام ، أو كما كان عليه من الكفر ؟ لأنهم لم يروه من الآيات والبراهين مايشرح صدره فيا أيها العلماء ، في مثل هذا فاجتهدوا ، وتعصبوا .

الإمام السبكي (معيد النعم ومبيد النقم)

حتى الخراء

وقد ثبت في صحيح البخاري وغيره من حديث أبي هريرة ، نهيه صلى الله عليه وسلم عن الاستنجاء بالعظم والروث في أحاديث متعددة ، وفي صحيح مسلم وغيره عن سلمان قال : " قيل له قد علمكم نبيكم كل شئ حتى الخرأة ، قال : فقال : أجل لقد نهانا أن نستقبل القبلة بغائط أو بول ، وأن نستنجي باليمين بأقل من ثلاثة أحجار ، وأن نستنجي برجيع أو عظم " ، وفي صحيح مسلم وغيره أيضاً عن جابر قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نتمسح بعظمة أو ببعر.

ابن تيمية (البيان المبين) - ٩١/٦٠

مختارات من شعر

رسول حمزاتوف

إعداد وتقديم: طلعت الشايب

كل الأغانى إنتهت إلا أغانى الناس

«يخرج المسافر فى سفر، فماذا يحمل معه؟ خمرا يحمل ..خبزا يحمل! لكن يا ضيفى العزيز لن نتأخر فى إكرامك ولن تحتاج إلى ما تحمل ،الجبلية ستخبز لك خبزا والجبلى سيقدم لك خمرا.

يخرج المسافر فى سفر فماذا يحمل معه ؟ خنجرا مشحوذا يحمل! لكن يا ضيفى العزيز ، فى الجبال ستقدم لك فروض الإكرام ، وإذا كان العدو لا يغفل عنك ،فالجبلى عنده أيضا خنجر وهو سيحميك.

يخرج المسافر فى سفر فماذا يحمل معه ؟ أغنية يحمل!.

لكن يا ضيفى العزيز ، الأغانى المدهشة لا حصر لها عندنا فى الجبال .. لكن لا بأس ، أحمل معك أغنيتك ، فحملها ليس بالثقيل!(١).

.. وهكذا يحمل الشاعر رسول حمزاتوف (٧٢ سنة) أغنيته معه أينما ذهب، ويوصى كل إنسان بأن يحمل معه أغنيته (حملها ليس ثقيلا) أينما ذهب.. أما الأغنية فهى الوطن الذى يغسل ندى صباحه البارد أقدام المتعبين ، وتغسل مياه أنهاره وسواقيه وجوه أبنائه ،الأغنية هى الإنسان ينشدها شاعر يشعر بمسئوليته ليس عن بلده فقط وإنما عن كل شبر من الأرض يعيش عليه إنسان فى هذا الكوكب ،فالشعر كامن فى كل قلوب الناس « **نعم ! نحن جميعا شعراء ، بعضنا ينظم الشعر لأنه يعرف كيف ينظمه ، وبعضنا ينظمه لأنه يظن أنه يستطيع ، وبعضنا لا ينظم الشعر على الإطلاق.. ومن يدرى ؟ فلعل هذه الزمرة الأخيرة أن يكونوا فعلا هم الشعراء حقا!».**

تعرفت على عالم ذلك الشاعر المدهش من خلال كتابه الجميل «داغستان بلدى» الذى نقله إلى العربية **عبد المعين ملوحى ويوسف حلاق عام ١٩٧٩** ، وهو كتاب عجيب عن حب الوطن والحياة والإنسان والأرض والسماء واللغة والموسيقى وأغانى الناس وحكمة الموروث الشعبى وذكريات الطفولة ووصايا الآباء والأمهات ..كل ذلك من خلال نافذة مشرعة على محيط عظيم .. نافذة أسمها داغستا!.

استجاب رسول حمزاتوف لطلب بأن يكتب عن بلده ، أدخل الخيط فى ثقب الإبرة ، فأى قفطان سيخيط ؟ سوى أوتاره فأى أغنية سيغنى ؟ إنه لا يريد أن يكون مثل أولئك الصيادين الذين اشتروا أيلا من السوق وقالوا فى البيت إنهم اصطادوه ، لذلك كتب نفسه فكتب وطنه ،وكتب شعبه فكتب الحياة ، لم يسرج أفكار الآخرين وكأنه ينفذ وصايا والده الشاعر ومعلمه الأول بأن يكون إضافة «أجرؤ على تشبيه الأدب بالطنبور والكتاب بالأوتار المشدودة عليه ، لكل وتر منها صوته .. رنينه ..لكنها كلها تؤلف اللحن .. لو أنى أستطع أن أصنع وتراً متميز الرنين ! لو أنى أصبح وترا آخر على آلتنا الأفارية القديمة!!».

وكما الصائغ الماهر ،وجد رسول حمزاتوف أمامه كل ما يريد:

الذهب والفضة والأدوات والمطارق والمناقر الصغيرة والدمغات والرسوم . وجد أمامه وخلفه وبداخله لغته الأم وتجربته الحياتية وصور الناس وألحان الأغانى وحس التاريخ وطبيعة بلاده الجبلية وذكرى والده وشعراء وطنه وماضى شعبه ومستقبله .. سبائك ذهب بين يديه ولكن «كيف لى أن أفعل حتى أصنع أغنيتى

على راحتكم عصفورا حيا نابضا!».

وجاءت أغنية حمزاتوف عصفورا حيا نابضا ، ملأت القلوب كما الحب، لأنه قبل أن يطلق كلماتها فى العالم الفسيح رأت عيناه وسمعت أذناه وخفق قلبه .وهل يمكن أن تنطلق فى العالم كلمة لم تكن قد عاشت فى القلب؟!.

يرصع حمزاتوف كتابه بأشعار له والشعراء بلاده وبمقتطفات من دفتر مذكراته ووصايا والده ومئات الحكايات الصغيرة الدالة التى تجرى على ألسنة سكان الجبال . يكتب عن اللغة فيفتح لنا دفتر مذكراته : «اللغة للكاتب مثل غلة الحقل بالنسبة للفلاح ، حبوب كثيرة فى كل سنبلة ، السنابل كثيرة لا عد لها ، لكن لو بقى الفلاح ينظر إلى حقله دون أن يفعل شيئا لما حصل على حبة حنطة واحدة ، يجب أن يحصد القمح ثم يدرس ، لكن هذا ليس إلا نصف العملية ، يجب أن يذرى الدريس لفصل الحبوب النظيفة عن الخسيسة والحشائش ، ثم يجب أن يطحن ويعجن ويخبز .. ولكن أهم ما فى الأمر كله هو أن تتذكر أنه مهما بلغت حاجتك إلى الخبز ، فلا يجوز أن تستنفد كل الحبوب ، أفضل الحبوب يبقيها الفلاح للبذار ، والكاتب الذى يتعامل مع اللغة أشبه ما يكون بالفلاح!».

ولد رسول فى بيت شاعر فى بلاد تتنفس شعراء ، والده هو حمزة تساداسا (توفى عام ١٩٥١) ، كان يكتب بالعربية والروسية واللاتينية ، كتب شعرا للصغار والكبار كما كتب المسرحية والحكاية وجرت أبيات كثيرة من شعره مجرى الأمثال فى قريتهم «تسادا» الرابضة فوق رؤوس الجبال ، نقل الأدب إلى ابنه حكمة الشعب والزمن ،كان يقول له: من لم يسمع أغنية الأم كمن نشأ يتيماً ،ومن نشأ دون أب أو أم لا يحسب يتيما إذا رددوا فوق مهده الأغانى الداغستانية ،كان يقول له «إن الوالد حين يموت يورث أبناءه بيتا.. حقلا.. سيفا.. مزمارا ،و لكن الجيل حين يذهب ، يورث غيره من الأجيال التالية اللغة»، و أن من عنده لغة بوسعه أن يبنى بيتا ويحرث حقلا ويصنع سيفا أو مزمارا يعزف عليه ، منذ صغره ، نما فى قلبه حب الموسيقى والشعر والغناء ، كل ما حوله يغنى ،الجبال الشاهقة والجداول وسكان الجبال .والأمهات –أول الشعراء– اللاتى يرمين بذور الشعر فى نفوس الأبناء والبنات فتنمو منها الأزهار وتتفتح فيما بعد، وفى أحلك الظروف يتذكرون وهم كبار ، كل ما سمعوه من أغنيات وهم صغار، وها هو رسول حمزاتوف بعد أن وهن العظم منه واشتعل رأسه شيبا يظل على نفس العهد .. ينخل الأحداث وشئون الناس والحياة كلها فيحصل على أغنيته.

ويتذكر رسول ما حدث له ذات يوم وكان فى عامه الدراسى الثانى ، كان قد ذهب إلى قرية قريبة ليستمع إلى شيخ عجوز يشدو بأغنيات فاتنة ،وفى طريق عودته هاجمته كلاب الرعاة ولم ينقذه منها سوى راع طيب كان يعرف والده ، سأله الراعى عن سبب وجوده فى الجبال فقال إنه ذهب إلى« بصرى» ليبحث عن قصائد وأشار إلى كيسه قائلا: إنها هنا : «سحب الراعى القصائد ، وراح يتفحصها ثم قال له : أتريد أن تكون شاعراً»؟ إذن فلماذا تخاف من الكلاب؟ ستلقى فى طريقك فى المستقبل كلابا أشد سعارا ، وهؤلاء لن يتركوك إذا شموا رائحة القصائد كما تركتك كلابي هذه ، ولكن لا تخف لا تخف شيئا على الإطلاق(...) إن الجبال فى بلدك تهب إلى نجدتك».

ومنذ اليوم ، يجد رسول حمزاتوف نجدته وحماه في الجبل ،وفي الجبلي الذي يقسم بأنه ولد إنسانا ويموت إنسانا ، في الوطن الجميل الذي يسمي أشجع الشجعان نسور الجبال ،وفي الشعر الذي يتغنى بكل ذلك فيكتب له ولصاحبه الخلود.

ويعود إلى نبع الذكريات الذي لا ينضب «قالوا عندما مات الشاعر الكبير محمود ، أخذ والده – وقد سحقته المصيبة – الحقيبة التي تضم مخطوطاته وألقى بها إلى النار: –احترقي أيتها الأوراق اللعينة التي كانت السبب في موت ولدي قبل أوان موته ، واحترقت الأوراق ولكن قصائد محمود بقيت على قيد الحياة ، لم تنس من أغنياته كلمة واحدة ، لا تزال أغانيه تعيش في قلوب الناس، لاسلطان للنار ولا للماء عليها».

رسول حمزاتوف الذي تخرج في عام ١٩٥٠ في معهد جوركي للآداب في موسكو ،وعمل في صدر شبابه بالتعليم ، ظهر أول كتيب له بالأفارية قبل أن يبلغ العشرين ،وكان نائبا في مجلس السوفيت الأعلى في الاتحاد السابق ورئيسا لاتحاد كتاب داغستان ،وفي عام ١٩٥٨ منح لقب شاعر الشعب ،وهو حاصل على جائزة لينين ،وجائزة لوتس الأفرو آسيوية– ١٩٨٧– وعلى جائزة نهرو في الهند ١٩٨٩– ويتردد اسمه في كل عام كمرشح على قائمة نوبل ،ومع ذلك يبقى حب الناس له ولأعماله –عنده– أسمى من كل الجوائز، لكن الصعب هو كتابة كتاب جيد، وأعلى وسام يناله الكاتب هو أن يقول له قارئ حقيقي: أحسنت ! لقد كتبت كتابا جيداً».

منذ مجموعته الأولى« الحب الحار والكراهية الحارقة» ١٩٤٣ –أصدر رسول حمزاتوف أكثر من ثلاثين كتابا نذكر منها« حوار مع أبي» ١٩٥٣ و«البنت الجبلية» ١٩٥٨ و«النجوم العالية» ١٩٦٢– و«كتاب الحب» ١٩٧٤ و«كلمات الشاعر» ١٩٧٩ و«جزيرة النساء» ١٩٨١ و«العصر والعالم» –١٩٩٠ و«المهد والوجاق»١٩٩٤.

ولابد أن يتساءل القارئ عن موقف رسول حمزاتوف اليوم من كل ما حدث ويحدث من حوله منذ انهيار وتشقق الاتحاد السوفيتي وهو الذي كان شاهدا ومشاركا .للإجابة عن هذا السؤال لابد من العودة قليلا إلى الوراء منذ خمس سنوات أجرت مجلة« اليوم السابع» حوارا معه(٢) تحدث فيه عن أن «البرويسترويكا» «باتت تعني للكثيرين مهنة وليس طابع حياة» ودافع عن صمته طوال السنوات الخمس– الأخيرة آنذاك –قائلا إن ذلك لم يكن عملا بحكمة القدماء الذين نصحوا الشاعر بالوقوف على الشاطئ وليس في البحر ،لحظة العاصفة ، ولكنه عمل بنصيحة أصدقائه الذين قالوا له بأنه أمر عابر وأن من الأفضل له أن يكتب شعرا ،كان يقلق روحه سؤال مهم: هل سنقع في محيط الشر والاغتراب ،وكان يقلقه واقع اجتماعي جديد حل فيه «كثير من المنتقمين الشعبيين محل العملاء السريين والمتخفين» . قال حمزاتوف «إن السياسة تعكر على الشعر.. لدي ولدى الآخرين ،والسيطرة الغربية على منحى الثقافة البرويسترويكية مصدرها عقدة الغرب ،نحن نعيش أزمة خضوع لكل ما ينتجه الغرب لعجزنا عن إنتاج ثقافة حقيقية ، أنا أفهم جيدا أن إعادة الاعتبار للعديد من الأسماء والظواهر والأعمال الأدبية التي كانت ممنوعة وعاش أصحابها في الغرب قد أعطت البرويسترويكا طابع التعددية والديمقراطية ،ولكن لا أفهم مسألة أن يكون الغرب مقياسا ثقافيا يملي علينا شروط علم الجمال وعلم الأخلاق.

أما ديوانه الأخير« المهد والوجاق» ،الذى تتغنى قصائده أيضا بطبيعة داغستان الساحرة وجمال نسائها ،فقد صدره بمقدمة فرضتها المتغيرات السياسية المتسارعة ،لم يستطع حمزاتوف السكوت إزاء الحرب الشيشانية الدائرة فى شمال القوقاز« ذلك الجرح النازف فى قلب الجميع» فى مناطق متعددة الأديان والقوميات وذات تاريخ معقد وظروف اقتصادية أكثر تعقيداً لا يمكن أن تكون الحرب هى الحل لأى مشكلة . قال حمزاتوف إن« الساسة يعوزهم الحس المرهف ويفتقرون إلى الخيال.. أرادوا أن يقطعوا قرون الثور فالتهموه» ،وتحدث عن ديوانه الجديد الذى كتب فيه عن «البلاد التى فقدناها وعن الأرض التى نعيش عليها وعن محبوبتى الوحيدة التى تفهمنا» وأشار إلى أن القارئ سيجد فيه أناشيد وتنويمات للكبار.. وللينابيع الجافة.. وللأمهات والآباء .وللرقابة أيضا.

يقول حمزاتوف الذى يرأس الآن مؤسسة خيرية للعمل الاجتماعى والثقافى تصدر الكتب وتوزع الإعانات وتقيم المعارض وتدير ملجأ للأيتام فى شمال القوقاز وتساعد متضررى الكوارث والحروب : «عندما يسألنى البعض ما هو الحزب الذى تنتمى إليه أجيبهم : أنا من حزب الشعر، أما نظامى الداخلى فيتألف من أشعار بوشكين وباطير وليرمنتوف وسليمان ،وانضباطى الحزبى اكتسبته من أبى حمزة تساداسا ، ولا يمكن أن يطردنى من هذا الحزب أحد سوى الشعب ، أما برلمانى فهو قريتى الجبلية ، هناك توضع قوانين وقواعد سلوكى».

وفى لقاء أجراه أخيراً أحمد الخميسى فى بيته فى« محج قلعة» عاصمة داغستان (٣) ،عبر «حمزاتوف» عن موقف واضح إزاء التحولات الدرامية التى جرت فى روسيا ، لم ينكر أن السلطة السوفيتية كانت لها أخطاؤها الكثيرة «مثل الشمولية ومحاربة التمايز القومى ومحاولة إقامة شعب واحد بالقوة» ..لكن ما الذى أعقب الانهيارات الكبرى؟ تحولت البلاد إلى سوق كبيرة يباع ويشترى فيها كل شئ .. أى شئ ..النساء والأطفال والشعر والموسيقى والأرض وكافة القيم النبيلة .. «نحن نعيش مرحلة وحشية تتحالف فيها السلطة مع رجال الأعمال والبنوك والمجرمين .ولا شئ عدا ذلك .«حمزاتوف» الذى وقف ضد تفكيك الاتحاد السوفيتى ،وكان يتخيل مخرجا آخر للأخطاء غير الانهيار ،يجد نفسه اليوم فى وضع تحولت فيه الأقدام إلى رؤوس ، وأصبحت الرؤوس أقداما ، فى زمن يعانى فيه البعض من فرط الشبع والبعض الآخر من فرط الجوع .. ولا عاصم اليوم إلا أغانى الناس عن الوطن ، كل الناس عن جميع الأوطان ، وبقدر ما تكون الازهار متنوعة تكون الباقة أجمل وبقدر ما تكون النجوم فى السماء أكثر ، تكون السماء أشد تألقا!.

ط. ش

حلم

حلمت بأننى قد مت ، وحين تحسست صدرى حزينا،
وجدت عشا خاويا فى موضع القلب
أين أختفى طائر هناك ، كان ينزف دماً حاراً؟.
أردت أن أصرخ : وا أسفى على الحياة!.
فتسمرت
صرختى على الشفاه !
ها أنذا ممدد ميت .. بارد كالثلج
وبجوارى تتدفق
شلالات الجبال ، ويريق ضحى الخريف
دموعه على خدود الأوراق . أرى الحزن
فى وجوه الأصدقاء ،وهم ينسقون خطاهم، ويحملوننى إلى مثواى الأخير على أكتافهم المحنية.
ويسخر بى الحلم الشرير ، فيجعلنى
أسير فى جنازتى المشيعين..
أسير شاردا وأبكى على نفسى،
أبكى كما لو كنت فى اليقظة ..
ولأول مرة لا أخفى
الدموع!
ترى أأبكى على حياة قد ولت ، أم لأنى أعيش؟!.

صباح الخير

صباح الخير! أهتف بكم جميعا ، صيفا وشتاء.
صباح الخير يا قصائدى النائمة ، ويا
أيتها اليمامة فى أيكها الجبلى ، صباح
الخير يا قريتى الجبلية ، ويا موقدى الحبيب،
الذى يهدأ فى الليل ، كى يستعر بقوة فى الصباح!.

ترجمة : إبراهيم الجرادى

نقوش على عصى

حين لا تقدر أن تمتطى
سأسير الهوينى جانبك،
رغم أنى أرتدى الموشى لامعاً
فإن السائرين معى حزانى!
التبجيل واجب وإجلال،
لك يا من تثقل منكبى ،
إنك إما طاعن فى العمر ،
أو جندى جريح!
أشاركك الأسى ،
لأجل أيام خلت
حينما الغصن والأوراق.
كانت غرة وخفيفة!
لأجل أعمى بائس ،
كنت عينا
لأجل فاقد الساق
أنا ساقه!

ترجمة : محمد عيد إبراهيم

حوار

بين رجل وامرأته : -لماذا تصرخ بى؟
-أنا لا أصرخ ، هذه طريقتى فى الكلام!.
بين شاعر وقارئ
شعرك لا يشبه الشعر..
-هذه طريقتى فى نظمه!
من «داغستان بلدى»

ترجمة : عبد المعين ملوحى
ويوسف حلاق

الكرة الأرضية

عند البعض ، هى بطيخة صغيرة
يقطعونها إلى شرائح
وينهشونها بأسنانهم!
وعند آخرين ، هى كرة قدم ، يمسكون
بها، يعانقونها
ثم يتراكلونها فيما بينهم!
الأرض عندى ليست بطيخة
وليست كرة قدم،
الكرة الأرضية وجه محبوب ! أمسح عنه الدم إذا نزف .
والدمع إذا انهمر !!

ترجمة طلعت الشايب

طيور القلق

يبدو لى أحيانا أن الجنود
الذين لم يرجعوا من ميادين القتال،
لم يواروا ثرى البلاد ،
بل أصبحوا لقالق بيضاء
ومنذ تلك العهود البعيدة
وهم يحلقون صائحين بنا
أليس ذلك سبب صمتنا وحزننا ،
عندما نتطلع إلى السماء؟!
والآن .. أرى اللقالق البيضاء ،
تطير فوق أرض غريبة فى ضباب الغسق،
فى نسقها المعهود
كما كانت تمشى على الأرض بشراً.
يطير مثلها المكدود فى السماء
فى ضباب الغروب،
وفى هذا النسق ثمة فجوة

ربما كانت مكانا لى
سيأتى اليوم الذى أرحل فيه
مع سرب اللقالق فى هذا الغسق
وأنادى حزينا ومن أعالى السماء
كل من تركتهم ورائى على الأرض!!

ترجمة أبو بكر يوسف

و أتى الحب

أمس، كنت أتسلل إلى أعشاش الطيور،
أغرى أصدقائى الأطفال بصعود الجبال
وأتى الحب عنيفا أزرق العينين، فجعلنى
-دفعة واحدة- راشدا ، أشيب وحكيما حتى آخر أيامى.. وأتى
الحب وابتسم فى بساطة، فإذا أنا ولد صغير!!

غن هذا

كنت يانعا فى العرس البهيج وكانت
الخمر تتدفق من الأقداح، وضعوا عصا
فى يدى وقالوا أختر فتاة تراقصها، وقفزت مرتبكا
وسط الزحام، لا أعرف أى جميلة أختار. وأخذ الكبار
يرشدوننى .. لا تختر هذه .. بل تلك!
وأصبحت بالغا وأعطونى القيثارة كى أغنى بلدى الرائع
لكنهم يعلموننى من جديد كأنى طفل.. غن ذا .. ولا تغن ذلك!

ترجمة يوسف حلاق

معهم

عندما يولد طفل جبلى ، أحس أننى
ولدت، وعندما يقتل فى مكان ما..
إنسان ما، وعندما تئن فى مكان ما

أم فوق ابنها الشهيد ،وعندما تغص نسوة بالبكاء
فوق أرض ما.. أحس أنهم يدفونني!

ترجمة إبراهيم الجرادى

أغانى الناس

هناك ثلاث أغنيات مقدسة عند
الناس، تحمل أفراحهم وأتراحهم .
واحدة من هذه الأغانى ،هى الأكثر
قداسة بينها .
إنها تلك التى تدمدم بها الأم فوق مهد ابنها!
الثانية أيضا من أغانى الأم، تلك التى تغنيها
فوق نعش ابنها .وهى تمرر يدها فوق خدة
البارد ! الأغنية الثالثة .. بقية الأغانى!

ترجمة : إبراهيم الجرادى

المهد والوجاق

تجمدت لآلى ثلاث على خدى
فرأيت فى أولاها ذكرى الماضى ،وفى الثانية .. ماذا أرى؟ هل إنها مرآة
نهارى ؟ أما الثالثة فكانت تردد:
أنت يوم غدى ،
أنت قتام ليلى!
إننى كنت أكدح فى مقالع الحجر ،
وأبنى مع الآخرين
برجا شامخا بين السحب والصخر:
وحين أحتدم
الجدل أدركوا أن جدرانه مائلة ،كما أن بانيه فاقد البصر
رأيت رجلا يضمد ذئبا أرجله دامية،

ولم تصدق
عيناى ما أرى ،ولم أفقه معانيه ، إذ
كنت
نفس ذاك الرجل فى دنياه الفانية..
هتف لى نور القمر ، وصاح بلغة
الأموات من
شاهد القبر : «لا تجعل فى اليقين بحكم الدهر،
وبأنك لن تجد خيرا هنا بعد أن لحقت من غبر».

ترجمة عبد الله حبة

لا تصدقوا النفاق

لم يضع على قلبه التعويذة ، فمات
البطل أمام وجه الزمن.
لم يسقط صريع رصاصة أو وشاية
بل مات رويدا
بحد النفاق!
تسلل إليه كالعاهرة الماكرة ، إذ ترتدى ثوب البراءة.
والطهر ، فاستعذب شفتيها الغادرتين
وهما تقطران
عسلا! واستسلم لهما مغتبطا ،وخيل إليه أنه
لم يرتكب إثما ، لكن الدنيا انقلبت فى لحظة.
عندما رأى القهوة تحت قدميه!
وبعدما أتم النفاق لعبته المفضلة ، انقلبت حية
زحفت مبتعدة ،وفحت على الحجر بسرور ، فأحرقته.
قطرة من سمها!
لا تصدقوا النفاق ، ففيه يكمن الشر،
وكم من مرة قتلنا ،
لا بالرصاص أو المجد أو الوشاية ، بل بسمه المسكر!

وينبغى أن يذكر ذلك– وهم يُرقون
لذرى المجد
الشعراء، ورواد الفضاء ، ورجال الدولة أيضا.

ترجمة أبو بكر يوسف

أسئلة

–أيها البحر ! لماذا ملوحة مائك؟
دموع البشر ذائبة فيه!
–أيها البحر! ما سر لونك؟
:المرجان الدفين فى أعماقه !
–ولماذا أنت مضطرب أيها البحر؟.
فى خضمى هلك أبطال كثيرون
بعضهم كان يمنى النفس بألا أكون
مالحا ،والبعض الآخر كان يمنيها
بالحصول على المرجان
–أيها النسر! ما أحب أغانيك إليك؟.
تلك التى تحكى عن الجبال الشاهقة!
–أيها النورس ! ما أحب أغانيك إليك؟
تلك التى تحكى عن الجيف الشهية
فى ساحة القتال!.

ترجمة طلعت الشايب

نقوش على خناجر

رفيق لو ستخلف خنجرا .. لا تنس غمده!
مهما تسخن الشمس فى الأعالى
فلن يجف دم
هذه الشفرة!
للرجال المنتضدين سكينا أقول:

أكثر من أيديكم .. استعملوا الرأس!
الأرعن يسحبه بلمح البصر.
والعاقل يفكر مرتين!
خفف شواربك بموسى ،واقطع
شجرتك بالفأس
لكن لا تضرب فى نضو خنجر
أغمده واسترح!
بعد أن أقتل رجلا ، أنعى مصيره
قبل أن أقتل ، أبغض فقط!
أحلف غير حانث جنب مقبض خنجرى
واحفظ عهودك ، جنب شفرتى!
أينما يراق الدم البشرى بالعداء،
فهو يشحذ مدية .. ليعيد سفك الدماء!
لا تويخنى بحقيقة أو إشاعة ،
ليس لدى الخناجر من فكاهة!
وحشيا ومحموما بالشرر ،
أو باتراً وبارداً كالثلج
لا ينجب الخنجر صغيرا،
بل يتامى بلمح البصر!

ترجمة : محمد عيد إبراهيم

الأحمر والأسود

-من أين ينبع الأحمر؟
من الأسود ينبع ، فمن قديم الزمان
تسيل الدماء
بسبب الأفعال السوداء!
-ومن أين ينبع الأسود؟
من الأحمر ينبع ، فعندما تسيل الدماء ، يتشح العالم بالسواد!

ترجمة أبو بكر يوسف

اغنية لفلسطين

ليل طويل يضمنيه حزن موجع ، ولا فجر للحزن ، فأين
أنت يا فلسطين ؟ حارق ربيعك
وشتاؤك حارق
شهيق دائم ، فأين زفيرك يا فلسطين؟
يذبل وردك ويجف نبعك ،والمغيب دموى ..فأين فجرك
يا فلسطين؟
أبدية أنت فى الحلم ،وفى المنام
والأغانى ..فهل نسى الله
رملك وحجرك ، ولم يسمع أغانيك
وصلواتك؟ خرس الطير
على سعف نخلك المبتور ، وصرت
جرح جسد الأرض العربية
البليغ .. نامت القنابل على وسائد
أطفالك مكان اللعب
وسن أطفالك خناجرهم فى المهد ، فأى
الأغانى أغنى لك
يا فلسطين ؟ وأجمل أغانى العالم
أنت!
يدق القلق وأوتار الروح ، فأى
الحكايات أقص عليك،
ولم يبق من حكاية مضيئة غيرك
فى المهد الغريب ، غادر النوم والأمان
عيون أطفالك،
ولا سعادة لهم يا فلسطين
حزن موحش فى تونس ، ولا فرح فى باريس،
ولا أجمل منك يا فلسطين
مساجد القدس ،ونهر الأردن ،وكلنا نغنى

ونعرف أغنية واحدة .. أننا سنعود
إليك يا فلسطين!

ترجمة: زينات بيطار

رغم أنك لست غزالا

رغم أني لست زهرة الخلود ولست
أنت زهرة البنفسج،
فسيقطفنا فى يوم ما، بستانى أبيض
اسمه النهار، بستانى أسود اسمه الليل!
ورغم أنك لست قمحا ولست أنا شعيرا ،
فسيحصدنا دونما شفقة ، حصاد
أبيض اسمه النهار ،حصاد أسود اسمه الليل.
رغم أنك لست غزالا ولست أنا وعلا ، فلن
يستطيع
كبح شهوة الصيد ، صياد أبيض اسمه
النهار ، وصياد أسود أسمه الليل!
هل يقتفى أثرنا صياد أبيض ، أم يقتلنا صياد أسود؟
ولكن.. ربما أخطأنا الأول ،
واهتزت ذراع الثانى!!!

ترجمة : أبو بكر يوسف

فمن أنت ؟

فى الهند يقولون إن الثعبان ، كان أول
ما ظهر
من مخلوقات الله!
لا ! إن الله أول ما صنع ، صنع النسر المحلق
هكذا يقول الجبلى!

أنا لست مع الهنود ، ولا مع الجبلى
أنا أعتقد
أن البشر هم أول من ظهر ، ولكن
البعض
ارتفع وحلق مع النسور ، والبعض الآخر
هبط وزحف مع الثعابين!!

ترجمة : طلعت الشايب

اللغة الأم

كل شئ فى الحلم غريب وغير معقول
واليوم فى نومى تراءى لى الموت، فى يوم
قائظ فى وادى داغستان، كنت أرقد على
الأرض بلا حراك كأن رصاصا على صدرى،
النهر يجرى ، يسرع مزبدا، أنا منسى لا
يحتاج إلى أحد
تمددت على التراب الحبيب ، قبل أن
أصبح أنا ترابا.
أحتضر ، لكن أحدا لن يعرف ، ولن
يحضر إلى ،
النسور وحدها فى الذرى تتصايح
والأيل يئن فى مكان ما بعيد
لا أم لا صديق لا حبيب،
حتى ولا نادبة هناك تبكى على قبرى
أنا من مات فى شرخ الشباب
هكذا كنت أرقد وأحتضر عاجزا
وفجأة .. سمعت على مقربة منى
رجلين يسيران ويتكلمان
بلغتى الأفارية الأم

فى يوم قائظ وفى وادى داغستان كنت أحتضر،
وكان الرجلان يتكلمان عن دهاء حسن
وعن أحابيل على،
اسمعت وقع لغتى الآم غائما فانتعشت
وأدركت وقتها أن من يشفينى ليس الطبيب
ولا الحكيم .. بل لغتى الأم!
قد تشفى بعضهم لغة أخرى
لكنى لا أستطيع أن أغنى بها،
وإذا كانت لغتى تضمحل غداً
فأنا مستعد أن أموت اليوم!
أنا أخشى دوما عليها،
ليقولوا إن لغتى فقيرة
وإنها لا تسمع من منبر الأمم المتحدة
لكنها عظيمة بالنسبة لى وعزيزة!
حين يبلغ ابنى محمود مرحلة الفهم
فهل سيقرأ شعرى متوجاً
وهل أكون من آخر الكتاب الذين يكتبون ويغنون بالأفارية؟.
أنا أحب الحياة .. أحب كوكبنا كله،
وأحب فيه كل زاوية ..حتى الصغيرة
وأحب أكثر منها كل بلاد السوفيت
لها غنيت بالأفارية كما استطعت
يعز على هذا البلد المزدهر والحر كله
من البلطيق حتى ساخلين
فى سبيله أنا مستعد أن أموت أينما كان
لكن.. فليقبرونى هنا فى هذه الأرض!
حتى يذكر الأفاريون أحيانا
عند قبرى قرب «الأوول» بكلمة أفارية
اسم ابن بلدهم رسول
نجل حمزة من تساد!

ترجمة يوسف حلاق

خطب الدكتاتور الموزونة

شعر: محمود درويش

تقديم :طلعت الشايب

أى صدر تحمل ما يتحمل صدرى من الأوسمة؟

الدكتاتورية شكل من أشكال الحكم تتركز فيه السلطة فى يد فرد أو جماعة صغيرة ، دون أى قيود أو ضوابط دستورية والكلمة مشتقة من مصطلح الدكتاتور Dictator، وهو اللقب اللاتينى للحاكم المؤقت الذى كانت تعينه الجمهورية الرومانية بتزكية من مجلس الشيوخ وتمنحه سلطات مطلقة لفترة محدودة ، يخرج فيها بالبلاد من أزمة مدنية أو عسكرية . وقد جرت العادة أن يكون الدكتاتور عسكريا ، و«أقرب مثل عندنا الآن يقربنا من وظيفة الدكتاتور الرومانى ، هى وظيفة «الحاكم العسكرى العام» الذى يعين فى أوقات عصيبة تمر بها البلاد ، لاتخاذ إجراءات سريعة وحاسمة ولفترة محدودة فقط(١) أما الدكتاتور الذى نعرفه الآن فأمره مختلف حيث هو أقرب إلى الطاغية القديم..

والدكتاتور الحديث يلجأ عادة إلى العنف أو الخداع للاستيلاء على السلطة السياسية ، كما يحتفظ بها من خلال الإرهاب والقمع واستخدام كافة أساليب الدعاية لكسب التأييد الجماهيرى.

ومع انهيار واختفاء أنظمة الحكم الوراثية فى القرنين التاسع عشر والعشرين ، أصبحت الدكتاتورية أحد نظامين للحكم فى دول العالم ، أما النظام الآخر فهو الديمقراطية الدستورية.

وقد أخذ الحكم الدكتاتورى أشكالا عدة، ففى القرن التاسع عشر قامت فى أمريكا اللاتينية دكتاتوريات كثيرة بعد انهيار السلطة المركزية فى الدول الحديثة التى تحررت من الحكم الأسبانى وكان الزعيم (الكوديللو) عادة يخرج من بين صفوف العسكريين الذين يحاولون السيطرة على إقليم أو منطقة قبل الانقضاض على حكومة وطنية ضعيفة وهناك نموذجان لذلك هما «أنطونيو لوبيز دى سانتا أنا» فى المكسيك و«خول مانويل دى روزاس» فى الأرجنتين . أما دكتاتور القرن العشرين فهو مختلف حيث نجده قائدا عسكريا على مستوى الدولة(مثل بيرون فى الأرجنتين) وغالبا ما يكون مرتبطا بطبقة اجتماعية معينة ويحاول الحفاظ على مصالح النخبة الثرية أو تحقيق إصلاحات اجتماعية من خلال تحولات يسارية .

أما فى الدول الحديثة فى أفريقيا وأسيا فقد ظهرت الدكتاتوريات بعد الحرب العالمية الثانية على أطلال الترتيبات الدستورية الموروثة عن القوى الاستعمارية الغربية والتى فشلت فى حل مشكلات الجماهير.

فى بعض هذه البلاد كان الرؤساء المنتخبون يستحوذون على السلطة من خلال فرض نظام الحزب الواحد وقمع المعارضة وفى بعضها الآخر كان العسكر يستولون على الحكم- ولا يتخلون عنه- ليقيموا دكتاتورياتهم العسكرية.

أما الديكتاتوريات الشيوعية والفاشية التى قامت فى النصف الأول من القرن العشرين فى بلاد متقدمة تكنولوجيا ، فكانت مختلفة عن الأنظمة السلطوية فى دول أمريكا اللاتينية وأنظمة ما بعد

الاستقلال فى أفريقيا وآسيا.

وفى كل من ألمانيا النازية تحت« هتلر» والاتحاد السوفيتى تحت« ستالين» دمجت الدولة نفسها مع حزب واحد ،والحزب مع زعامة كاريزمية(٢) وأيديولوجية رسمية تمنح النظام شرعية وتحافظ عليه وآليات للرعب والدعاية لقمع المعارضين والمنشقين ،مع استخدام العلم الحديث والتكنولوجيا للتحكم فى الاقتصاد وسلوك الأفراد . أما فى أوقات الأزمات المحلية والخارجية فإن معظم الحكومات ، بما فى ذلك الدستورى منها، منحت سلطات استثنائية للحاكم المنتخب وهيأت له فرصة للتخلى عن الديمقراطية والحكم بأسلوب دكتاتورى .والمعروف أن قوانين الطوارئ والقوانين الاستثنائية كانت بداية طريق الدكتاتورية غى ألمانيا «هتلر» و«إيطاليا» «موسولينى» وتركيا «أتاتورك» و«برتغال» «سالازار».

أما أكثر شعوب العالم دراية بالدكتاتورية والدكتاتور فهى شعوب العالم الثالث .وفى العالم العربى على نحو خاص تبدو الصورة أكثر قتامة وبؤسا، أنظر حولك من الماء إلى الماء حيث الحاكم إما وريث عن أب أو عسكرى استبدل ثيابا بثياب.. مع تنويعات أكثر بؤسا على الحالتين فبين ورثة العروش والأنظمة من تخلص من أبيه أو أخيه بطريقة ما ، وبين العسكر من تخلص من رفاق الانقلاب- أو الثورة ! اما المنافسين أو المعارضين بطريقة ما. وليس غريبا أن تسمع فى كل دولة عربية اصطلاح «ثورة التصحيح»!.

الدكتاتور هو كل شئ ، فهو الحاكم والقائد والزعيم والأب والمهيب وطويل العمر والمفدى ، هو البطل والمجاهد والمناضل ، بحكمته تسير الأمور ، وبتوجيهاته تتحقق المعجزات وبعبقريته تنتصر الجيوش وبإلهامه تزدهر الآداب والفنون ، ولذلك يصبح من حقه أن يختار شعبا يليق به ، يختاره فردا فردا.

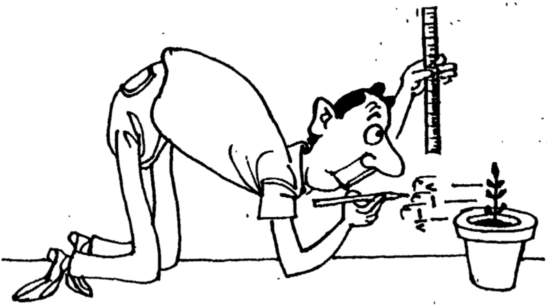
لأنه الأدرى بمن يصلح حارسا لكلبه أو سائسا لحصانه أو حاملا لاتجاه النشيد أو مستشارا لسك النقود أو حاجبا للفضائح أو نائبا للمدائح.

الحاكم الدكتاتور يمنح الجميع حق خدمته ورفع صوره ، وشكره لأنه رضى بهم أمة له.

فى هذه الخطب الموزونة يسبر محمود درويش أغوار الدكتاتور المنتخب العادل المتسامح الحر، الذى تسير جماهيره المنتخبة العادلة الحرة إلى خدمته آمنة .الدكتاتور الذى يتحمل أعباء الحكم الثقيل« أي صدر تحمل ما يتحمل صدرى من الأوسمة»؟.

الحاكم الذى يعرف كلمة السلام بعد أن خبر الحروب التى لم تجر على الشعوب سوى الخراب ، فهى ليست سوى غرائز أولى وخلاف على الأرض، والأرض ليست سوى رمال..

الدكتاتور هو عودة الوعى لتصحيح التاريخ وتلقين أعداء الوطن «السلم درسا وحلا» ،وقطع كل الذرائع عليهم حتى لا يفروا منه، الحاكم العالم المعلم الذى يحول الجيوش إلى شرطة للدفاع عن



الأمن ضد الرعاع والجياع وانتفاضات «الحرامية» ويرى بثاقب عقله أن السلام مع الآخرين هناك ليس سلاما مع الرافضين هنا، ولا مع الغاضبين ، ولكى يحيا السلام هنا «لن تقوم لأى فئات يسارية قائمة» ، فلابد من حجب ضوء النهار عن المعارضين الناقمين الحاقدين.

و«فى السجن متسع للجميع..

من الشيخ حتى الرضيع .ومن رجل الدين حتى النقابى والخادمة».

والدكتاتور هو الأمير الذى لا هدف له سوى استقرار الأمور على ما استقرت عليه ، «أمير على عرشه وشعب على نعشه » وحدة وطنية- أمير يحب رعيته إن هى أخلصت وأرخصت دمها فى سبيله ، ولكن حقوقه عليهم أكبر من واجبه ، فهو الذى أطعم وكسا وهدى «والذى أخرج المرعى .. وساوى بين الجمع وانطلق بهم قائدا لمسيرة «الروح والدم وتكملة المشوار» نحو مجتمع الرخاء .. الدكتاتور زعيم خالد ، يصدر أوامره - حتى للموت ، ليتركه وشعبه الولد معا للأبد.. من لغته تأخذ الرعية ملامح أحلامها مرة كل عام «وتعرف الحقيقة فى لفظتين : حلال .. حرام..

فيأمرهم بألا يقربوا الشعر «فالشعر يهدم صرح الثوابت فى وطن من وئام»..

لنقرأ معا خطب الدكتاتور الموزونة التى كتبها له محمود درويش ونحن ماضون فى طريق مهدناه بأيدينا ورصفناه بجماجمنا ، فإذا جفت مياه البحيرات فلنعصر لفظة من خطاب السحاب ، وإن مات عشب الحقول يكفينا مقطع من خطاب الطعام.

ط. ش

(٢) أفكار موزونة!

* أيهـــا النـاس، إنما أنا سلطان الله فى أرضه.

«الخليفة المنصور»

* إننا لم نتلق التــاج إلا من الله ، فـسلطة سن القوانين هى من اختصاصنا وحدنا بلا تبعة أو شركة.

«لويس الخامس عشر»

* أمـراء هـذا العـالم آلهـة والناس العـاديون الشـيطان ، وعن طريقـهم يفعل الرب أحيانا ما يفـعله فى أحـيـان أخـرى مـبـاشـرة عن طريق الشيطان . أو أنه يجـعل الثـورة عـقـوبـة لخطايا الناس أنى لأفـضل أن أحـتـمل أمـيـرا يرتكب الخطأ ، على شعب يفعل الصواب.

«مارتن لوثر»

* إننا نحن الملوك ،نجلس على عــرش الله على الأرض.

«جيمس الأول»

–ملك إنجلترا–

* سوف يدرك الشعب بحق ، مدى الحماقة التى ارتكبـهـا حين أنجب مـثل هذا المخلوق ، ورعاه ورباه حتى أصبح أقوى من أن يستطيع أن يطرده.

جمهورية أفلاطون

* ليس من الســهل على الحـاكم المطلق أن يتقاعد.

«أندروز»

–طغاة الأغريق–

* ما من مستبد سياسى إلا ويتخذ له صفة قدسية يشارك بها الله أو تعطيه مقاما ذا علاقة بالله.

«الكواكبى»

* موقف الطاغية هو موقف ذلك الذى يقطع الشجرة لكى يقطف ثمرة.

«مونتسيكو»

* يبدأ الطغيان عندما تنتهى سلطة القانون، أى عند انتهاك القانون وإلحاق الأذى بالآخرين.

«جون لوك»

* لقد انتهيت أنا وشعبى إلى اتفاق يرضينا جميعا ..

يقولون ما يشتهون .. وأفعل ما أشتهى..

«فريدريك الأكبر»

* كل سلطة مـفـسـدة ، والسلطة المطلقـة مفسدة مطلقة...

«لورد أكتون»

والله لا يأمرنى أحد بتقوى الله بعد مقامى هذا ، إلا ضربت عنقه .

«عبد الملك بن مروان»

* والله لآمـر أحـدا أن يخـرج من باب من أبواب المسجد ، فيخرج من الباب الذى يليه إلا ضربت عنقه.

«الحجاج بن يوسف»

* جلوا صار ما وتلوا باطلا ، وقالوا صدقنا فقلنا : نعم! .

«المعرى»

(٣) الدكـتـاتـور حـولنا .. بيننا .. فينا!

«هل تعرف ماذا يشغلنى فى هذه الأيام؟ إنه

الدكتاتور «نقيض ملاكك .. الديكتاتور.

إنى مشغول بالدكتاتور إلى درجة عينت معها نفسى كاتبا لخطب الدكتاور!.

ما أصعب هذه المهمة، وما أشد ما تثيره من متعة حين نعى أنها لعبة أدبية .سأواصل كتابة خطب الدكتاتور ، أليس هذا مسليا؟».

«الدكتاتور فيما حد التماهى ، شخصا وفكرة، الدكتاتور فى نسيج حياتنا ، بأسلوب آسيوى كما يقول الاستشراق ، سواء كان الدكتاتور «معبود الجماهير» أم «عدو الجماهير» ولكنه ما زال مغلفا بالتجريد ، لا أحد يعرفه ، لا أحد يراه، مخبأ بأغلفة سميكة من الكوادر والمصالح والأقنعة لأنه مشغول بتأمين مستقبل مزدهر للأمة تارة، لأنه مشغول بتفكيك الأمة وإعادتها إلى مصادر تكونها الأولى تارة أخرى، ولأنه دائما متأرجح بين المصطلحات الأيديولوجية المرنة وتوزعنا التلقائى والقسرى على خنادق أوهامنا.

الدكتاتور حولنا .. بيننا .. فينا».

«حين باشرت كتابة خطاب الدكتاتور الأول» خطاب الجلوس » كنت أنوى كتابته نثرا ، ولكن امتلائى بالسخرية جرنى إلى الإيقاع ، ورغبتى فى الضحك جرتنى إلى القافية . لماذا تثير القافية الضحك إلى هذا الحد؟ ألأنها تسلط الحواس على النتوء ، ولأن الدكتاتور نتوء فى الطبيعة ؟ لا أعرف تماما».

«من هو دكتاتورى»؟

إنه مجمل خصائص الحكم العربى الفردى الاستبدادى المجافى للطبيعة والمتجسد فى حكام يتداخلون فى بعضهم تداخل الصفات العامة المشتركة فى فرد ، دون أن أحدد ملامحه الشخصية المميزة ، لأن ذلك يعرضنى إلى خطر استثناء آخرين ، وقد يعرضنى أيضا إلى مخاطر الهجاء».

«لنضحك قليلا مع الديكتاتور وعلى الدكتاتور ، ومهما كان الاختلاف الأيديولوجى بين أنواع الدكتاتورية صحيحا ، فإن الدكتاتور -فى علاقته بالناس وفى عزلته -هو الدكتاتور ، والدكتاتور يثير الرعب والسخرية معا. وساعات ما بعد الظهر وهى وقت السخرية سأودعك الآن لأكتب إحدى خطب الدكتاتور ، فقد أطلقت عليه قافيتى ، كما أطلق هو على نباح كلابه وكتابه».

من رسالة من «محمود درويش» إلى سميح القاسم

بتاريخ ٨٦/٩/٩ باريس

خطاب الجلوس!

سأختار شعبى،
سأختار أفراد شعبى ،
سأختاركم واحدا واحدا من سلالة
أمى ومن مذهبى،
سأختاركم كى تكونوا جديرين بى،
إذن أوقفوا الآن تصفيقكم كى تكونوا
جديرين بى وبحبى ،
سأختار شعبى سياجا لملكتى ورصيفا لدربى،
قفوا أيها الناس ، يا أيها المنتقون
كما تنتقى اللؤلؤة.
لكل فتى امرأة
وللزوج طفلان : فى البدء يأتى الصبى
وتأتى الصبية من بعد . لا ثالث ،
وليعم الغرام على سنتى
فأحبوا النساء ، ولا تضربوهن إن مسهن الحرام
سلام عليكم .. سلام.. سلام..
سأختار من يستحق المرور أمام
مدائح فكرى
ومن يستحق المرور أمام حدائق قصرى..
قفوا أيها الناس حولى خاتم.
لنصلح سيرة حواء .. نصلح أحفاد آدم.
سأختار شعبا محبا وصلبا وعذبا..
سأختار أصلحكم للبقاء. .
وأنجحكم فى الدعاء لطول جلوسى فتيا
لما فات من دول مزقتها الزوابع!

لقد ضقت ذرعا بأمية الناس،
يا شعب.. شا شعبى « الحر فاحرس هوائى
من الفقراء..
وسرب الذباب وغيم الغبار،
ونظف دروب المدائن من كل حاف
وعار وجائع.
فتبا لهذا الفساد وتبا لبؤس العباد الكسالى
سأختار شعبا من الأذكياء ..الودودين والناجحين
وتبا لوحل الشوارع..
سأختاركم وفق دستور قلبى:
فمن كان منكم بلا علة .. فهو حارس كلبى،
ومن كان منكم طبيبا ..أعينه
سائسا لحصانى الجديد.
ومن كان منكم أديبا .. أعينه حاملا لاتجاه النشيد
ومن كان منكم حكيما ..أعينه مستشارا لصك النقود،
ومن كان منكم وسيما ..أعينه حاجبا للفضائح
ومن كان منكم قويا ..أعينه نائبا للمدائح
ومن كان منكم بلا ذهب أو مواهب -فلينصرف
ومن كان منكم بلا ضجر ولآلىء
فلينصرف
فلا وقت عندى للقمح والكدح
ولأعترف
أمامك يا أيها الشعب .. يا شعبى

المنتقى بيدى
بأنى أنا الحاكم العادل
كرهت جميع الطغاة..
لأن الطغاة يسوسون شعبا من الجهلة
ومن أجل أن ينهض العدل فوق الذكاء المعاصر
لابد من برلمان جديد ومن أسئلة
من الشعب يا شعب ..هل كل كائن يسمى مواطن؟
ترى هل يليق بمن هو مثلى قيادة لص وأعمى وجاهل؟.
وهل تقبلون لسيدكم أن يساوى ما بينكم أيها النبلاء
وبين الرعاع ..اليتامى.. الأرامل؟.
وهل يتساوى هنا الفيلسوف مع المتسول؟
هل يذهبان إلى الاقترا ع معا..
كى يقود العوام سياسة هذا الوطن؟
وهل أغلبيتكم أيها الشعب ،هم عدد لا لزوم له.
إن أردتم نظاما جديدا لمنع الفتن؟
إذن
سأختار أفراد شعبى، سأختاركم واحدا واحدا.
كى تكونوا جديرين بى.. وأكون جديرا بكم..
سأمنحكم حق أن تخدمونى
وأن ترفعوا صورى فوق جدرانكم
وأن تشكرونى لأنى رضيت بكم أمة لى..
سأمنحكم حق أن تتملوا ملامح وجهى فى كل عام جديد ..
سأمنحكم كل حق تريدون: حق البكاء على موت قط شريد
وحق الكلام عن السيرة النبوية فى كل عيد..
وحق الذهاب إلى البحر فى كل يوم تريدون..
لكم أن تناموا كما تشتهون..
على أى جنب تريدون .. ناموا ،
لكم حق أن تحلموا برضاى وعطفى .. فلا تفزعوا من أحد
سأمنحكم حقكم فى الهواء.. وحقكم فى الضياء
وحقكم فى الغناء ..
سأبنى لكم جنة فوق أرضى
كلوا ما تشاؤون من طيباتى
ولا تسمعوا ما يقول ملوك الطوائف عنى،
وإنى أحذركم من عذاب الحسد!
ولا تدخلوا فى السياسة إلا إذا صدر الأمر عنى..
لأن السياسة سجنى..
هنا الحكم شورى ..هنا الحكم شورى
أنا حاكم منتخب ،
وأنتم جماهير منتخبة
ومن واجب الشعب أن يلحس العتبة
وأن يتحرى الحقيقة ممن دعاه إليه
أصطفاه ..حماه من الأغلبية ..والأغلبية متعبة متعبة،
ومن واجب الشعب أن يتبرأ من كل فرد نهب
وغازل زوجة صاحبه أو زنا ، أو غضب،

ومن واجب الشعب أن يرفع الأمر
للحاكم المنتخب ،
ومن واجبى أن أوافق ،منّ واجبى
أن أعارض
فالأمر أمرى والعدل عدلى ،والحق ملك يدى،
فإما إقالته من رضاى
وإما إحالته للسراى
فحق الغضب
.وحق الرضا، لى أنا الحاكم المنتخب!
وحق الهوى والطرب
لكم كلكم ..فأنتم جماهير منتخبة!
أنا الحاكم الحر والعادل
وأنتم جماهيرى الحرة العادلة..
سننشئ منذ انتخابى دولتنا الفاضلة
ولا سجن بعد انتخابى ،ولاشعر عن تعب القافلة
سألغى نظام العقوبات من دولتى
من أراد التأفف خارج شعبى فليتأفف
من شاء أن يتمرد خارج شعبى فليتمرد..
سنأذن للغاضبين بأن يستقيلوا من الشعب ..فالشعب حر..
ومن ليس منى ومن دولتى فهو حر..
سأختار أفراد شعبى
سأختاركم واحدا واحدا مرة كل خمس سنين..
وأنتم تزكوننى مرة كل عشرين
عاما إذا لزم الأمر
أو مرة للأبد
وإن لم تريدوا بقائى ، لاسمح الله
إن شئتم أن يزول البلد
أعدت إلى الشعب ماهب أو دب من سابق الشعب
كى أملك الأكثرية .والأكثرية فوضى..
أترضى أخى الشعب !
ترضى بهذا المصير الحقير أترضى؟.
معاذك!!
قد اخترت شعبى واختارنى الآن شعبى..
فسيروا إلى خدمتى آمنين..
أذنت لكم أن تخروا على قدمى ساجدين..
فطوبى لكم.. ثم طوبى لنا أجمعين.

خطاب الضجر

ضجر!
ضجر!
ألا تشعرون ببعض الضجر!
فمن سنة لم أجد خبرا واحدا عن بلادى
أما من خبر؟
نغير تقويمنا السنوى .وننقش أقوالنا فى الرخام
وندفنها فى الصحارى ليطلع منها المطر
على ما أشاء من الكائنات
وأحمل عاصمتى فوق سيارة الجيب
كى أتحاشى المطر.. وما من خبر؟
وأكتب فى العام عشرين سطرا بلا خطأ نحوى،
وتعرف يا شعب أنى رسول القدر
وألغى الزراعـــة ، ألغى الفكاهة ، ألغى

الصحافة
ألغى الخبر .وما من خبر؟.
وامنع عنكم عصير الشعير
وأختصر الناس.. أسجن ثلثا..
وأطرد ثلثا..
وأبقى من الثلث حاشية للسمر..
وما بقى من خبر؟!
وأطبع وجهى .. من أجلكم ..فوق وجه القمر
لكى تحلموا مثلما أتمنى لكم.. تصبحون
على
وما من خبر؟!
لأن الشعير طعام حمير .. وأنتم أرانب
قلبى..
كلوا ما تشاؤون من بصل أخضر أو جزر..
وما من خبر؟
وأمرض أو أتمارض، أخلو إلى الذات
أو أتفاوض سرا مع المعجزات
وأحرم نفسى من الكاميرا والصور
وما من خبر؟
أوحد ما لا يوجد ، أحرس إيوان كسرى..
وأدعو إلى وحدة المسلمين على سيف قيصر
أرشو ملوك الطوائف ،أمحو شرائع سومر
أمنح أفريقيا صوتها .وأعيد النظر..
بتاريخ فكر البشر
وما من خبر؟
وأغلق كل المسارح .. لا مسرح فى البلد
ولاسينما فى البلد
ولا مرقص فى البلد
ولا بلد فى البلد

ولا نغم أو وتر
وما من خبر؟
ضجر!
ضجر!
وحيد أنا أيها الشعب ، شعبى العزيز
ولكن قلبى عليك وقلبك من فلز أو حجر
أضحى لأجلك ، يا شعب ، إنى سجينك منذ
الصغر
ومنذ صباى المبكر أخطب فيكم
وأحكمكم واحدا واحدا
وفى كل يوم أعد لكم مؤتمر
فمن منكم يستطيع الجلوس ثلاثين
عاما على مقعد واحد
دون أن يتخشب ؟ من منكم يستطيع
السهر..
ثلاثين عاما
ليمنع شعبا من الذكريات وحب السفر..؟
وحيد أنا أيها الشعب ..لا أستطيع الذهاب
إلى البحر
والمشى فوق الرصيف
ولا النوم تحت الشجر
ثقيل هو الحكم ..لا تحسدوا حاكما..
أى صدر تحمل ما يتحمل صدرى من
الأوسمة؟.
وأى فتى منكم يستطيع الوقوف
ثلاثين عاما على حافة الجمجمة
وأى يد دفعت مثلما دفعت يدنا من خطر؟.
ضجر!
ضجر!

يخيل لى أيها الشعب ، يا صاحبى
أن حقى على الله أكبر من واجبى..
ولكننى لا أريد معارك أكبر منكم ،كفانا الضجر،
جرادا يحط على الوقت ، يمتص خضرة أيامنا..
ويفتح وقت الرمال رمالا من الوقت
نمشى على الرمل .. لا أثر .. لا أثر
ومن واجبى أيها الشعب أن أتسلى
قليلا ، فمن يعيد إلى ساحة الموت أمجادها؟.
اخطئوا .. اخطئوا.. واسرقوا وافسقوا..
لأقطع كفا وأجدع أنفا وأدخل سيفا بنهد نهد..
وأجعل هذا الهواء إبر
وأنسى همومى فى الحكم ، أنسى التشابه بينى
وبين الملوك القدامى وأنسى العبر..
أما من فتى غاضب فى البلد!
أما من أحد؟.
تقاعس عن خدمتى أو بكى أو جحد!
أما من أحد .. شكا أو كفر ؟!
أما من أحد شكا أو كفر؟
أما من خبر
ضجر!
ضجر!
وحيد أنا أيها الشعب ، أعمل وحدى
ووحدى أسن القوانين
وحدى أحول مجرى النهر..

أفكر وحدى أقرر وحدى.. فما من وزارة
تساعدنى فى إدارة أسراركم
ليس لى نائب لشئون الكناية والاستعارة
ولا مستشار لفلك طلاسم أحلامكم عندما تحلمون..
ولا نائب لاختيار ثيابى وتصفيف شعرى ورفع الصور
ولا مستشار لرصد الديون
فوالله .. والله .. والله لا علم لى
بمالى عليكم ،ومالى عليكم حلال حلال..
كلوا ما أعد لكم من ثمر
وناموا كما أتمنى لكم أن تناموا ودودين
بعد صلاة العشاء..
وقوموا من النوم حين ينادى المنادى
بأنى رأيت السحر..
وسيروا إلى يومكم آمنين .. ووفق نظام كتابى
ولا تسألوا عن خطابى
سأمنحكم عطلة للنظر
بما يسر الله لى من خطاب الضجر
ضجر!
ضجر!
سلام على ، سلام عليكم
سلام علىّ أمة لا تمل الضجر!.

خطاب السلام!

..وأما الذين قضوا فى سبيل الدفاع عن الذكريات وعن همهم ..فلهم أجرهم أو

خطيئتهم ، عند ربهم.
حرام حلال
حلال حرام
.. ويا أيها الشعب يا سيد المعجزات ،
ويابانى الهرمين.
أريدك أن ترتفع
إلى مستوى العصر .. صمتا وصمتا
لنسمع صوت خطانا على الأرض..
ماذا دفعنا لكى نندفع؟.
ثلاث حروب -وأرض أقل
وتأميم أفكار شعب يحب الحياة- ورقص أقل
فهل نستطيع المضى أماما ؟ وهذا الأمام
حطام..
أليس السلام هو الحل؟.
عاش السلام
وبعد التأمل فى وضعنا الداخلى
وبعد الصلاة على خاتم الأنبياء ،وبعد السلام
على،
وجدت المدافع أكثر من عدد الجند فى دولتى،
وجدت الجنود يزيدون عما تبقى لنا من
حبوب
لهذا، سأطلب من شعبى الحر أن يتكيف
فورا،
وأن يتصرف خير التصرف مع خطتى:
سأجنح للسلم إن جنحوا للحروب
سأجنح للغرب إن جنحوا للغروب
سأجنح للسلم ،مهما بنوا من حصون
ومهما أقاموا على أرضنا ..
ليعيش السلام..

حروب.. حروب.. حروب.. أما من قيادة
لتوقف هذا العبث؟!
وتوقف إنتاج مستقبل غامض من جثث؟.
أفى الغاب نحن لنقتل جيراننا الباحثين على
أرضنا عن وسادة؟.
وما الحرب يا شعب إلا غرائز أولى، خلاف
صغير
على الأرض ،ما الأرض إلا رمال على الرمل
هل دمكم أيها الناس أرخص من حفنة
الرمل؟.
عم تفتش فى الحرب يا شعبى الحر،
هل عن سيادة؟.
أمعنى العدو المصاب بداء التوسع
والخوف؟.
فليتوسع قليلا.. لماذا نخاف .. لماذا نخاف؟.
فهل تستطيع الجرادة أن تأكل الفيل أو
تشرب النيل؟.
. فى الأرض متسع للجميع .وفى الأرض
متسع للسعادة.
ونحن هنا ثابتون..
هنا فوق خمسة آلاف عام من المجد والحب.
مهما يمر الظلام
وعاش السلام..
ورثتك يا شعب .. يا شعبى الحر عن حاكم
ضللك
وحطم فيك البراءة والورد ..ما أنبلك!
وجرك للحرب من أجل بدو أباحوا نساءك
مذ دخلوا منزلك.
ولم يدفعوا الأجر .. لاشئ فى السوق،

لاشئ من حللك
لبدو الصحارى، وحرم لحم الخراف عليك،
ومن بدلك
وقادك نحو سراب العروبة حتى توحد من
شتتوا أملك؟
ورثتك يا شعب ، يا شعبى الحر، عن حاكم
قتلك..
وآن أوان الحقيقة ، فليرجع الوعى للوعى ..
لن أمهلك
سوى ساعتين ، لتنسى الزمان الذى أهملك
وإلا ، سأعلن إضراب زوجاتكم فى
المضاجع:
إما الصيام عن النوم ما بين أفخاذهن
وإما السلام
إما عودة الوعى ، لا وعى حولى ولا وعى
قبلى ولا وعى بعدى
عرفت التصدى
عرفت التحدى
وجربت أن أستقل عن الشرق والغرب ،
لكننى لم أجد
غير هذا التردى
ففى عالم ينقسم:
إلى اثنين : شرق وغرب فقط.
يكون الحياد شطط
فمن نحن ؟ هل نحن شرق .. ولا رزق فى
الشرق؟.
فى الشرق حزب النظام الحديدى ، فى
الشرق تنمية للنمط
ولاشى فى السوق غير الخطط

وهل نحن غرب؟ وفى الغرب أعداؤنا
ينشرون اللغط
عن الحاكم العربى ،وفى الغرب رامبو
وشامبو
وكوكا وجينز وكنز وديسكو وسيرك.. وحرية
للقطط،
فمن نحن ؟ هل نحن حقا غلط
لنقضى ثلاثين عاما من الحرب والحل فى
الغرب
هل نحن حقا غلط؟
ليهرب منا الطعام
أما كنت تدرك يا شعب
أن الطعام سلام؟.
ويا أيها الشعب ، آن لنا أن نصحح تاريخنا
كى نضاهى الحضارات قولا وفعلا ..
وآن لنا أن نلقن أعداءنا السلم، درسا وحلا،
سنقطع عنهم جميع الذرائع ،
كى لا يفروا من السلم .. ماذا يريدون؟.
ماذا يريدون ؟ كل فلسطين؟
أهلا وسهلا..
يريدون أطراف سيناء؟.. أهلا وسهلا..
يريدون رأس أبى الهول .. -هذا المراوغ فى
الوقت؟ .. أهلا وسهلا..
يريدون مرتفعات الهجوم على الشام ؟ ..
أهلا وسهلا.
يريدون أنهار لبنان؟ أهلا وسهلا..
يريدون تعديل قرآن عثمان ؟ أهلا وسهلا..
يريدون بابل كى يأخذوا رأس «نابو» إلى
السبى؟.

..أهلا وسهلا..
سأعطيهمو ما يشاؤون منا ومالا يشاؤون كى
أحمى السلم
والسلم أقوى من الأرض ..'أقوى وأغلى..
فهم بخلاء ..لئام
ونحن كرام ..كرام
وعاش السلام
.. من أجل هذا السلام أعيد الجنود
من الثكنات إلى العاصمة
وأجعلهم شرطة للدفاع عن الأمن ضد
الرعاع
وضد الجياع
وضد اتساع المعارضة الآثمة
فليس السلام مع الآخرين هناك
سلاما مع الغاضبين هنا..
هنا لن تقوم لأى فئات يسارية قائمة
سأفرم لحم اليسار ، وأحجب ضوء النهار.
عن الزمرة الناقمة
وفى السجن متسع للجميع
من الشيخ حتى الرضيع
ومن رجل الدين حتى النقابى والخادمة
فليس السلام مع الآخرين هناك
سلاما مع الرافضين هنا..
هنا طاعة وانسجام
ليحيا السلام
'وأما الذين قضوا فى سبيل الدفاع
عن الذكريات وعن وهمنا ..فلهم أجرهم أو
خطيئتهم عند ربهمو..
وما فات فات
ومن مات مات
سأقضى على الذكريات
سألغى احتفالات يوم الشهيد لننسى
الضغينة
سأحرث مقبرة الشهداء الحزينة
وأرفع منها العظام لتدفن فى غير هذا
المكان
فرادى فرادى،
فلا حق فى دولتى للتجمع ، حيا وميتا
لئلا يثير الفسادا
ولا حق للموت أن يتمادى
ويقضم نسياننا الحر منا
سأكسر كل المدافع حتى يفرخ فيها الحمام
سأكسر ذاكرة الحرب..
ناموا كما لم تناموا
غدا تصبحون على الخبز والخير ناموا
غدا تصبحون على جنتى
فاستريحوا وناموا ..
يعيش السلام
يعيش النظام
شلوم ..سلام..!

خطاب الأمير!

إذا كانت الحرب كراً وفراً
فإن السلام مكر مفر
أحبوا الأمير ،وخافوا الأمير
ولا تقنطوا من دهاء الأمير
فليست لنا غاية فى المسير

ولاهدف ، غير أن تستقر الأمور
على ما استقرت عليه : أمير على عرشه
وشعب على نعشه
أنا خنجر من حرير
أحب الرعية إن أخلصت
وإن أرخصت دمها فى سبيل الأمير
فعمر الرعية فى الحب عمر طويل
وعمر الرعية إن كرهتنى قصير
أنا صانع الجيش من كل جيش بلا أسلحة
جمعت الجنود كما تجمع المسبحة
لأبنى مجتمعاً للتحدى ومجتمعاً للتصدى
ومجتمعا يدمن المذبحة
أنا السيف والورد والمصلحة
وليس على ما أقول شهود
وليس على ما أريد قيود..
وليست عقيدتنا صنما جامدا ،فاحذروا
نفاق الصديق .. وحاجته للتمدد خلف الحدود
وليس العدو عدوا إلى آخر الحرب..
قد نتحالف فى ذات يوم لنحمى أنفسنا من صديق لدود
ومن إخوة لا يطيعوننا ، حين نذبحهم يصرخون
ويرموننا بالظنون ،ولا يفهمون
سياستنا أو كياستنا حين نحرق أطفالهم بالصواريخ
كى لا يمروا
فإن كانت الحرب كراً وفراً
فإن السلام مكر مفر

حقوق الأمير على الناس أكبر من واجبى
ألم أجد الناس جوعى .. فأطعمت
وعارية فكسوت
وتائهة فهديت!
وساويت بين المثقف والمرتزق
(وأما بنعمة ما أنعم الحكم- حكمى- فحدث)
ألم أبن خمسين سجنا جديدا لأحمى اللغة
من الحشرات ،ومن كل فكر قلق ؟.
ألم أخلط الطبقات لألغى نظام التقاليد
والمرجعية والزمن المحترق ؟!
فمن يذكر الآن أجداده ؟
ومن يعرف الآن أولاده؟
ومن يستطيع الرجوع إلى شجر العائلة
ومن يستطيع الحنين إلى زهرة ذابلة
ومن يستطيع التذكر دون الرجوع إلى حارس القافلة؟
(وأما بنعمة ما أنعم الحكم- حكمى -عليك -فحدث)
ألم أجد الماء فى غيمكم يختنق
فحركته فاستجاب وآب إليكم .. ألم أنطلق
بكم نحو أعلى الشعارات كى نلتحق
بمجتمعات الرخاء ، فكونوا كما أشتهى أن تكونوا وسيروا
إلى بلد لا حدود له، لا رعاة ، ولا شاعر أو ملك،
فقد تغتنون وقد تتخمون .وقد أمتلك!
دعوا الأرض بورا ، لأن الفلاحة عار القدامى

قطعت الشجر
وألغيت بؤس الزراعة
لأستورد الثمر الأجنبى بنصف التكاليف
فالشعب نصفان: جيش وباعه
ولا تعملوا فى المصانع ، فهى ديون على دولة تتنامى
رويدا رويدا على فائض الحرب من شهداء
ومن جثث فى العراء . وبترولنا دمكم
والصناعة إنتاج ما أنتجت حربنا من يتامى
نوظفكم فى معارك لا تنتهى كى يعيشوا
وكى ينجبوا للإمارة كنز الإمارة.. هاتوا يتامى..
لتحيا الخزينة عاما وعاما
وإلا .. فمن أين أطعمكم ..والإمارة قفر
وأن الحروب اقتصاد معافى .. وحر
وإن الهزيمة ربح ونصر
وإن كانت الحرب كرا وفراً
فإن السلام مكر مفر ..
***
تقولون : ماذا يريد الأمير من الحرب،
ماذا يريد الأمير المحارب؟
أقول : أريد حروبا صغيرة
سأختار شعبا صغيرا حقيرا أحاربه كى أحارب
وأحمى النظام من الباحثين عن الخبز بين الزرائب
فحين نخوض الحروب
يحل السلام على الجبهة الداخلية ننسى الحليب،
وننسى الحبوب
فيا قوم قوموا .. فهذا أوان الأمل
وهذا أوان النهوض من المأزق المحتمل
إذا حاصرتنا جيوش الشمال
نحاصر إخوتنا فى الجنوب
وإن حاصرتنا جيوش الجنوب
ندمر إخوتنا فى الشمال
وحين نحاصر بين الشمال وبين الجنوب
أحاصركم فى الوسط
فلا تقنطوا من دهاء الأمير ولا تقعوا فى الغلط
فخير الأمور الوسط
وأنتم رهائن عندى ، فخروا وخروا
ولا تسألونى أفى الأمر سر ؟
إذا كانت الحرب كراً وفراً
فإن السلام مكر مفر!.
تقولون ماذا عن السلم ، ماذا يريد الأمير ؟.
أقول : أريد من السلم ما لا فضيحة فيه .
أغازله دون أن أشتهيه
وأبنيه سرا، وأحرسه بالحروب الصغيرة
كى يتقينى العدو وكى أتقيه ..
وأحمى سلام الخنادق من نزوات الخطاب
ومن طيش هذا الشباب
وأحصى مدافعهم ثم أحصى مدافعنا
-الفوارق سلم
وأحصى مصانعنا ثم أحصى مصانعهم
-الفوارق سلم
وأحصى مواقعنا ثم أحصى مواقعهم

-الفوارق سلم
ولكننى لا أريد السلام
لأن السـلام المقـام على الفـرق بين العـدوين
ظلم
وإن السلام المقام على الظلم ظلم
وإن السلام المقام على الاعتراف بغيرى ظلم
فلابد من نصف سلم
ولابد من نصف حرب
لأحفظ شعبى
وأحفظ حكمى
أحارب من أستطيع محاربته
بلا رحمة أو حرام
أسالم من لا أريد ولا أستطيع محاربته
بغير معاهدة للسلام
فإن السلام مغامرة كالحروب .. وشر
وإن كانت الحرب كرا وفراً
فإن السلام مكر مفر
ويا قوم .. يا قوم ،من آخر الليل يطلع فجر
سلام عليكم إلى مطلع الفجر أيها الصابرون
على الليل حولى
أقاسمكم ما وهبت من المعجزات.. وأذرف
ظلى
عليكم ، لكى يتساوى الجميع بظلمى وعدلى..
أعرف يا أيها الناس ، ما تحمل النفس
والنفس أمارة بالتخلى
عن الصعب ،والمجد صعب كما تعلمون ،
قليل التجلى،
ولكننا سنواصل هذا الطريق إلى منتهاه إلى
منتهاكم ،
فلا تقطنوا من دهائى ومن رحمة النصر
فالنصر صبر على الليل ،والليل- يا أمتى
-درجات.
فمنه الطويل ومنه القصير .ومنه الذى
يستمر
ثمانين حولا
سأحكمكم لا مفر
إذا كانت الحرب كراً وفراً
فإن السلام مكر .. مكر
خطاب القبر!
أعدوا لى القبر قصرا يطل على القصر
من وجهة البحر، قصرا يدل الخلود على
يدفع أحلامكم صلوات ..إلى
فمن كان يعبر هذا البلد
ومن كان يعبر هذا الجسد
فمن حقه أن يصدق أنى حى
وحى هو العرش حتى الأبد
بلغت الثمانين ، لكننى ما عرفت السأم
وقد أتزوج فى كل يوم فتاة
وأبكى عليكم، ارثيكم يوم تهوى البيوت
على ساكنيها ، ويسكنها العنكبوت
فمن واجبى أن أعيش
ومن حقكم أن تموتوا
لأنجب جيلا جديدا يواصل أحلامكم
فما من أحد
رأى ما رأيت .. وما من بلد
رأى ما رأى من فتوة هذا الجسد
فمن كان يعبد هذا البلد
فقد مات ، أما الذى كان يعبدنى

فمن حقه أن يصدقنى حين أصدر أحرى إلى الموت
دعنى وشعبى الولد
معا للأبد.
وبعد الثمانين تأتى ثمانون أخرى
وأرقد فى اليوم عشرين ساعة
لأرتاح مما خلقت وممن خلقت
ومن دولة ستعمر فى وتركع : سمعا وطاعه
وتنهار بعدى إذا نمت أكثر مما أنام
ولاشئ بعدى
ولاشئ بعدى
فمن يعبدون؟
وكيف تعيشون بعدى؟
ومن سوف ينقذكم من زمان الجنون
ومن سوف يحرس أبوابكم من جراد المطر
ومن سوف يحمل ريح الشمال إليكم
ويحميكم من ذئاب الشجر؟
ومن تعبدون
لمن ترفعون تراتيلكم ولمن تسجدون ، وتتلون آيات من؟
أبا لخبز وحده ؟ بالخبز وحده
تعـيشـون ؟ والروح خـاوية من عـبـاءة من تعبدو؟
ومن أى معنى تشيدون مبنى الخيال لهذا الزمن
وفى البدء ..كنت .. وكونت هذا الوطن
ليـعـبـد خـالقـع ، أو يموت إذا لم يكن لائقا بعبادة خالقه،
فاعلموا واعلموا
بأن الذى قد خلق
أحق بهذى الحياة الطويلة ممن خلق
وإن كان لابد من موتنا فاسبقونى
إلى الموت كى تحملونى وتستقبلونى
خذوا زوجتى معكم وخذوا أسرتى..
وجهاز القلق ..
ولا تنشئوا أى حزب هناك
ولا تأذنوا لقدامى الضـحـايا بـأن يسكنوا معكم
ولا تسمحوا للتلاميذ أن يسرقوا دمعكم
ولا تفتحوا صـحفا للحديث عن الفرق بين الحياة
على الأرض أو تحتها
ولا تسمحوا للمعارضة المستبدة أن تتساءل
عما رفضت التساؤل فيه
أنا الموت .. والموت لا ريب فيه
أنا من أعد لكم أجلا لا مرد له فأعلموا
أن ما فوق أرضى يجرى بأمرى
فلا تهربوا من مشيئة قصرى
فقد أختنق
وحيدا بغير جماهير تعبدنى
ولقد ألتحق
بكم كى أراقبكم ..كى أحاسبكم
فمن كان يعبد هذى الحياة
فقد هلكت
وأما الذى كان يعبدنى
فمن حقه أن يعيش معى فوق هذا التراب
وتحت التراب ..معى للأبد
أعدوا لى القبر قصرا يطل على البحر

قصرا مليئا بأجهزة الاتصال الحديثة
قصرا معدا لمملكة الشعب فى الآخرة
سآمر فورا ، بنقل الوزارات والذكريات
ومجموعة الصور النادرة
سأنقل كل الحصون وكل السجون وكل الظنون
لأحكمكم فى المقر الجديد
بصيغة دستورنا الحاضرة
ولكننى سأعدل بند الوراثة
لاحق للحى أن يرث الميت إلا إذا
أثبت الميت أن الذى كان حيا هو الميت فيه
لئلا يطالبنا الدود بالآخرة
أعدوا لى القبر أوسع من هذه الأرض
أجعل من هذه الأرض
أقوى من الأرض
قصرا يلخص بحرا بنافذة من سحاب
سأجتاز هذا الممر الصغير
على فرس الغيم ،والغيم أبيض يهتز حولى
ويرسم لاسمى تاجا وقوس قباب
سأجتاز هذا الممر الصغير
فلا عودة للوراء .. ولا رحلة فى السراب
أعدوا لى العرش من ريش مليون نسر
أعدوا العذارى ، أعدوا الشراب
ونادوا ملائكة الشعر: صلى عليه وصلى له
لينسى الهواء وينسى التراب.
سأختار هذا الممر الصغير
لأقضى على الموت فيها .وفى
وأفتح آخر باب..
فمن كان يعبد منكم هنا الآخرة
فقد ماتت الآخرة
ومن كان يعبدنى ..
فإنى حى.. .وحى .. وحى ..
خطاب الفكرة
إذا قدر الحزب للشعب أن يحمل الدرب فكرة..
وأن يرفع الأرض أعلى من الأرض فكره
وأن يفصل الوعى عن واقع الوعى من أجل فكرة
..فعندئذ يصبح الشعب شعبا جديرا بحرب وثورة!
أقول لكم ما يقول لى الحزب والحزب فوق الجماعة
سنقفز فوق المراحل عصرا وعصرين ..فى كل ساعة.
لنبنى جنة أحلامنا اليوم فى نمط من مجاعه
سنلغى الحرف
سنمنع صيد السمك
ونمنع بيع الدجاج وبيض الدجاج
وملكية الظل ملكية خاصة
فلنؤمم إذن كل أشجارنا الجائعة
وكل نباتاتنا الضائعة
ثمانين نخله
وتسعين تينه
وعشرين زيتونة
وألفا وسبعين فجله
سنلغى الزراعة
وندخل عصر الصناعة
بحزب وشعب و فكره

أقو لكم ما يقرره الحزب ، والحزب سلطتنا المطلقة

سننشئ من أجل برنامج الحزب من أجلكم طبقه

هى القوة الصاعده

ونعلن من أرضنا ثورة الفقراء على الفقراء

فليس على أرضنا أغنياء

لنأخذ أملاكهم ، فلنوزع ، إذن ، فقرنا

على فقرنا ، فى إذاعتنا والجريدة

سنقطع دابر أعدائنا الطبقيين.. أهل العقيدة

ونتهم الأنبياء بداء البكاء على حصة فى السماء

إذا الشعب يوما أراد

فلابد أن يستجيب الجراد..

فهيا بنا أيها الكادحون وصناع تاريخنا الحر، هيا بنا

لنحرق شعر المديح ، وشعر الطبيعة والحب والعبرات

وكل الروايات والأغنيات القديمة والوجع العاطفى

وما ترك الغرب والشرق فينا من الذكريات

وهيا بنا

لنصنع من كل حبة رمل خليه

وننجز خطتنا المرحلية

سننتج فى اليوم ألف شعار وعشرين شاعر

فإن كانت الأرض عاقر

فإن القيادة حبلى بما يجعل الأرض خضراء

حطوا الشعار وراء الشعار وراء الشعار

وهزوا الشعار، ليساقط الوعى فكره

تدير المصانع والثورة المستمرة

فنحن الذين

سننشئ جنة عمالنا القادمين

من الفكرة المطلقة

إلى الفكرة المطلقة

ونحن الذين

سنحرق كل المراحل ..كى نصنع الطبقة

من المصنع اللغوى ، وكى نرفع الطبقة

إلى سدة الحكم حتى نعبر عنها بحزب وثورة

ويا شعب .. يا شعب حزبك ، شد الحزام

لتحمى النظام

من الفكرة البرجوازية الفاسدة

سنبحث عشرين عام

عن القيمة الزائدة

وعن سارقى عرق الفقراء الحرام

لنعرف أين التناقض فى المجتمع

وأين التعارض بين القيادة والقاعدة

لنعرف أنماطنا والبنى وطبيعة هذا النظام،

ولكننا ندرك الآن أن الطبيعة أفقر منا

وندرك أن السلع

دليل على النمط البرجوازى، فاجتنبوها

لننتج وعيا جديدا

وربوا الشعارات .. وادخروها

وإن صدئت طوروها

وإن جاع

أولادكم فاطبخوها

وفى عيد مايو كلوها

وصلوا لها وأعبدوها

وإن مسكم مرض.. علقوها
على موضع الداء فهى الدواء
وثروتنا فى بلاد بغير معادن
وواقعنا ما نريد له أن يكون
وليس كما هو كائن..
فماذا سننتج غير الشعارات؟
وهى رسالتنا الرائدة..
وإذا استثمرت جيدا
أثمرت بلدا سيدا
حالماً سالماً
بحزب وفكره
.وصفوا التماثيل أعلى من النخل والأبنية
وصف التماثيل أفضل للوعى من أمهات النخيل
تماثيل أفضل للوعى من أمهات النخيل
تماثيل ترفع كفى إليكم ،وتعلى تعاليم حزب لشعب نبيل
تذكركم بنشيد الطلائع : نحن أتينا لكى ننتصر
ولابد للقيد أن ينكسر
ولابد مما يدل على الفرق بين النظام الجديد
وبين النظام العميل
ولابد من صورة الفرد كى يظهر الكل فى واحد
تماثيل تعلو على الواقع المندحر
وتخلق مجتمع الغد من فكرة تزدهر
فلا تجدعوا أنفها عندما تسغبون
ولا تملأوا يدها بالرسائل ضدى وضد السجون

ولا تأذنوا للحمام المهاجر أن يستريح عليها..
ولا ترسموا حول أعناقها صورة للرغيف الحزين
ولا تبصقوا حولها ضجرا
ولا تنظروا شذرا
سأزرع التماثيل جيش الدفاع عن الأمنية
وجيش مكافحة السخرية
سنصمد مهما تحرش هذا الجفاف بنا
سنصمد مهما تنكر هذا الزمن
سنصمد حتى نهاية هذا الوطن
سنصمد حتى تجف المياه ..لآخر قطره
وحتى يموت الرغيف الأخير ..لآخر كسره
وحتى نهاية آخر من كان يحلم مثلى :.بآخر ثوره
فإن مات هذا الوطن
فقد عشت من أجل فكره
فموتوا ..كما لم يمت أحد قبلكم
ولا تسألوا الحزب من أجل أية فكره
نموت؟
ومن أجل أية ثورة .. نموت؟
فمن كل فكره
ستولد ثورة
ومن كل ثورة
ستولد فكره
سلام عليكم
سلام على فكره
سوف تولد من موت شعب وفكره!

خطاب النساء!

على كل امرأة حارسان
وفى كل امرأة أفعوان
ألا .. فاجلدوهن قبل الآوان
اجلدوهن فى الصبح جلده
لئلا يوسوس فيهن شيطانهن
وفى الليل جلده
لئلا يعدن إلى لذة الإثم
واستغفروا الله ، وارموا
على مرفأ الجرح ورده
ولا تهجروهن فوق المخده
فإن النساء على كل معصية قادرات
وإن النساء حبيباتنا من قديم الزمان
تزوجت خمسين مرة
لأعرف مرة
إذا كان إبنى هو ابنى
وأى ولى علي العهد كنت أباه
وفى كل مرة
أرى رجلا واقفا بين قلبى وامرأتى
ولكننى لا أراه
لأقتله أو لأقتلها ،بيد أنى أراه
ويقتلنى كل يوم،وفى كل سهره
يهاجمنى عاشق سابق عند باب القرنفل
يغيب لأدخل ..ثم أنام .. فيدخل
فكيف أحرر أجساد زوجاتنا من أصابع غيرى؟.
وكيف أغير جلدا بجلد ..ونهدا بنهد.. ونهرا بنهر؟.

وكيف أكون امرأة من بياض البداية؟.
وهل أستطيع دخول الحكاية
وعندى من الليل أكثر من ألف ليلة
،أكثر من ألف امرأة لا تغير فخ الحكاية
ولكن قلبى موله
وعرشى مؤله
وفى كل إمرأة شهرزاد ..وثعلب
وفى كل طاغية شهريار المعذب
وإن النساء على كل معصية قادرات
وأن النساء حبيباتنا
ضربن على سحرهن الحجاب
فشب الدبيب بأجسادهن ، وضاجعن
أول مفتاح باب
وأول قط ، وأول ساعى بريد ، وأول كتاب هذا الخطاب
وبرأن عائشة من ظنون على
ولكن تأوهن بعد العتاب
أصحراء حول الحميراء، مطلع ليل، وشاب طلى الشباب
لماذا .. لماذا..؟
وكيف تحرش ملح بثوب الحرير الأخير .. وذاب؟.
ضربن على سحرهن الحجاب
ولكن هذا الذى لا يرى قد رأى واستجاب
فهل تتغطى العواصف يوما بشال السحاب؟.
وماذا وراء الحجاب ؟.
إلا أنهن «صواحب يوسف»
رغم الحزام ،ورغم الحرام ، ورغم العقاب

قوارير تكسر ..
أساطير تسحر..
وذاكرة للغياب
ففي أي بئر نخبئ زوجاتنا
وفي أي غاب؟
وفي وسعهن ملاقاة أي هلال..
ينام على غيمة أو سراب..
وفي وسعهن خيانتنا بين أحضاننا
والبكاء من الحب ..والاغتراب
وفي وســـعــــهن إزالة آثارنا عن مــواضـع
أسرارهن.
كما يطرد المرء عن راحتيه الذباب
ويلبسن في كل يومين قلبا جديدا
كما يرتدين الثياب
فما نفع هذا الحجاب
وما نفع هذا العقاب؟
وإن النساء على كل معصية قادرات
وإن النساء حبيباتنا..
تعبت .. ولو أستطيع جمعت النساء..
بواحدة واسترحت
وأنجبت منها وليا على العهد حين أشاء
وليا على العهد مثلي وجدي
صحيحا فصيحا يواصل عهدي
ويحفظ خير سلاله
لخير رسالة
ويجمعكم حول قصري ومجدي هاله
ولكنني قلق ، فالنساء هواء وماء
وفاكهة للشتاء
وذاكرة من هواء
وإن النساء إماء
يغيرن عشاقهن كما يشتهي كيدهن العظيم
وكيدي عظيم .. ولكن فيهن موهبة للبكاء
وفيهن ما أحزن الأنبياء
وما أشعل الحرب بين الشعوب
وما أبعد الناس عن ملكوت السماء
فكيف أحل سؤال النساء؟.
وكيف أحرركم من دهاء النساء؟
على كل إمرأة أن تخون معي زوجها
لأعرف أني أبوكم
وأخذ منكم ومنهن كل الولاء..
وقد تسألون : وكيف تنفذ هذا القرار ؟
أقول : سأعلن حربا على دولة خاسرة
يشارك فيها الكبار
ومن بلغ العاشرة ..
سأعلن حربا لمدة عام
تكون النساء عليكم حرام
وأبعث غلمان قصري- وهم عاجزون - إلى
كل بيت
ليأتوا إلى بكل فتاة وبنت
لأحرث من شئت منهن :
بعد الظهيرة - بنت
وفي الليل - بنت
وفي الفجر - بنت
لتحمل مني جميع البنات
وينجبن مني وليا على العهد .. مني ..
سأختاره كيف شئت
صحيحا فصيحا مليح القوام
.. وبعدئذ أوقف الحرب ، من بعد عام
وأعلن عيد السلام
وأعرف مرة

لأول مرة
بأن الولى على العهد .. إبنى
وأنى أبنى
بلادا بلا دنس أو حرام
فألف سلام عليكم
وإن النساء حلال عليكم
فلا تهجروهن ، لا تضربوهن ، هن الحمام
وهن حبيباتنا ، والسلام عليكم .. .. عليهن
ألف سلام..
وألف سلام !!

خطاب الخطاب !

إذا زادت المفردات عن الألف ، جفت عروق الكلام
وشاع فساد البلاغة .. وانتشر الشعر بين العوام،
وصار على كل مفردة أن تقول وتخفى ماحولها من غمام
فأن تمدح الورد معناه أنك تهجو الظلام
وأن تتذكر برق السيوف القديمة معناه : أنك تهجو السلام
وأن تذكر الياسمين كثيرا وتضحك ، معناه : أنك تهجو النظام
ولاتستطيع الحكومة شنق المجاز ونفى الأسى عن هديل الحمام..
وبين الطباق وبين الجناس تقول القصيدة ما بيننا من حطام
وتنشئ عالمها المستقل وتهرب من شرطتى فى الزحام
وتخلق واقعها فوق واقعنا ، أو تجردنا من سياج المنام
فيصبح حلم الجماهير فوضى ، ولا نستطيع التدخل بين النيام
أنا سيد الحلم ! لاتجلسوا حول قصرى بغير الطعام
ولاتأذنوا للفراشات بالطيران الإباحى فى لغة من رخام..
.. فمن لغتى تأخذون ملامح أحلامكم مرة كل عام.
.. ومن لغتى تعرفون الحقيقة فى لفظتين : حلال ، حرام
فلا تبحثوا فى القواميس عن لغة لاتليق بهذا المقام،
فان زادت المفردات عن الألف عم الفساد .. وساد الخراب،
لأن الكلام الكثير غبار الذباب
وأن نظام الخطاب
خطاب النظام ..
.. ..
وفى لغتى قوتى . واقعى لغتى ، واقعى مايقول الخطاب
فقد تربح النظرية مايخسر الشعب ، والشعب عبد الكتاب
وليس على النهر أن يتراجع عما فتحنا له من سياق وغاب
سنجرى معا فوق موج الدفاع عن الاندفاع الكبير لفكر الصواب
وماذا لو اكتشف القوم أن الدروب إلى

الدرب معجزة من سراب !
وماذا لو ارتطم البر بالبحر والبحر بالبحر ، وامتد فينا العباب !
إلى أين يابحر تأخذنا ؟ والخطاب يواصل خطبته فى اليباب
أنرجع من حيث ضعنا ؟ إلى أين يرجع هذا الكلام .. إلى أى باب ؟
قطعنا كثيرا من القول ، فليتبع الفعل خطوتنا فى طريق العذاب
ولكن إلى أين نرجع يابحر ؟ والبر ذاكرة صلبة للسحاب
قطعنا قليلا من الفعل : فليملأ القول ساحة هذا الخراب
ليسر الخطاب على موت أبنائنا الغائبين .. ويعلو الضباب
إلى شرفة القصر .. والمنبر الحجرى المغطى بعشب الغياب
ولاتسألوا : من يذيع الخطاب الأخير : أنا أم خطاب الخطاب ؟
فقد يصدق القول . قد يكذب القائلون ، ويحيا الغبار ويفنى التراب.
وقد تجهض الأم حين تشك بأن الجنين ابنها ، ليعيش الخطاب
خطابى حريتى ، باب زنزانة من ثلاثين مفردة لاتصاب ،
بصدمة واقعها . لاتغير إيقاعها ، ولا تقدم إلا الجواب،
كلامى غاية هذا الكلام
خطابى واقع هذا الخطاب
لأن خطاب النظام
نظام الخطاب..
.. ..
خطابى شد المسافات بين الكلام وبين معانى الكلام
إذا جف ماء البحيرات ، فلتعصروا لفظة من خطاب السحاب .
وإن مات عشب الحقول ، كلوا مقطعا من خطاب الطعام
وإن قصت الحرب أرضى ، فلتشهروا مقطعا من خطاب الحسام
ففى البدء كان الكلام ، وكان الجلوس على العرش
فى البدء كان الخطاب .
سنمضى معا ، جثة جثة ، فى الطريق الطويل على لغة من صواب
وماذا لو ابتعد الفجر عنا ، ثلاين عاما وخمسين عاما.. ونام !
أما قلت يوم جلست على العرش إن العدو يريد سقوط النظام
وإن البلاد تروح وتأتى ؟ وإن المبادئ ترسو رسو الهضاب !
وإن قوى الروح فينا خطاب سيبقى ، ولم يبق غير الخطاب !
فلا تسرفوا فى الكلام لئلا تبدد سلطة هذا الكلام..
ولاتدخلوا فى الكناية كى لانضل الطريق ونفقد كنز السراب
ولاتقربوا الشعر ، فالشعر يهدم صرح الثوابت فى وطن من وئام
وللشعر تأويله ، فاحذروه كما تحذرون الزنى والربا والحرام،
.. وإن زادت المفردات عن الألف باخ الكلام وشاخ الخطاب
وفاضت ضفاف المعانى ليتضح الفرق بين الحمام وبين الحمام
.. وفى لغتى مايدير شئون البلاد ، ويكفى



لنصمد خمسين عام
ويكفى لنستورد الخبز ،
يكفى لنرفع سيف البطولة فوق السحاب،
وفى لغتى مايعبر عن حاجة الشعب للاحتفال
بهذا الخطاب
فلا تسرفوا فى ابتكار الكثير من المفردات ،
وشدوا الحزام
فان ثلاثين مفردة تستطيع قيادة شعب يحب
السلام ،
وإن خطاب النظام
نظام الخطاب..

هوامش

١) الطاغية " دراسة فلسفية لصور من الاستبداد السياسى تأليف د. إمام عبد الفتاح إمام - عالم المعرفة -١٨٣-

٢) مصطلح الكاريزما **charisma** مستمد أصلا من العهد الجديد فى النص اليونانى الذى يعنى « عطية النعمة الإلهية » وأدخله العالم الألمانى ماكس فيبر (١٨٦٤- ١٩٢٠) ليعنى الصفة الخارقة التى يملكها بعض الأشخاص فتكون لهم قوة سحرية على الجماهير .. (المصدر السابق)

سوف تنال الحرية

مختارات من الأدب الدينى الهندوسى

اختيار وترجمة وتقديم : غادة نبيل

هذا هو الدين

لولا ..

لو قرأ الإنسـان فى الهندوسيـة والبوذية – خاصـة فى سن مبكرة سيـبقى معه إحـساس طاغ بالانفساح ، بمفاجأة المسموح ولذة تتجاوز ماهو ندى وسيظل يحمل معه إصر العودة.

تستطيع أن تقيم « صداقة» مع الآلهة أو مع إله اختيارك وأن تفكر فى الإله وتتحدث عنه على أنه عاقل فتقول هو ، أو بوصفه غير عاقل – شيئا ، وقد تبقى بدون تحديد كما تستطيع أن تتذكر اسم «راما» العظيم ولو بسخرية وسيقولون لك هذا مفيد ، لتترنم بسخرية.

أتباع « الأهميزا » – رغم أن منهم عباد شيفا (فى الثالوث الشامل لبراهما الإله الأكبر وفيشنو الحافظ وشيفا المدمر) أو عباد كالى المتعطشة لسفك الدم- يعتنقون مبدأ عدم العنف حتى أن الراهب الجينى (من الجينية أحد أقوى ما انبثق عن الهندوسية) لايمشى ليلا لكى لايطأ بالخطأ أية كائنات حية ولو كانت هواما ويغطى أنفه حتى لايستنشق أو يبتلع بالخطأ أى شئ حى . احترام كل أشكال الحياة وعدم الرغبة فى إيذاء مايتنفس أو توقيع العنف على الأشياء أمور تسيطر على الفكر الدينى الهندوسى والبوذى أو هما يقومان على هذا (لا ننسى أن البوذا كان أميراً هندياً) . يمتد هذا التقديس إلى الجماد فى ظل عقائد أخرى فى اليابان وبعض مناطق شرق آسيا مثل الشينتوية تعظيماً لأرواح الأجداد التى قد تحل فى الشجر ولاتختلف مع الهندوسية فى الايمان بالتناسخ الذى يجعل ربات البيوت الهندوسيات يفتحن نوافذ وأبواب بيوتهن لربما دخلت البيت روح أحد الجدود فى هيئة صرصور طائر الانسجام.

* يجدر أيضا وضع الأرز وزخرفته فى رسومات وتشكيلات إبداعية أمام عتبة البيت للنمل ليأكل، الانسجام النهائى موجود فى الكون . هذا أساس أهيمزا (اللاعنف)

الغول مارا رمز عدم الدوام/ الموت يحكم أنيابه ومخالبه على عجلة الحياة الدوارة التى تضم : ١) الجهل ٢) المزاج ٣) الوعى ٤) الاسم والشكل ٥) مجالات الحس الستة ٦) الاتصال ٧) الشعور ٨) الرغبة ٩) النزوع إلى امتلاك الأشياء ١٠) الصيرورة ١١) إعادة المولد أو الميلاد مرة أخرى ١٢) الشيخوخة والموت.

بداخل العجلة التى لا تتوقف مكان يسمى الجنة ومكان يسمى النار وممالك للانسان وللحيوان وللغيلان وللأشباح الجائعة ورمزية الشجر فى الميثولوجيا الهندوسية لها أهمية خاصة . الشجر مكان مفضل – بعد الغابات – للجلوس والتأمل بالنسبة لليوجى المعتدل أو للزاهد الذى يعذب الجسد بالجوع ورياضات شاقة ويعفره أو يلونه بدهان أبيض ولايحتفظ إلا بما يستر العورة ويتسول طعامه . فشجر الأرز فى الغابة مكان غواية الإلة شيفا لزوجات الحكماء بعد أن دمر جسد إله الحب وحيث إن أولئك الحكماء لم يكونوا قد انتصروا على نزقهم وعواطفهم المشبوبة ، وتحت البو أو التينة

المقدسة يجلس البوذا جلسته الأيقونية بقدمين معقودتين عندما فعل كل مايمكن أن يفعله إنسان لينال الحكمة فصار « المتنور» نائل الإشراق . يمكن للكل منا أن يصبح أيضا بوديساتفا.

اليوم ينتشر الشجر العملاق فى الهند وهم يبنون فى ظله مزارات صغيرة شبيهة بتماثيل العذراء الصغيرة الملونة أو تماثيل وأيقونات بعض القديسين فى صناديق زجاجية وحجرية على الجبل أو فى ظل الشجر على الطرقات فى لبنان.

موقظة اللوتسات

هذا اسم الشمس . الهندوسى يصفها ب « ذلك الطائر الرائع ».

الشجرة والعجلة والشمس رموز كثيرة الاستخدام فى الأدب السنسكريتى القديم وفى تطوره اللاحق العجلة على علم الهند . وقد وجد أحد الباحثين الأوروبيين فى الهندوسية (بوش) رسماً لشجرة على ورق لف الصور فى كتاب عن سيرة الزعيم غاندى مكتوبا بالشعر السنسكريتى يبدو فيها ورق الشجرة الكونية على شكل خريطة الهند وغاندى يبتسم وينظر إلى أسفل من مركز الشجرة التى وضعت فى دائرة الشمس بينما ترسل أشعتها على الأرض حيث يعمل بعض الفلاحين الهنود فى حقولهم . الشجرة والهند شئ واحد.

فى بعض الأحيان يتعامل الأدب الفيدى (نسبة إلى كتب الفيدا أحد أعظم وأقدم المراجع المقدسة للبشرية . منذ خمسة آلاف عام ، مع فكرة التناسخ ليس من حيث كونها إعادة للميلاد وإنما إعادة أو عودة للموت وتكرار له لكن الغياب الكامل لذلك المفهوم فى بواكير الأدب الفيدى والبراهماناسى بشهادة الباحثين فى الهندوسية دفع الباحثين إلى افتراض أن عقيدة الميلاد مرة أخرى تكونت فى دوائر غير فيدية ولهذا فهى ربما تنتمى إلى أصول غير آرية وكلها أمور يرى قسم آخر من الباحثين أنها تحتاج إلى دليل.

مكانة الشمس فى التصوير الدينى الهندوسى تقوم على إيمان بطبيعتها الخارقة (أجنى) مقارنة بالقمر الذى ينقص ويدخل فى المحاق وبهذا يتعرض للتفتيت قبل أن يصل إلى المرحلة الشهرية التى قد يختفى فيها ثلاثة أيام . أما الشمس فهى ليست مضطرة للموت لتنزل إلى الجحيم . والهندوسى يرى أجنى قادرة على النزول فى المحيط أو بحيرة المياة الواطئة.» أو قد تعبرها دون أن « تذوب » . لهذا موت الشمس عنده يوحى بفكرة البعث أو هو ليس موتاً حقيقياً . والمفهوم الهندوسى عن الخليقة يرى التكوين شبيها بتقطيع الأوصال أى بعملية تمزيق أو سقوط من الوحدة الأولية فى التعدد ، وأى مصير فى الخلق المادى هو بالضرورة قمرى بالنسبة لهم لأنه ناقص ومبتسر .

الشمس التى يتغنى بها المؤمن فى الصلوات وفى أشعار الريج فيدا لها قيمة أخرى فى مرحلة الانتقال إلى حياة أخرى بعد الموت ، فالمحرقة تساعد الأشخاص المحررين بنقلهم إلى أقدارهم الشمسية المستديمة على العكس من الأقل حظا الذين يعودون إلى حياتنا الفانية – وإن فى هيئة غير بشرية – عبر دخانها.

الذين يدخلون فى الدخان هم الذين « يكسبون ممالك نظرية » « بالتضحية والزهد والتبرعات » .

من الدخان إلى الليل والقمر يصيرون طعاماً تلتهمه الآلهة ويتحولون من الأثير إلى الهواء إلى المطر إلى الأرض إلى طعام مرة أخرى « فى نار الانسان » ثم يولدون – كما توضح الكتب مصير تلك المخلوقات التعسة – « فى نار النساء» .. أى يواصلون الدورة الشاقة المعطلة للنيرفانا أو الاتحاد مع الخالق . ليسوا مثل الفريق الآخر ، مثل« الذين يعرفون » ويتأملون فى الغابات باخلاص فى كنه الحقيقى . هذا رغم ما سيظهر – من المقتطف والمجتزأ – فى هذه المختارات الدينية الأدبية الرفيعة من التمجيد الهندوسى للحركة والعمل والاستمرار بوصفها الاختيار الأرقى من التسليم.

لكن المردود أو المكافأة الدينية التى لا يتم تحصيلها بطقوس (وهل تخلو عقيدة من طقوس ؟) من نوع التصدق وتقديم القرابين ولا حتى بالأفعال الخيرة وحدها كما أبانت النصوص التى توافرت لى.

هذا هو الدين – لكن

هنا كل شئ يخضع للتأمل « غموض» الطعام مثلا ، وهنا آلهة (مثل براهاسباتى) تغزل وتنسج وتخيط الملابس أو الخلود . وتوجد آلهة تقطع رأسى براهما الإله الأعظم وآلهة ترتعب مع الشياطين من إله بعينه وآلهة تنتقم ممن يهز الجبال التى تجلس فوقها بطحن الشياطين ذوى الرؤوس العشرة باصبع قدمها الكبير.

شيفا اتخذ مرة هيئة عمود من نار بقصد إظهار تفوقه واستعصى على براهما الوصول إلى بدايته رغم أنه طار إلى أعلى عليين كما استعصى على فيشنو معرفة جذره رغم أنه حفر حتى أسفل سافلين.

كان العمود طويلا بلا بداية أو نهاية وصار هذا الرمز القضيبى الصورة الأكثر ذيوعا فى عبادة المدمر.

وشيفا هو الذى يأتى بالنار التى تلزم لإبادة العالم من أسفل عندما تصاب المادة والروح معاً بالتعب ويحتاجان إلى النقاهة . الهندوسى يقول لآلهته أكثر مما يقوله المسلم لربه.

الأوبانيشاد والبيهاجافاد جيتا والبهاجافاتا يورانا والفيدا لاتظهر أرباباً غاضبة ومغتاظة من مخلوقاتها أو عبادا ومؤمنين محبطين (كما نجد فى العهد القديم وخاصة فى إصحاح أيوب) أو عرامة حسية نشوانة بحب الحياة وخصوبة تدفق من الآلهة الذكور فقط أو تتأمل فى حسن الصبايا ومفاتن الأنوثة كما نستمتع عند قراءة نشيد الإنشاد مثلا بقدر ماتتيح هذه الكتب لصوت البشر أن يحاسبوا خالقهم ليشهدوه على معنى الرحمة والعفو وعدم الهجر الربانى لو أن الإنسان كان هو الله

فمن أشعار الريج فيدا :

« ليس لذنب واحد ولا لاثنين أو لثلاثة .

ستذبحنى أيها القوى ، ولاحتى للكثير !.»

والهندوس يعتبرون محتويات الريج فيدا بالذات أشعارا يميل أغلبها إلى الغموض ،ويعتقد الشراح أن هناك أسباباً لغوية تفسر الغموض فيها والذى لايعود إلى شكلها أو لأن هناك قصدية

للإرباك كانت تميز الشعراء المتنافسين فى الريج فيدا خاصة وإنما القارئ الحديث هو الذى ربما فقد مفتاح الرموز التى تشكل رؤية العالم فى العصور الفيدية القديمة.

« عندمت يكون المرء قد اكتشفه ، لغز أبقار الفلق هذا ، مثل فتح يكون قد عثر على أجنى التى تحرس القمة المحبوبة للأرض وتحرس مسار الطائر ».

الدرجما فى الكتب الهندوسية المقدسة قد تكون قليلة قياسا بالاسلام مثلا كما أفادتنى سيدة هندوسية مرة ، رغم أنه لايجب أن ننخدع تماما إلا أنه مما لاشك فيه أن مناطق الحرية أوسع مداراً وأكثر عدداً فى الفكر الدينى الهندوسى بالمقارنة مع تعاليم كتب مقدسة أخرى.

فمن ناحية فكرة تعدد الآلهة هى تأليه للتعدد وإقرار له برسوخ دينى وتربوى ونفسى يصعب أن ينافسه أى إيمان لاحق بأى تعدد آخر على الأقل لأنه الأول والأسبق فى تشكيل المؤمن نفسيا وأقصد أنه حتى خيال الأمى يصبح غير قادر على استيعاب فكرة الواحد الأوحد الذى يجب ماعداه (رغم عدم انتقائها تماما فى الهندوسية فهناك براهما فى النهاية) ولعل جواهر لال نهرو يكون قد عبر مرة عن معنى قريب من هذا - أى عدم القدرة على تصور كون بهذا التعدد ولايكون وراء منه تعدد مماثل أو فائق عنه دون أن يذهب عندهم كل إله بخلقه حتى ولو ذهب ببعض الآلهة الأخرى.

الشئ المميز الأول إذن هو أن يتعامل خيالك ووعيك مع التعدد بوصفه الأصل أو على أنه الطبيعى . الشئ المميز الثانى أنه فى عجلة الحياة التى يمسكها مارا ويحركها فى دوران لانهائى : حتى الالهة تموت (رغم أنه لاموت نهائيا فى ظل عودات أخرى للحياة أو أن هذا هو الموت - العودة المستمرة) ولنتأمل .. فجأة لايكون للرحيل كل تلك القسوة التى تتضمن بعثاً مجهولا وحسابا مجهولا أكثر ضمن ثنائية جنة أو نار فحسب والمسارات المرسومة التى يفترض أن تؤدى إلى أى منهما هناك فرق كبير إذن بين هذا (والجنة والنار الهندوسيان موجودان) وبين أن نلتفت إلى كركدن وتفكر: « ربما هو أبى».

والشئ المميز الثالث هو مبدأ أهميزا عدم توقيع العنف ولو على العدو وهو أساس المقاومة السلبية (ساتياجراها) التى اتبعها غاندى ضد المستعمر البريطانى بما يمكن أن يجعل المواطنين الهنود ينامون على قضبان السكة الحديد أمام قطارات تحمل بضائع من لانكشير فتطحنهم القطارات بدلا من أن تتوقف وبدلا من أن يهاجموها هم ويقتلوا المحتل بأى سلاح . ولعلى لا أرضى عن هذه « السلبية» فى المقاومة.

فى المقابل هذه الركائز يوجد كذلك المؤسف.

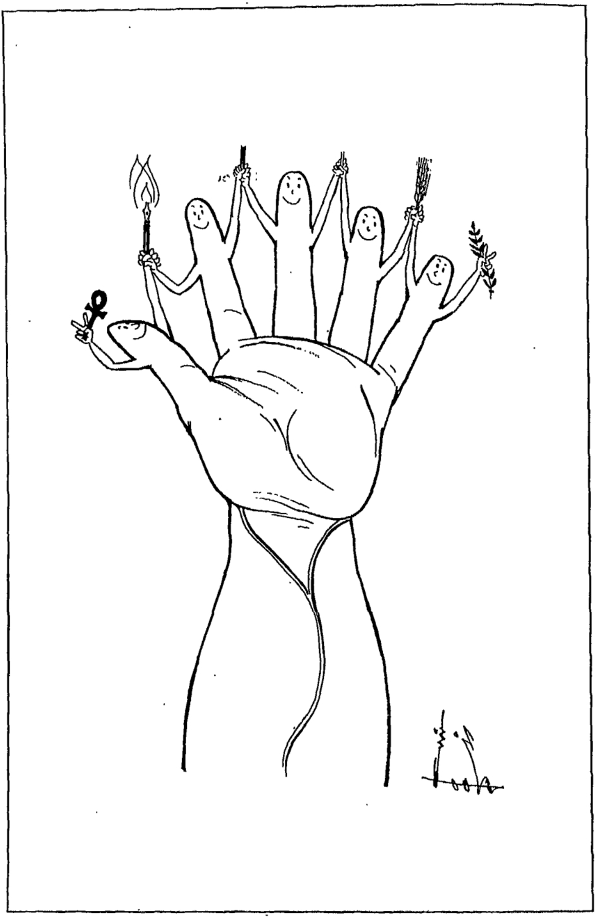
وأول المؤسفات يتصل بنظام الطبقات الهندوسى الثلاثى:

١) البراهمانز يمثلون رأس براهما ويقتصرون على الكهنة (كالعادة)

٢) الكشارتريا يشملون الملوك والمحاربين والنبلاء (الحلف الإقطاعى التاريخى).

٣) الفايزيا وهؤلاء يضمون الفلاحين والتجار.

وتقريبا خارج الثالوث السابق مكان المنبوذين - الشودرا الذين لايستحقون اللمس أو المحظور



لسهم ، فان أردت أن تقدم قطعة نقود إلى شحاذ منهم وكنت من الطبقة الأولى يجدر أن تسقطة من أعلى – فى الهواء – وإلا يتم تحديد طرق التطهر . من المعروف أن القوانين المدنية فى الهند ألغت هذا العسف.

أما المؤسف الآخر – من خلال إطلاع لا يدعى الاقتراب من معرفة وثيقة بالفكر الدينى الهندوسى – فهو أن ثمة جانبا فقهيا جامدا يخص المرأة التى ألغت قوانين الاحتلال البريطانى تقليد ساتى الذى كان يخصها والذى يقضى بانتحار الأرملة المحترمة » حرقا أثناء مراسم حرق الزوج المتوفى .

ويلاحظ أن تدهور أوضاع المرأة الهندية فى العصور الفيدية كان نتيجة للمغالاة فى اعتناق وتفسير المبدأ الفيدى القائل بأن خدمة الزوج فى حقيقتها خدمة للرب بموجب عرف Patideva أى اعتبار الزوج « باتى» هو الرب و« ديفا » زوجته ويماثل الحديث النبوى الاسلامى الذى يفيد نفس المعنى.

سوف أشير إلى ملاحظات عامة ودالة بنفسها.

فى القصص الدينى الهندوسى ياما الرجل الأول وهو كذلك أول من يعرف الموت فيحكم ذلك العالم ويصير سيداً على الجحيم . ياما هذا له أخت توأم اسمها يامى المرأة الأولى . ويامى تغوى ياما وتحرضه على زنا المحارم – مالم يكن قد حرم بعد – لكنه بعفة فطرية أو فطرة أعلى ربما ، لايستجيب.

وهنا تتدخل الكيرانا تانترا أو ترانيم الشعاع لصالح المرأة بعض الشئ على الرغم من أن العقيدة الراسخة لدى الهندوسى ترى المادة شيئا مؤنثا وأنها هى التى تغوى وتخدع الأرواح التى ينظر لها على أنها مذكر وفقا للسانخيا بحيث تتوحد هذه الأرواح بالخطأ مع أجسادها المادية وتظل فى حالة ميلاد مستمرة ومتكررة فى هذا العالم.

لكن الكيرانا تانترا تبين الإله أقل عدوانية وتحيزا ضد المرأة لأنه يعلمنا أمرا مهما فان كان عدم النقاء شيئا لا مبتدأ له شيئا كامنا إلا أن المادة الأولية لاتخدع لأن الأنثى أيضا « تنور » وعى الروح .. هذه الإضاءة « كشف » يقابل التلوث / عدم النقاء الذى هو انسداد. لكن كشف قوة أو قوى الروح هو أيضا عدم نقاء فالغواية فى المادة الأولية سببها ماتتيحه للروح ، ماتمنحه لها بالتجربة، والمقصود : من خلال معرفة « مذاق» الأشياء الخارجية.

أما من كتاب ياجنافالكيا فى الشريعة فأسوق الأمثلة الآتية:

١) أولئك الذين رفضوا سلطة الفيدا ، والذين لم يتبنوا واجبات أى من المسارات الأربعة للحياة ، اللصوص والنساء اللواتى قتلن أزواجهن والنساء الفاجرات وأشباههن والنساء اللواتى يعاقرن الخمر واللواتى انتحرن ! (علامة التعجب من عندى) ليس لهن الحق فى أن يراعى أقاربهن فترة من عدم الطهارة عقب موتهن ولاحق لهن فى إراقة الماء عليهن (للتكريم).

٢) من بين الأبوين ، التلوث الناتج عن الولادة يلتصق بشدة بالأم وحدها طيلة عشرة أيام لأن دمها يكون قد شوهد . أما يوم الميلاد فلا يعد يوما ملوثا لأنه يمنح الميلاد للأسلاف.

٣) النقاء يتحقق فى الحال لأقارب أولئك الذين ماتوا على يد ملك أو بقرة أو براهمين وبالنسبة لأولئك الذين انتحروا !! (علامات التعجب من عندى).

٤) التلوث فى أعقاب ميلاد أو موت أحد الأقارب يزول عن طريق تقدمه كرات الأرز ويستمر ذلك اثنى عشر يوما بالنسبة للكشاتريا وخمسة عشر يوما بالنسبة للفايزيا وثلاثين يوما للشودرا (المنبوذ) ونصف تلك المدة فقط لو أنه - أى المنبوذ - كان مطيعاً.

٥) الملوك ليسوا عرضة للتلوث ! (كيف سأكف عن وضع علامات تعجب ؟ ولا أقارب هؤلاء الذين ضربهم البرق أو الذين قتلوا فى مشاجرة لصالح بقرة أو براهمين ولايعتبر عرضة للتلوث أى شخص يشاء الملك أن يختاره ليكون غير ملوث.

٦) عندما يتعرض المرء للمس من المرأة الحائض أو من الملوثين وجب عليه الاستحمام . أما إذا تعرض للمس ممن تعرضوا للمس من المرأة الحائض أو من قبل الملوثين فيجب أن يرتشف الماء ويقوم بانشاد ثلاث ترانيم للماء وبانشاء الجياترى فى السر مرة واحدة.

فى الميثولوجيا الهندوسية الشياطين هى التى تحسد الكلام والعين والأذن والعقل والشهيق والزفير - تحسد هذه الأشياء على قدرتها على أن تغنى وهى ترتعب من رغبة الالهة فى سماع الأشياء من الانسان وهو يغنى فتجرى نحوها لتثقبها بالشر . لكن الآلهة تنتصر ومعها الانسان والغناء لهذا تفاجئنا الأسطورة فى البرها وارنياكا بأنه يصح أن يجد الانسان طعاما لنفسه بالغناء ، وتحكى أنه لما تحررت العين من الموت صارت شمسا ولما صارت الشمس وراء الموت صارت تشع بقوة أكبر والرائحة - أية رائحة - عندما تتحرر من الموت تصبح الريح ويتجاوز الموت تصبح الريح نقية ويتم استنفاذ الحواس كلها من الموت . وأخيرا يتم انقاذ العقل من الموت . الالهة طول الوقت تريد أن تبهج نفسها بسماع غناء نفس الإنسان والشياطين تتكاثر داخل نفسها أما النفس فيغنى إلى الخارج بالطعام . كل الطعام المأكول يسيطر عليه النفس . بذا يتحقق مجئ الإنسان.

أثناء الأغانى يمكن للإنسان أن يطلب مايشاء خاصة الأغنية / النفس لو أنشد بأداء ذكى الكلمات التالية :

من اللاحقيقى قدنى إلى الحقيقى

من الظلام إلى النور

من الموت إلى الخلود

اجعلنى خالداً.

فى المقتطفات التالية التى وضعت لأغلبها العناوين بينما البعض الآخر قرأته بالعنوان أو التصنيف الهندوسى أحسست أكثر من مرة أننى أقرأ من كتاب الموتى المصرى ، أما البوذا ففى غير موضع يذكر بحديث إبراهيم وهو يبحث عن ربه ولايرى بالقمر والشمس لأنهما من الآفلين .

« بالحقيقة تستند الأرض » .

لأننى من المفتونات بالحقيقة كما تمنى الهندوسى أن يعرفها ليسند بها قلبه ولأنها - كما يؤمنون - الإله فى آخر المدى الذى هو نار التى هى فى الكلام الذى هو فى القلب الذى هو فينا وإلا لأكلته الكلاب أو مزقته الطيور قطعاً صغيرة » أقدم هذه المختارات بتواضع، وعلى الطريقة الهندية أنحنى لألمس أقدم الحكماء مؤلفى كتبهم المقدسة وبنفس الكف الأيمن ألمس رأسى بسرعة

غ.ن

نار

جواتاما ، العالم الذى فوق نار، الشمس وقوده ، شعاع الشمس دخانه ، النهار شعلته ، القمر فحمه ، والنجوم شرره.

فى نفس هذه النار تقدم الآلهة الايمان ومن هذا القربانى يكون الملك سوما .

جواتاما ، سحابة المطر نار ، الريح وقودها ، السحاب دخانها ، البرق شعلتها ، ضربة الصاعقة ، فحمها والبرد شررها فى نفس هذه النار تقدم الالهة الملك سوما ومن هذا القربان يكون المطر.

جواتاما ، الأرض نار ، السنة وقودها ، الفضاء دخانها ، الليل شعلتها ، جهات البوصلة فحمها والجهات الوسيطة للبوصلة شررها .

فى نفس هذه النار تقدم الالهة المطر ومن هذا القربان يكون الطعام.

جواتاما ، الانسان نار ، الصوت وقوده ، النفس دخانه ، اللسان شعلته ، العيون فحمه ، الآذان شرره . فى نفس هذه النار تقدم الآلهة الطعام ومن هذا القربان يكون المنى.

جواتاما ، المرأة نار ، القضيب وقودها ، عندما يجتذبها رجل هذا دخانها الشفرتان شعلتها وعندما يخترقها ، هذا فحمها واللذة شررها .

فى نفس هذه النار تقدم الآلهة المنى ومن هذا القربان يكون الجنين.

وهكذا فانه بالقربان الخامس يكتسب الماء صوتا آدميا .

مغلفا بالنسيج يحيا الجنين داخل الرحم مدة تسعة أو عشرة أو مايمكن من شهور ثم يولد.

متى ولد يعيش مدته المحددة وبعد أن يموت يحمل من هنا إلى المحرقة ليذهب إلى المكان المحدد الذى منه أتى ، الذى منه نشأ .

الكتاب الخامس – الشاندوجيا أوبانيشاد)

* جواتاما هو الاسم الأصلى للبوذا – سيدهارتا جواتاما .

الآتى بالجميل

الشخص الذى يرى فى الشمس هو أنا . هو أنا بحق.

الشخص الذى يرى فى القمر هو أنا . هو أنا بحق.

الشخص الذى يرى فى البرق . هو أنا . هو أنا بحق.

هذا الشخص الذى يرى فى العين . هو الذات . هو الخلود .. هو الحرية من الخوف هو براهمان . وحتى لو سكبوا السمن أو الماء على العين فان هذا ليسيل نحو الأطراف.

يدعونه التقاء الجميل (ساميا دفاما) لأن كل الأشياء الجميلة تلتقى عنده كما تلتقى كل الأشياء الجميلة عند الرجل الذى يعرف هذا .

الآتى بالجميل هو كذلك (فامانيه) لأنه يأتى بكل الأشياء الجميلة مثلما يأتى بها الرجل الذى يعرف هذا .

الآتى بالنور هو كذلك (بهامانيه) لأنه فى كل العوالم لم يسطع مثلما الرجل الذى يعرف هذا يسطع فى كل العوالم

الشاندوجيا

أوبانيشاد

دعاء السعادة

لنبصر مائة خريف

لنعش مائة خريف

لنعرف مائة خريف

لتصبح مائة خريف

لننتعش مائة خريف

لنكن مائة خريف

لنصبر مائة خريف

– بل وأكثر من مائة خريف!

(الفيدا)

اكتشاف الندى

« ركب الأمير يوقانجايا عربته وخرج إلى حديقته ليتسمتع وعندما رأى حبات الندى مثل خيوط من لؤلؤ على أطراف القصبات مثلما هى على رؤوس الشجر والحشائش ونهايات الفروع ونسيج بيوت العنكبوت سأل:

يامرافقى فى العربة ماذا يسمون هذه؟ .. وجاءه الجواب « يسمونها حباتّ الندى ، تهطل فى موسم البرد » .

(الريج فيدا)

العروس المنتظرة

الكثيرون الذين يرون الكلمة المقدسة لايرونها فعلاً.

الكثيرون الذين يسمعون لايسمعونها فعلا.

ولكن للكثيرين هى تظهر جسمها

مثل عروس فى أجمل ثوب ترغب فى زوجها.

(الريج فيدا)

حق الأسئلة

كم عدد النيران ؟ كم عدد الشموس ؟ كم عدد مرات الفجر وكم فعلا عدد المياه ؟ .

ليس لإغاظتكم أجادل أيها الآباء!.
أسألكم يا من ترون الشعراء ، أن تعرفوا بحق.
(الريج فيدا)

قدس الأقداس
الحليب الثمين للبقرة فى جلد
الطعام ، قرص الشمس قد صعد إلى قمة الأرض.
(الريج فيدا)

الاختلاف
بلا أقدام تتقدم هى ، قبل أولئك الذين لهم أقدام
من منكم يفهم.هذا ياميترا فارونا؟
حتى الرحم يحمل وزنه
الشمس تدعم النظام بعد أن أخضعت الفوضى.
(الريج فيدا)

الطبيعى
لو يولد حصانا ، إنه بلا لجام
جواد مطهم يصهل ، يطير عائداً دون أن يمدحوه
(الريج فيدا)

من أغانى الحجيج
الحظ المتعدد من نصيب من لايتعب
هكذا سمعنا ياروهيتا
إنه لجنس شرير ذلك الذى يجلس
إندرا يرافق المسافر
لتظل سائرا ، لتظل سائراً !
المسافر هو الذى يعثر على العسل
المسافر يعثر على التينة الحلوة
تأمل بهاء الشمس
التى رغم تجوالها الدائم ، لاتتعب !.
المجبر
تحت جفول المكره الإلهى
بالقوة للأذرع
والروح للأيادى

أنا المجبر ، أمسك بك !

(الريج فيدا)

رقوة الصداع

من قدمك وركبتك وأردافك
من عجيزتك وسلسلة ظهرك
من عنقك ورأسك
طردت كل مرض!
سليمة . هى عظام جمجمتك
وقلبك هاهو يدق بانتظام مرة أخرى.
بشروقك أيتها الشمس
طاردت – بأشعتك الصداع بعيداً.
وأوقفت الألم المبرح.

الريج فيدا

الحياة استثناء

كل كائن غير مرئى فى بدايته
وغير مرئى فى نهايته
يكون مرئيا فقط فى الحالة الوسطى
فلماذا النحيب ؟

(البهاجافادجيتا)

اعمل بدلا من أن تسلم

إن كلا من نبذ الأعمال وممارستها
يؤدى إلى الخالق الأعلى
لكن من بين الاثنين طريق العمل
أفضل من طريق النبذ.

صلاة الأشياء

عندما يضحك المرء وعندما يأكل
وعندما يمارس الجماع .
فانه بهذا يشارك فى الترانيم
والمحفوظات الدينية.

دعاء ضد الأعداء

بعثر أعداءنا يا إندارا ، اخضع

أولئك الذين يهاجموننا
أبعث بهم إلى أسفل الظلمات
أولئك الساعين إلى تدميرنا
عن الخطيئة والرحمة
افتح نفسك ، اخلق فضاء حراً
اطلق سراح السجين من سجنه
مثل طفل حديث الولادة ، محرر من الرحم
كن حراً لتتحرك على كل طريق.

السؤال الأم

أسألك : ماهى أبعد نقطة للأرض ؟
أسأل : أين سرة العالم ؟
أسألك : ماهو منى الحصان القوى ؟
أسأل : ماهى أعلى أسماء للكلام ؟

(الريج فيدا)

العالم يقوم
على التضحية

هنا فى هذا العالم ، الذى لايحرك عجلة الحياة المضحية
التى دارت بفعل التضحية الأسبق
هو مؤذ لنظام العالم ، يجد المتعة فقط.
فى الحسى
امرؤ كهذا ، ياأرجونا ، يحيا سدى

طيور الشجرة

طائران رفيقان يحتلان نفس الشجرة. أحدهما يأكل التينة الحلوة والآخر ، لأنه لم يأكل منها بعد ، يتطلع فوق تلك الشجرة كل الطيور الآكلة للعسل تضئ وتكبر .

يقولون إنه على قمتها فقط التينة الحلوة، لايطالها من لايعرف الأدب.

سمك

يقول البوذا : سوف أعلن سبب حزنى حيث ارتعشت : كان ذلك عندما رأيت الناس يتخبطون كالسمك إذا جفت البرك ، عندما شهدت صراع الانسان مع الإنسان أحسست بالخوف وهكذا حتى رأيت شوكة الشر التى تقيح قلوب البشر».

القافز بين الشواطئ

إذا كان طعامك نقيا فكل طبيعتك ستكون نقية وإذا كانت كل طبيعتك نقية لن تضعف ذاكرتك ،

وإذا صرت سيداً لذاكرتك فكل عقد الشك المربوطة فى قلبك سوف تنحل.
ولمثل هذا الذى زالت عنه كل البقع يظهر سانات كومارا المبارك الشاطئ الأبعد وراء الظلام.
يدعونه سكاندا « القافز من شاطئ إلى شاطئ» . سكاندا هو اسمه ».
أحبك بشدة
مثل النار المشتعلة
التى تحول وقودها إلى رماد
نار الحكمة
تحول كل الأعمال إلى رماد
الرجل غير الحكيم ، الذى بلا إيمان
الذى يشك من القلب
لابد وأن يغنى:
لادور فى هذا العالم لرجل الشك
ولا فى العالم الآخر ولا فى السعادة
وقال الإله المبارك
هكذا أنا أيضا اخترق الأرض
وبهذا أقيم أود كل الكائنات بقوتى
أصبح سوما القمر – النبات ، نفسى رحيق الحياة
أسبب نمو كل الأعشاب الشافية.
عندما أكون النار الهاضمة ، أسكن فى جسد كل مايتنفس
متحدا ، مع الأنفاس الداخلة والخارجة
اهضم الطعام أربع مرات
أجعل سكناى فى قلوب كل شئ
متى تنبثق الذاكرة والحكمة التى تدحض الشك
فى كل الفيدا أنا هو الذى يجب أن يعرف
لأن صانع هدف الفيدا هو أنا وأنا الذى أعرف الفيدا.
من كل هو غامض ، الأكثر غموضا
هذه الحكمة التى حكيت لك عنها
لتتأملها فى كل اتساعها
ثم افعل ماشئت
والآن مرة أخرى ، اعط أذنك لهذه كلمتى العليا
الأكثر غموضا :

« أحبك بشدة »
ولهذا سوف أخبرك بخلاصك
أبدا لايجب أن تخبر بهذه الكلمة
شخصا بعيدا عن الزهد
فارغاً من كل حب وإخلاص
أو شخصا عصيا
أو حاسداً لى .

(البهاجادفاد جيتا)

عظمته

لافرح فيما هو صغير (نهائى)، وحده اللانهائى هو الفرح

حيث لايرى المرء شيئا آخر ولايسمع شيئا آخر ولايعرف شيئا آخر . هذا هو النهائى . لكن حيث يرى المرء شيئا آخر ويسمع شيئا آخر ويعرف شيئا آخر فهذا شئ صغير (لأنه نهائى).

اللانهائى يشبه الخالد والصغير النهائى يشبه مايموت.

...

....

على ماذا يقوم اللانهائى هذا ؟

« على عظمته هو وإلا فانه لايقوم على أية عظمة»

هذا اللانهائى تحت وفوق وإلى الغرب وإلى الشرق وإلى الجنوب وإلى الشمال . بحق هو كل العالم.

بعد هذا يأتى التعليم الخاص بالأنا.

« أنا تحت ، أنا فوق ، أنا إلى الغرب ، إلى الشرق ، إلى الجنوب ، إلى الشمال، بحق أنا كل العالم ».

بعد هذا يأتى التعليم الخاص بالذات.

« الذات تحت ، الذات فوق ، الذات إلى الغرب ، إلى الشرق ، إلى الجنوب ، إلى الشمال بحق ، الذات هى كل العالم.

الرجل الذى يرى ويفهم هكذا تكون له المتعة فى الذات ، يلعب مع الذات ، يستلقى مع الذات ، وتكون له بهجة مع الذات : يصبح سيد نفسه . فى كل العوالم و(طوار الكينونة حرية تكون ملكه.

أما كل من يفهم الواقع على أى نحو غير هذا فيكون عبداً لغيره وأطوار كينونته تصبح قابلة للفناء وفى كل العوالم أو أطوار الكينونة) لاتكون له حرية حركة.

(الشاندوجيا أوبانيشاد)

الذين لايرجعون

وهناك يوجد شخص ليس بانسان.

يقودهم إلى براهمان . هذا هو طريق الآلهة ، طريق براهمان.

أولئك الذين يتبعون ذلك الطريق لا يرجعون أبدا إلى الحياة البشرية لا يرجعون أبدا..

نفس الحياة.

أنت لاتفنى

أنت لاتتحرك

أنت صلب فى نفس الحياة

ما الذى سوف أقوله ؟

أنا لا أفهمه حقاً

الخيط ، أو كيف أنسج ، أو

ما الذى ينسجونه بينما بقية المتسابقين يدخلون أرض السباق

هنا بالضبط ذلك الأصيل ، انظروا إليه.

هذا النور ، هذا الخالد بين كل هؤلاء الفانين.

هاهو ، فوق المذبح بثبات

جالس ، لايموت ، ينمو بالجسد.

ضوء ثابت موجود للرؤية – عقل

أكثر هربا من بين كل مايهرب !

كل الآلهة ، بعقل واحد وبنية واحدة

تذهب فوراً وراء هذا

نحو هذا الإلهام الأوحد !

بعيدا تحلق أذناى ، بعيدا

تحلق عيونى .. بعيداً

صوب هذا النور

الذى يقوم فى قلبى

بعيدا يتجول عقلى

روحه تمضى إلى مسافات نائية

ما الذى سوف أقوله فعلا

أو حتى ما الذى سوف أظنه ؟.

الواحد

واحدة فقط هى أجنى (النار) رغم أنها اشتعلت مراراً

شمس واحدة رغم أنها تشرق للجميع،
واحد فقط هو الفجر رغم أنه يضئ كل هذا
واحد بحق من هذا الذى أنتج كل شئ.

الباب

١) ياما يتكلم :

اختر أبناء ،أحفاداً ليعيشوا مائة عام
اختر الغنى فى الماشية والجياد والفيلة والذهب
اختر أملاكاً واسعة فى الأرض
وعش سنواتك بأى عدد منها تشاء
أو إذا فكرت أن هذه عطية مساوية
اختر ثراءً وحياة طويلة
لتكن من العظماء فى الأرض
أمنحك المتعة بكل مايمكن أن ترغبه
كل مايمكن لرجل أن يرغب فيه
فى عالم البشر هذا
ومهما كانت صعوبة نيله
أطلب ماتشاء بملء اشتهائك
نساء جميلات ، عربات ، آلات موسيقى.
مايشبه هذا لايمكن لرجال آخرين الحصول عليه.
كل هذا أمنحك ، اخضع كل هذا لخدمتك
ياناسيكيتاس ولاتسألنى عن أى شئ آخر.
له علاقة بالموت.

ناسيكيتاس يتكلم :

أيها الموت

إصباحات الانسان تذيب
قوة كل الحواس
الحياة وإن عيشت كاملة قصيرة حقا
لتحتفظ إذن بعرباتك ، لتحتفظ بأغانيك ورقصاتك!
بالثروة لايقنع الانسان
إذ متى رأيناك كيف يمكن أن نحصل على الثروة؟.
طالما سنحيا كما تقرر لنا (المدة)

هذه إذن هى العطية الوحيدة التى أسألها.
أى رجال فانين ، أصابتهم الشيخوخة والبؤس هنا فى الأسفل.
يمكن أن يقابلوا الخالدين ، الغرباء على الشيخوخة.
يعرفونهم ، ثم يظلون يتأملون الألوان والمتع والمباهج.
فيجدون بعض السلوى فى تلك الحياة مهما طالت.
لكن حيث إن الناس حائرون ويستريبون ، أخبرنا أيها الموت
ما الذى يحدث عند المغادرة الكبرى ، أخبرنا
هذه هى الهبة المختبئة فى الأماكن السرية (القلوب)
لهذا فان ناسيتكاس لايطلب هبة أخرى

كاتها أوبانيشاد

محاسبة الإله

آه يا أجنى
ابن القوة
الصديق المشرق
الذى نعبد
لو كنت أنت الفانى
وأنا الخالد
لم أكن لأتركك
للألسنة الشريرة
أيها الطيب ، أو للافتراءات على السمعة
أيها الموثوق به
المؤمن بى ماكان ليبقى
فى الحزن
ياآجنى
أو فى الخطيئة
ماكان ليبقى مكروهاً !

مدينة براهمان

هذه مدينة براهمان الحقة ، فيها تركزت كل الرغبات . هذه هى الذات مستثناة من الشر ، لم يمسها تقدم السن أو الموت أو الحزن ، لم يمسها الجوع أو العطش ، هذه هى الذات التى رغبتها هى الحقيقى ، التى فكرتها وإرادتها هى الحقيقى.

(الكتاب الثامن – الشاندوجيا – أوبانيشاد)

الموت له أمنية

فى البداية لم يوجد شئ هنا أبدا وكل هذا العالم كان مغلقاً بالموت – بالجوع ، وماذا يكون الموت سوى الجوع ؟

وفكر الموت فى نفسه : « فقط لو كانت لى ذات ! » وأخذ يتجول ويثنى على الأشياء.

ومنه – بينما كان يمتدح كل شئ – ولد الماء وقال الموت لنفسه : « نعم ، لقد كانت لى بهجة أن أثنى على الأشياء وهذا ما يأتى بالنار . البهجة هى نصيب من يفهم أن هذا مايجعل النار ناراً».

ثم تستفيض البرهادرانياكا أوبانيشاد فى وصف كل مايتبثق فعندما تمنى الموت نفساً أخرى قام بمجامعة الكلام عن طريق العقل وكل ما ولد من هذه المعاشرة كان الموت يأكله وعندما انتفخ كثيرا « لأنه يأكل كل شئ » اشتاق لأن يصبح جسده مستأهلا لضحية وأن تكون له هوية تخصه.

لأنه كان منهمكاً ومستهلكاً فى أعمال تفكيرية عنيفة ، الأمر الذى كان يخرج الأنفاس الرئيسية مثل المجد والقوة.

إغـــواء

إحدى الراعيات المتعبات ضغطت إلى ثديها يد اللوتس البلسمية لكريشنا الذى كان واقفا بجانبها ، وطوال الوقت كانت تغنى وترقص بخلخالها المصلصل وأجراس طوقها.

كل واحدة من الراعيات نالته كعشيق حبيب كشمى (رادها) الأوحد ، ولعبن وأنشدن فيه المدائح بينما ذراعاه تطوقان أعناقهن .

رقصت الراعيات مع الإله فى تجمع الراسا الذى يغنى فيه النحل بمصاحبة أصوات أساورهن وحليهن . أكاليلهن كانت تنزلق من شعورهن ووجوههن تلمع من العرق . خدودهن كانت مزينة بأطراف خصلات شعرهن وبراعم اللوتس مدلاة على آذانهن.

وهكذا لعب سيد لا كشمى مع جميلات فراجا مثل طفل مرتبك بانعكاسات وجهه فى المرآة ، محير بالضحك وألعاب الحب غير المقيدة ونظرات الغرام والعناق والأحضان.

كانت حواسهن فى اضطراب بفعل اللذة الشديدة التى أحسسن بها من لمس جسده وصارت نساء فراجا اللواتى انزلقت أكاليلهن وحليهن غير قادرات على تمليس شعرهن أو حجابهن أو شدادات صدورهن أيها الكورو العظيم فقدت نساء الآلهة فى عرباتهن السماوية وعيهن عند روية ألعاب كريشنا كن يتألمن من الحب أما القمر فكان بكل حراسه فظلوا فى عجب.

وضاعف (الإله) نفسه بحيث صارت منه نسخ بعدد ماهناك من النساء وعلى الرغم من أنه مكتف بنفسه ويستمتع بذاته إلا أن الإله استمتع باللعب بينهن .

الحنون ، ظل يمشط وجوههن بيده مانحة البلسم ، أيها الملك أنكا ، بعد أن أرهقهن الجماع العنيف . عظمته الراعيات بنظرات ضاحكة كرحيق ، لامعة بجمال الخدود المشدق الذى تجمله خصلات شعرهن وأقراطهن الذهبية المرتعشة ، ذلك الثور بين الرجال وهن يرتجفن من لمسة أظافره ويتغنين بأفعاله المباركة.

ولتخليصهن من تعبهن نزل معهن إلى الماء متبوعا باله الموسيقيين الإلهيين - النحل الذى كان يحلق حول إكليله كان إكليله الآن مهروساً فى الأحضان من أجساد الراعيات وأرجا بخفة برائحة الصندل من أثدائهن تماما مثل فيل - ثور متعب يحطم السدود وهو يقفز فى الماء مع إناثه الفيلة.

منتثر تماما بالماء من جانب النساء الضاحكات ومغمور ، أيها الملك ، من كل جانب ، بالحب ، ومكرم من هؤلاء الذين فى العربات الإلهية وهم ينثرون البراعم ، أخذ متعته معهن هنا كيفما أراد وهو يلهو كفيل / ثور رغم أنه يستمتع بذاته . ثم بعد هذه الألعاب المائية بدأ يتجول فى الغابة بجوار نهر اليامونا مثل ثور شهوانى مع إناثه يحوطه النحل والراعيات المفتونات وفى كل ركن من الغابة كان الهواء متبلا بعطر براعم من الأرض أو الماء.

بهذه الطريقة كان كريسنا يقضى كل الليالى المجيدة مع أشعة القمر وحيث يوجد مزاج الحب الذى يناسب الحكايا فى شعر الخريف ، محاطا بنسوة مفتونات ، صادقا فى رغباته ومحتفظاً بمنيه بداخله.

ثم تكلم الملك :

الإله سيد الكون نزل فقط بجزء من نفسه ليقيم النظام الأخلاقى ويقمع مايخالف ذلك.

كيف يمكن له ، للمعلم ، الخالق ، حامى الحدود الأخلاقية أن يفعل هذا الفعل النقيض أيها البراهمانى ويلمس زوجات رجال آخرين ؟

لماذا فعل سيد اليادو(سكان فراجا واسم ملكها الذى انحدر منه كريشنا) الذى كل رغباته محققة شيئا مقززاً؟ أيها الحكيم ، امحق شكى أنا الذى أراعى تعاليمك إلى حد القسوة.

تكلم سوكا الجدير بالاحترام فقال :

هذا التجاوز لما هو صحيح ، وهذا الافراط فى إشباع الشهوة من خصائص الآلهة لايدمر أهل الرعونة والنزق مثلما لايمكن أن يدمر النار الآكلة.

كل من ليس إلها لايجب أبداً - ولاحتى فى الفكر - أن يفعل مافعله هو (الإله).

ماتعلمه الالهة حق وأحيانا كذلك يكون بعض مايفعلونه . الرجل الحكيم يجب أن يفعل مايتفق مع مايعلمونه . أولئك الذين تمتعهم عبادة تراب أقدامه اللوتس ، والحكماء الذين نفضوا عنهم أسر كل الأفعال السابقة بقوة اليوجا التى مارسوها يمكن أن يسلكوا كيفما يريدون بدون الأسر كنتيجة للأفعال المرتكبة .(ثم أنه يفعل هذا بجسد اكتسبه هو بارادته).

لم يغضب رجال فراجا من كريشنا إذ أنهم انخدعوا بقوته الهائلة . كل منهم ظل يعتقد أن زوجته بجانبه.

وانتحبت الراعيات بصوت عال وهن يغنين لإله الحب نفسه مجسداً أمام عيونهن . مكللا ومرتديا الأصفر بابتسامة على وجهه اللوتس. وعندما رأين أن حبهن قد جاء اتسعت أعين النساء بالبهجة ووقفن جميعا فى لحظة واحدة مثل أطراف الجسد عندما يدخلها نفس الحياة.

إحدى الراعيات أمسكت بفرحة بيد ساورى اللوتسية بكلتا يديها وأخرى رفعت على ذراعها

ذراعه الملطخة بالصندل وراعية أخرى نحيلة أمسكت بالبقايا المضوغة لبزرة الكوثل التى كان يحملها وراعية أخرى – على أثدائها وثمة راعية منجذبة بعنف عشقها جدلت حاجبها وعشت شفتيها ، وظلت تحدجه ذاهلة كما لو كانت ستقتله بهجمات تحديقها الجانبى الطويل.

لم تكتف احداهن على الرغم من أنها شربت رحيق لوتس وجهه وتبلته بعيون لاترف مثل الحكماء الذين يتأملون أقدامه فحسب.

وهناك راعية أدخلته فى قلبها من فتحتى عينيها وأغلقتهما وظلت تحضنه هكذا بكل شعيرات جسدها منتصبة مغمورة بسعادة قصوى مثل يوجى.

كلهن ابتهجن إلى أقصى حد لمرآه هو " وليمة للعيون ، ونفضن الألم الذى عانيته من أثر فراقه مثلما يحدث للناس الذين يبلغون الكلى المعرفة.

(البهاجافاتا يورانا)

مقارنة

« الشخص والطبيعة » : ماهذا ؟
كلاهما بلا بداية . أعلم هذا
وأعلم أن التغير والخصيصة
تنشأ من الطبيعة .
يقولون إن الطبيعة نفسها
سبب الأسباب والنتيجة والوسيط
ويقال إن « الشخص » ، هو السبب
فى تجربة المتعة والألم

(البهاجافاد جيتا)

بحـــر

ولما صار جواداً مطهماً حمل الآلهة ولما صار فحلاً حمل الآلهة الأقل مكانة (الجاندهارفاس) ولما صار فرسا سريعة حمل الشياطين فلما صار حصانا حمل الرجال.

البحر يمت له بصلة قربى.
البحر مكانه

(الريح فيدا)

العالم كجواد القرابين

أوم*

حقا الفجر رأس جواد القربان ، الشمس عينه ، الريح نفسه ، النار الكونية فمه المفتوح . العام جسد جواد القربان ، السماء ظهره ، الهواء كرشه ، الأرض الجزء الأسفل من كرشه ، أرباعها جوانبه والأرباع الوسطى ضلوعه ، المواسم أطرافه ، الشهور وأنصاف الشهور مفاصله ، الأيام

والليالى أقدامه ، النجوم عظامه ، السحب لحمه .

الرمل هو الطعام الذى فى معدته ، الأنهار أحشاؤه ، كبده ورئتاه هما الجبال ، والنباتات والشجر هما شعره . الشرق جسده من أمام ، والغرب عجيزته ، حين يتثاءب يكون ضوء ، حين يهز نفسه تكون صاعقة ، وحين يبول يكون مطر.

* أوم : الحرف المقدس فى البوذية التيبتية(هناك أنواع من البوذية) وفى الهندوسية.

(الكتاب الأول – برهادارنياكا أوبانشاد)

مايجب فعله

بعد أن يستمعوا إلى هذا يجب أن يعودوا إلى بيوتهم يتقدمهم الأطفال . وبهدوء يجب أن يمضغوا أوراق شجرة النيم (النيمبافالكيا)

(الياجنافالكيا)

فنـــاء

الأرض سوف تفنى والمحيط والالهة سوف يفنون

كيف للبشر الذين كالزبد ألا يفنوا ؟

(الياجنافالكيا)

لاتبـك

كعاجز يبتلع الميت اللعاب والدموع التى يتركها أقاربه تسقط.

لهذا لايجب أن يبكى المرء ..

(الياجنافالكيا)

نتعلم الأمل

ذلك الذى وضعت فيه الأجزاء ، مثل مكابح فى محور العجلة . أعرفه مثل روح يجب أن تجربها بحيث لايبدو الموت وكأنه يحوطك بشكل كامل.

(من أشعار الريج فيدا)

عقل الشعب

من الرغبة تنبثق الرغبة

تقفز من قلب إلى قلب

عقل شعبى

اجعل ذلك العقل عقلى!

(الريج فيدا)

دعاء لعدم الخضوع

ليظل صوتى قوياً

ولايهتز نفسى

ليظل إبصارى وسمعى حاداً
ولايتحول شعرى إلى الرماد
أو تصبح أسنانى سوداء
ولاتضعف ذراعاى أو تصبحان بطيئتين
لتظل أردافى صلبة
وسيقانى سريعة العدو
ولاتتعثر أقدامى أو تتدل بضبعف
لتبق أطرافى كاملة
كل منها يؤدى وظيفته
لتظل روحى إلى الأبد غير خاضعة!

(الريج فيدا)

ليأت السلام بالسلام

السلام على الفراديس ، على السماء وعلى الأرض
.السلام على المياه ، على النباتات وعلى الأشجار
السلام على الآلهة ، على براهمان السلام
السلام لكل الناس ، مرة ثم مرة أخرى
– السلام أيضا لى

(الريج فيدا)

حيرة الأوزة

فى عجلة الخليقة الضخمة هذه
حيث كل من الحياة والموت موجودان للجميع
الأوزة تدور ، محتارة
تعتقد أن روحها الداخلى ، ومن يدير العجلة.
مختلفان
ثم – ملهمة بذلك – تجرب خلودها

(الريج فيدا)

أن لاتكون منقسما

متحد أنا ، غير منقسم إطلاقا
روحى متحدة
بصرى متحد
سمعى متحد

نفسى متحد – فى الشهيق كما فى الزفير
نفسى المستمر متحد
متحد ، غير منقسم إطلاقا
كلى

(الريج فيدا)

ومن أغنية طويلة للوقت فى الأيسا أوبانيشاد نقتطع الآتى:
الوقت جمع معا كل الكائنات
وعبر بداخلها
ذلك الذى كان أباً صار ابنهم
ليس من مجد أعظم من هذا
الوقت هو الذى أتى بالصدفة المحشوة بالقذر.
فى الوقت الشمس تشرق وتحترق
فى الوقت العين تتلصص من مسافة
فى الوقت كل الموجودات تكون .
فى الوقت تكون الطاقة والخير الأعلى
فى الوقت الحرف المقدس
الوقت إله كل ماهو كائن
الأب ، هو ، الخالق.
الوقت خلق المخلوقات . الوقت
خلق فى البداية إله المخلوقات
من الوقت يأتى الموجود بذاته.

أما الحب فهو المبدأ الأول للنشاط أو قوة كونية ، تدفع الكائن الأعلى خارج دائرة وجوده الضيقة لهذا يترنم الهندوسى لكاما أو الحب بوصفه « أقدم الكل » أول مولود ، « وأعلى من جميع الآلهة» فى ترانيم طويلة.

وفى البهاجافادا جينا يقول الإله :
بين آلاف الرجال ربما واحد فقط
سوف يسعى إلى الكمال
وحتى بين هؤلاء الأبطال الذين فازوا بتاج الكمال
ربما ، واحد فقط سوف يعرفنى كما أنا فعلاً.
أعلى منى
لايوجد أى شئ

الكون قد تمت خياطته فوقى
مثل لولؤ متكتل على خيط
فى الماء أنا النكهة.
فى الشمس والقمر النور
فى كل الفيدات أوم (الحرف المقدس)
فى الفضاء أنا الصوت : فى الرجل أنا فحولته.
الرائحة الصرفة فى الأرض أنا
ومستهل الشعلة فى النار
والحياة أنا فى كل الكائنات الطارئة.
وفى الزاهدين زهدهم القاسى
إعلم إننى أنا البذرة الأبدية
لكل الكائنات الطارئة
أنا العقل فى العاقل
والمجد فى الماجد أنا
القوة فى القوى هى أنا
تلك القوة التى لاتعرف العواطف المشبوبة أو الرغبة:
الرغبة أنا فى الكائنات الطارئة
لكنها الرغبة التى ليست فى حرب مع الحق
اعلم كذلك أن كل أطوار الكينونة سواء أكانت من مكونات الخير أو العواطف المشبوبة أو الظلام
فى الطبيعة تخرج منى
لكنى لست فيها ، هى التى فى.
بأطوار الكينونة الثلاثة هذه
الكامنة فى المكونات
يضل هذا العالم
ولايفهم
أننى أبعد منها كثيرا
أنا لا أتغير ولا أموت
كل الكائنات ماضية وحاضرة
والتى سوف تأتى
أنا أعرفها
لكنى لايوجد من يعرفنى

ياما (سيد الموت) يتكلم :
إذا فكر القاتل : « أنا أقتل»
وإذا فكر المقتول :« لقد قتلت »
كلاهما لايملك معرفة صحيحة
فلا القاتل قاتل
ولا المقتول مقتول
أكثر غموضا من الغامض ، أعظم من العظيم.
الذات مختبئة فى قلب المخلوقات هنا
الرجل الذى بلا رغبة وأنفق كل حزنه يراها
جلال الذات ، برحمة الخالق (بعناصره الهادئة)
جالسا يصل لأماكن بعيدة
راقدا يبلغ كل الأماكن
هذا الإله هو البهجة واللابهجة
من سواى يستطيع أن يفهمه ؟
فى الأجساد بلا جسد
فى الأشياء غير المستقرة تسكن
الذات ، الإله الأعظم
بالتفكير فيها ، الحكيم لايعرف الحزن.
هذه الذات لاتكتسب بالوعظ
ولا بالتضحية ولا بالحكايا الكثيرة المسموعة
به وحده يمكن أن يفهم بناء على من ينتخب
وله تكشف هذه الذات شكلها الحقيقى.
رغم أن هناك من تستوى عندهم
كرامة البراهمان والأمير كطبق أرز
الموت بهريزه وبهاره
لكن - أين هو- من الذى يعرف حقاً ؟.
أعلى من الحواس أهدافها
وأعلى من هذه العقل
وأعلى من العقل الروح
وأعلى من الروح الذات . الأعظم
أعلى من الأعظم ، غير الظاهر

أعلى من ذلك « الشخص »
ليس هناك أعلى من الشخص
هو الغاية ، أعلى الطرق.

الحكمة المطلقة

« أظن » ، قال بوذا المستقبل ، « أن هذا لايمكن أن يكون المكان المناسب للحصول على الحكمة العليا» ، ومشى حول شجرة البو أو التينة المقدسة بجانبه الأيمن وبلغ الناحية الغربية واتجه إلى الشرق . ثم عرق النصف الغربى من العالم حتى بدا كما لو أنه يلامس جحيم أفيسى بينما صعد النصف الشرقى إلى أعالى الفراديس حقا ، أينما وقف البوذا كانت الأرض العريضة تصعد وتسقط كما لو كانت عجلة عربة ضخمة راقدة على محورها ويقف أحدهم على إطارها.

« أظن» ، قال بوذا المستقبل ، هذا أيضا . لايمكن أن يكون المكان المناسب للحصول على الحكمة العليا » ومشى حول الشجرة بجانبه الأيمن حتى بلغ الناحية الغربية واتجه نحو الجنوب ثم غرق النصف الشمالى من العالم حتى بدا كما لو أنه يلامس جحيم أقيسى بينما صعد النصف الجنوبى إلى أعالى الفراديس.

« أظن» قال بوذا المستقبل « ولا هذا يمكن أن يكون المكان المناسب للحصول على الحكمة العليا ومشى حول الشجرة بجانبه الأيمن حتى بلغ الناحية الشرقية واتجه نحو الغرب . الآن على الناحية الشرقية من أشجارهم – شجر البو يجلس البوذا بسيقان معقودة وتلك الناحية لاتهتز أو تتزلزل.

ثم قال الكائن العظيم لنفسه « هذه هى النقطة التى لاتتحرك حيث زرع كل البوذات أنفسهم !

هذا هو المكان (الصالح) لتدمير شبكة العواطف المشبوبة ! ثم آخذ حفنة الحشيش فى كفه من ناحية وهزها ، وعلى الفور شكلت شفرات الحشائش نفسها على هيئة مقعد سعته أربعة عشر ذراعا ، وبسيميترية فى الشكل لايقدر حتى أكثر الرسامين أو النحاتين مهارة على تصميمها .

ثم استدار بوذا المستقبل معطيا ظهره لجذع شجرة البو باتجاه الشرق واتخذ القرار القوى :« ليجف جلدى وأعصابى وعظامى ، مرحبا ! ليجف كل اللحم والدم فى جسدى لكنى لن أتزحزح عن هذا المقعد حتى أنال الحكمة العليا والمطلقة !».

وأجلس نفسه عاقدا ساقيه فى وضع لايهزم حيث لم يكن بامكان حتى مائة ضربة من الصواعق مرة واحدة أن تزحزحه.

وتعرفنا البهاجا دفادجيتا بمن يكون اليوجى:
اليوجا ليست لمن يأكل أكثر من اللازم
أو لمن لا يأكل على الإطلاق
ولا لمن يميل إلى النوم
أو لمن يظل مستيقظا على الدوام.

الأحرى أن اليوجا لمن يعرف الوسط فى الطعام واللهو.
الوسط فى كل أفعاله ولمحاته
الوسط فى النوم مثل اليقظة
هذه هى اليوجا التى تسفك الألم
....
....
لأنه حتى من لا يفعل
أكثر من أن يتمنى أن يعرف ما هى اليوجا
يتجاوز ذلك البراهمان الذى ليس أكثر من طقوس كلامية
اليوجى أعلى من مجرد زاهد
نعم أعلى من رجل الحكمة
أعلى من رجل العمل
لتكن إذن يوجيا يا أرجونا

ومن سماته ـ كما يدل النص الصريح أنه « الممتلئ حكمة وفهما ، هادئ ومسيطر على نفسه ، وبالنسبة له كتلة الطين وقطعة الحجر والذهب شئ واحد :

الذى قلبه محايد نحو الأعداء والأصدقاء والرفاق
غير مبال ومحايد
للكهريهين والأقارب والقديسين والخطاة
لقد انتصر بحق
ليضع مقعدا ثابتا فى مكان نقى تماما
ليس عاليا جداً أو واطئا جدا
ليغطه بالعشب المقدس ، وجلد الغزال
وأخيرا بقطعة قماش

الحرية

سوف ينال الحرية هذه هى الأوبانيشاد

(الأوبانيشاد)

وفى طقوس الزواج الهندوسى يقول العريس لعروسه وهو يأخذ يدها :

« تعال ، أيتها الجميلة!» ثم يضع طرف قدمها اليمنى على حجر وهو يقول :

« تعالى . لتطئ الحجر كونى قوية مثل حجر . قاومى الأعداء ، تغلبى على مهاجميك ».

وينثر بعض الحبوب المحمصة فى كفها للتوحد ثم يدفعها لأن تنثر الحبوب فى النار التى أمامهما وهى تدعو لأقاربه وتباركه ويمشيان حول النار بأطراف ثيابهما معقودة فى بعضها يطلبان الأطفال ويكرران الطواف ثم ترمى المرأة كل ماتبقى معها من حبوب فى النار ويبدأ غناء العريس بينما تخطو زوجته سبع خطوات إلى الشمال الشرقى فيقول :

خطوة للقوة

خطوتان للحيوية

ثلاث خطوات للازدهار

أربع خطوات للسعادة

خمس خطوات للماشية والرزق

ست خطوات للمواسم

سبع خطوات للصداقة

كونى مخلصة لى.

ثم يطلب منها أن تقف وهو يقول (نلاحظ صمت الزوجة بينما الزوج والكاهن هما اللذان يقودان مراسم الزواج):

بهذه الخطوات السبع صرنا صديقين

اجعلينى أصل إلى صداقتك

لاتقطعينى عن صداقتك

ولاتقطعى صداقتك عنى.

ثم يلمس قلبها من ناحية كتفها الأيمن وهو يقول :

« أمسك قلبك فى رفقة خدمة

عقلك يتبع عقلى

تفرحين بكلمتى من كل قلبك

فقد توحدت بى عن طريق إله جميع المخلوقات ».

وعندما تبلغ بيته والأهل خلفهما يحملون النار فى وعاء ، تدخل بقدمها اليمنى فاذا رأيا النجم القطبى ليلا وهما صامتان يقول لها :

« أنت صامدة وأنا أراك

كونى صامدة معى أيتها المزهرة

براهاسباتى منحتك لى

إذن عيشى معى مائة عام

وانجبى أطفالا منى

أنا زوجك » .

الذى لا يتألم

هو الذى يعيش فى العين وليس بعين ، الذى لاتعرفه عين ، الذى جسده هو العين ، الذى يتحكم فى العين من الداخل – هو الذات بداخلك ، المتحكم الداخلى ، الخالد.

هو الذى يعيش فى الجلد وليس بجلد ، الذى جسده هو الجلد ، الذى يتحكم فى الجلد من الداخل – هو الذات بداخلك ، المتحكم الداخلى ، الخالد .

هو الذى يعيش فى النفس وليس بنفس ، الذى لايعرفه نفس ، الذى جسده هو النفس ، الذى يتحكم فى النفس من الداخل ، هو الذات بداخلك ، المتحكم الداخلى ، الخالد .

(وهكذا يستمر النشيد بالنسبة للريح والأذن والأرض والشمس والقمر والعقل والمنّى ، أى تقريبا كل ملموسات ومجردات الحياة والانسان بقدر مايملك العقل من إحصاء حتى ينتهى النشيد بالكلمات التالية :

هو الرائى غيره المرئى ، السامع غير المسموع ، المفكر غير المفكر به ، الفاهم غير المفهوم . غيره لايوجد راء ، غيره لايوجد سامع ، غيره لايوجد مفكر غيره لايوجد فاهم . هو الذات بداخلك ، المتحكم الداخلى ، الخالد .

كل ماليس هو يتألم.

الحسبة بين الدولة المدنية والدولة الدينية

مركز المساعدة القانونية لحقوق الإنسان

تم إعداد الدراسة التالية قبل أن يذاع مشروع القانون المنظم لدعاوى الحسبة. وبمراجعة النص الكامل لهذا المشروع ومذكرته الإيضاحية كما نشر فى جريدة الجمهورية بعددها الصادر فى ١٩٩٦/١/٢٧ ، نجد أن تلك المذكرة -بعد أن تستعرض فكرة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وفكرة الإخلال بحقوق الله تعالى أو بالحقوق التى يغلب فيها حق الله تعالى- تنص على أنه : «لكل مسلم استعداء القاضى مبلغا إياه بوقوع إخلال بحق الله تعالى ، أو بتلك الحقوق التى يكون حقه غالبا فيها، والشهادة عنده بوقوع هذه المخالفة ،لاتخاذ ما يلزم لتقويمها عند ثبوتها».

لا يجد المركز ثمة ما استجد بحيث يدفعه لإعادة النظر فى هذا التقرير لأن ما تضمنه المشروع ومذكرته الإيضاحية ، إنما يؤكد بجلاء واضح صحة الاستنتاج الذى يخلص إليه التقرير من أن دعوى الحسبة إنما فى حقيقتها تعكس رؤية طائفية وتقيم تمييزا على أسس دينية ضد المواطنين غير المسلمين ،كما تقيم من الناحية الأخرى تمييزاً قائما على أساس الجنس ضد المرأة سواء كانت مسلمة أو غير مسلمة.

كما تتعارض مع حقيقة أن مجتمعنا المعاصر قائم على أسس قومية، ولم يعد يتخذ من الديانة أساسا له .فالحسبة كمفهوم، وكنظام ، وكدعوى لم تعد تتسق مع حق المواطنة المعاصرة،أى لم تعد تتسق مع الدولة المدنية، وانما تتسق كامل الاتساق مع الدولة الدينية، وبشكل خاص مع الدولة الدينية التى لا تعرف تعدد الأديان كمجتمعنا المصرى المعاصر.

١- تعريف الحسبة وتطور نطاقها:

عرف الإسلام نظام الحسبة، بوصفها وظيفة دينية من باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وقد اقتصر عمل المحتسب على ما يتعلق بالغش والتدليس، وهو ما ينعكس على معناها الشرعى، فأصل الحسبة الشرعية مشارفة السوق(شارف الشئ : قاربه ودنا منه) والنظر في مكاييله وموازينه، ومنع الغش والتدليس فى المعايش وغيرها فى المكاييل والموازين وله حمل المماطلين على الإنصاف وأمثال ذلك مما ليس فيه سماع بينة ولا إنفاذ حكم وكأنها أحكام ينزه القاضى عنها لعمومها وسهولة أغراضها فتدفع إلى صاحب هذه الوظيفة ليقوم بها فوضعها على ذلك أن تكون خادمة لمنصب القضاء.

تطور نطاق الحسبة ليصبح أمرا بمعروف ظهر تركه ، ونهيا عن منكر ظهر فعله ، وإصلاحا بين الناس (الموسوعة الذهبية للعلوم الإسلامية- القاهرة- دار الغد- ص٦٠٤

حتى ٦٠٥) .كانت الحسبة تدخل فى ولاية القاضى فى كثير من العصور ، ولكن لما صار نظر السلطان عاما فى السياسة ، اندرجت فى الوظائف التابعة له ، و أفردت بالولاية . وقد أدى انسلاخ ولاية الحسبة عن القضاء واعتبار سلطة المحتسب مستمدة من سلطة الخليفة، إلى مساوئ كثيرة، من أهمها تنازع الاختصاص بين الولايات ، وافتيات المحتسبين ، ورجال الشرطة ، على اختصاصات القضاة، كما أدى إلى قيام السلاطين بتسخير المحتسبين لتحقيق مآربهم الخاصة، لدرجة قيامهم بمنع المصريين من كثرة الكلام ،لما اشتهروا به من السخرية بالمماليك وسلاطينهم (دعاوى الحسبة- د. حسن اللبيدى- مركز الطباعة والنسخ- أسيوط -١٩٨٣-ص١٦٨ و١٦٩).

٢- **تعريف المحتسب:**

هو الذى يقوم بوظيفة الحسبة وهو من أرباب الوظائف الدينية، وقد ثبت أن الرسول هو أول من استعمل المحتسب فى نظامه ،حيث تولى ذلك الأمر بنفسه فكان يتفقد الأسواق ويأمر وينهى، كما ثبت أنه استعمل من أصحابه من يقوم بهذا الأمر حيث استعمل سعيد بن العاص على سوق «مكة المكرمة» واستعمل عمر بن الخطاب على «سوق المدينة المنورة» (الموسوعة -٦١٦ و٦١٧) إلا أن لفظ المحتسب لم يستعمل إلا فى عهد الخليفة المهدى العباسى (١٥٨-١٦٩هـ) .(الموسوعة-ص٦٠٥).

٣- **نوعا ولاية الحسبة:**

تنقسم الحسبة من ناحية أسباب ولايتها إلي ولاية أصلية (المتطوع) وولاية تبعية (المحتسب).

أ- الولاية الأصلية (المتطوع):

وهى التى تستمد أساسها من تكليف الشارع بها لكل من تتوافر فيه الأهلية اللازمة للقيام بها، وذلك فى الحالات التى يكون فيها المكلف أولى الناس بإناطة الحكم إليه فى القيام بالحسبة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ،على من ولاهم عليه كزوجته وأولاده ، أو المرءوسين له فى العمل فهو بحكم ولايته عليهم يعد من أولى الناس بإناطة القيام بها إليه .(عن الحسبة ودور الفرد فيها- د. عبد الله مبروك النجار- كتاب مجلة الأزهر- شهر ذى الحجة ١٤١٥هـ ص٥٣).

ب- الولاية التبعية (المحتسب):

وهى الولاية المستمدة من قرار التعيين الصادر من الخليفة أو الأمير ، وتتضمن هذه

الولاية كما تتضمن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر على وجه الطلب مباشرة ، وتتضمن كذلك القيام بما يؤدى إلى اجتناب المنكر ،لا على وجه الطلب ، بل على وجه الادعاء والاستعداء ، وذلك بالتقدم إلى القاضى بالدعوى ، وبالشهادة لديه ، أو باستعداء المحتسب (النجار– ص٥٤).

ج– **الفرق بين سلطات المتطوع والمحتسب:**

١– فرض الحسبة متعين على المحتسب بحكم الولاية ، وفرضه على المتطوع من فروض الكفاية.

٢– قيام المحتسب بالحسبة واجب لا يجوز أن يتشاغل بغيره ،وقيام المتطوع بالحسبة من نوافل الأعمال يجوز تشاغله عنه لغيره.

٣– المحتسب منصوب للاستعداء إليه فيما يجب إنكاره وإبلاغه بالمخالفات التى تقع من المنحرفين ،والمتطوع ليس منصوبا للاستعداء.

٤– من واجبات وظيفة المحتسب أن يجيب طلب من استعدى به وأبلغه بالجريمة أو المخالفة ، وذلك ليس على المتطوع.

٥– على المحتسب أن يبحث عن المنكرات الظاهرة ، ليصل إلى انكارها ، ويفحص عما ترك من المعروف الظاهر، ليأمر بإقامته ،وليس على غيره من المتطوعة بحث ولا فحص.

٦– للمحتسب أن يتخذ على الإنكار أعوانا ،لأنه منصوب لهذا العمل .وليس للمتطوع أن يندب لذلك أعوانا.

٧– للمحتسب أن يعزر على المنكرات الظاهرة ، ولا يتجاوزها إلى الحدود وليس للمتطوع أن يعزر على منكر.

٨– للمحتسب أن يرتزق من بيت المال فيأخذ أجره من الدولة، وليس للمتطوع أن يأخذ أجرا على عمله.

٩– للمحتسب أن يجتهد فيما تعلق بالعرف دون الشرع ، فينكر ما أداه إليه اجتهاده، وليس للمتطوع ذلك.(النجار– ص٥٥ و٥٩).

د– **شروط المحتسب:**

لقد أوصلها بعض الفقهاء إلى سبعة شروط يجب أن تتوافر فى المحتسب ، وسنقصر كلامنا هنا على شرط إسلام المحتسب وشرط الذكورة

* **إسلام المحتسب:**

يجب أن يكون المحتسب مسلما، ذلك أن الحسبة عمل يتضمن تنفيذ أحكام إسلامية تتصل بالعقيدة الدينية ، أو تستمد أحكامها من مصادر التشريع الإسلامى فى الكتاب والسنة والإجماع (النجار–ص٥٨) . وبالنسبة لدعوى الحسبة تحديدا يكيف الفقهاء هذا الشرط علي النحو التالي: لما كانت دعوى الحسبة نوعا من الشهادة فإنه يشترط فيمن يدعى حسبة الشروط التى تطلب فى الشهادة ،ومن شروط جواز قبول الشهادة فى الشريعة الإسلامية أن يكون الشاهد مسلما لأن فى الشهادة ولاية، ولا ولاية لكافر على مسلم (نظرية المصلحة فى الدعوى– د. عبد المنعم الشرقاوى –القاهرة – ط أولى ١٩٤٧ –ص٣٧٩).

* **شرط الذكورة:**

ذهبت طائفة من أهل العلم إلى اشتراط الذكورة ،فيمن يتولى الحسبة ، وقالوا إن المرأة لا يتأتى منها أن تبرز إلى المجالس ، ولا أن تخالط الرجال أو تفاوضهم مفاوضة النظير للنظير ،وعند أبى حنيفة تلى الحكم فيما تجوز لها فيه الشهادة (النجار –ص٦٧) ويشترط فى بعض الأمور كالحدود أن يكون الشاهد ذكرا (الشرقاوى –ص٣٨٠) ،وقد ذهب البعض إلى اجازة أن يكون مدعى الحسبة امرأة بدون أى قيود (اللبيدى –ص١٦٨).

٤– دار الحسبة:

أول من أنشأها عمر رضى الله عنه ،حيث ولى عبد الله بن عقبة على النظر فى الأسواق والتفتيش على المكاييل والموازين ومنع الغش فيما يباع ويشترى (الموسوعة –ص٦٠٥) ،وفى العهد العثمانى استبدل باسم دار الحسبة اسم البلدية وباسم المحتسب رئيس البلدية(الموسوعة–ص٦٢٤).

٥– دعوى الحسبة:

تكون فى حقوق الله تعالى أو فيما غلب فيه حق الله وهى الحقوق التى يجب على كل مسلم المحافظة عليها ، وعرفها البعض بأنها استعداء من له ولاية القضاء بوجود مخالفة لحق من حقوق الله تعالى أو لحق غلب فيه حق الله تعالى، والشهادة عنده بوقوع هذه المخالفة سواء بطريق الرفع ، أو بطريق الدفع، لاتخاذ ما يلزم بالنسبة لها (اللبيدى –ص٦).


Nagui

٦- **حقوق الله فى لغة القانون المعاصر:**

الكثير من الباحثين الإسلاميين ،عند تناوله لنظام الحسبة يجعل حقوق الله مرادفة لفكرة النظام العام والآداب العامة المعمول بها فى نطاق القانون الوضعى المعاصر .فاللبيدي مثلا يذهب إلى أن القانون المعاصر قد عبر عن فكرة حقوق الله ،بأنها تلك الحقوق التى ترتبط بالنظام العام والآداب العامة فى المجتمع ،حيث اعتبر القانون المعاصر بعض هذه الحقوق لصيقة بشخصية الإنسان لا يجوز له التنازل عنها ، وربط بعضها الآخر بفكرة النظام العام والآداب العامة ، فلا يجوز للفرد الاتفاق على ما يخالف مقتضيات النظام العام ،حتى لو كان فى ذلك تضحية بمصلحته الخاصة ،وتشكل فكرة النظام العام والآداب ، قدرا من القواعد ، تمثل الحد الأدنى من القواعد اللازمة لحماية المجتمع من الانحلال (اللبيدى -ص٥٤).

وهنا نجد مفارقة ففكرة النظام العام العلمانية نجدها تتحول إلى فكرة حقوق الله ،وهى فكرة دينية عقائدية فالأولى تخاطب جميع المواطنين بغض النظر عن موقفهم من المعتقدات الدينية والثانية تخاطب أتباع دين محدد ولا تخاطب جميع المواطنين . وهذا الإحلال لا يستقيم مع حقائق العصر إلا إذا نزعنا الرداء الدينى لفكرة حقوق الله، أو جردنا غير المسلمين من حق المواطنة ، أو على الأقل اعتبرناهم يتمتعون بحق مواطنة منتقص.كما ينتقص من حق المرأة المسلمة مقارنة بالمواطن المسلم. وبعبارة أخرى : قبول مبدأ تأسيس الدولة على أسس دينية . إن تصور القائلين بضرورة تعميم دعاوى الحسبة فى كل فروع القانون المصرى إنما ينطوى على رفض تأسيس الدولة المدنية الحديثة والمطالبة بتأسيس الدولة الدينية.

٧- **توسع القضاء الادارى فى شرط المصلحة لا علاقة له بدعاوى الحسبة:**

من المبادئ المستقرة فى فقه القانون : أنه حيث لا مصلحة فلا دعوى ،وهو ما نص عليه صراحة فى المادة الثالثة من قانون المرافعات وفى الفقرة الأولى من المادة ١٢ من قانون مجلس الدولة. وإن كان هذا لا يمنع من اختلاف نطاق ومدلول مفهوم المصلحة بين فقه القانون الخاص وفقه القانون العام ، بل من الممكن أن يختلف هذا النطاق من مجال قانونى إلى آخر فى داخل ذات الفقه .ففى قانون المرافعات نجد أن المصلحة التى تبرر قبول الدعوى يجب أن تستند إلى حق اعتدى عليه أو مهدد بالاعتداء عليه وهى ذات

القاعدة التى تسرى على دعوى التعويض أمام القضاء الادارى (دعوى القضاء الكامل) حيث يشترط فى رافعها أن يكون صاحب حق أصابته جهة الادارة بقرارها الخاطئ بضرر يراد رتقه وتعويضه عنه ،فى الحالتين ربط بين المصلحة والحقوق الشخصية.. أما فى دعوى الإلغاء أمام القضاء الادارى فنجد فصلا تاما بين المصلحة والحق وترتبط المصلحة هنا بالمركز القانونى ،حيث لا يشترط فى المصلحة التى تبرر قبول الدعوى أن تستند إلى حق لرافعها اعتدت عليه السلطات العامة، أو مهدد بالاعتداء عليه بل يكفى أن يكون ذا مصلحة شخصية ومباشرة فى طلب الالغاء والمصلحة الشخصية هنا معناها أن يكون رافع الدعوى فى مركز قانونى خاص أو حالة قانونية خاصة بالنسبة إلى القرار المطعون فيه من شأنها أن تجعله -ما دام قائما- مؤثرا فى مصلحة ذاتية للطالب تأثيرا مباشرا.

وقد توسع القضاء الادارى فى تطبيقه لشرط المصلحة فى دعاوى الالغاء فاكتفى فى حالات بقبول الدعوى تأسيسا على مجرد توافر صفة المواطنة لرافعها، فيكفى هذا ليكون له مصلحة شخصية مباشرة فى الطعن على القرار محل البحث. قضت محكمة القضاء الادارى بتاريخ ١٩٨٠/٤/١ فى الدعوى رقم ٦٩٢٧ بأنه:« من المقرر أن صفة المواطن تكفى فى بعض الحالات لاقامة دعوى الإلغاء طعنا فى القرارات الادارية التى تمس مجموع المواطنين المقيمين فى أرض الدولة وتعرض مصالحهم أو صحتهم أو مستقبلهم للأخطار الجسيمة » وكانت الدعوى تتعلق بدفن النفايات الذرية فى الصحراء المصرية(اللبيدى- هامش ص٢٨).

وهذا التوسع فى مفهوم المصلحة الشخصية لا يجعل دعوى لإلغاء دعوى حسبة ،لأن دعوى الالغاء مازالت تستلزم المصلحة الشخصية المباشرة ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فديانة المدعى لا دخل لها فى تحديد قبول الدعوى أو عدم قبولها طالما أن هذه الديانة لا دخل لها فى تحديد مركزه القانونى،وهو الأمر الذى يأخذ وزنا مختلفا فى دعاوى الحسبة، فرافعها يجب أن يكون مسلم الديانة ،وإذا رفعها غير المسلم تعين عدم قبولها طالما لم يقدم المتمسكون بتطبيق دعاوى الحسبة فى التشريع المصرى الوضعى الراهن اجتهادا جديدا ينزع عن دعاوى الحسبة غلافها الطائفى الدينى لتصبح متفقة مع حقائق مجتمعنا المعاصر.

إن كل من فحصنا مساهمتهم فى دعاوى الحسبة من المحدثين المنتسبين للفكر الإسلامى ، وجدناهم يدللون على أن القضاء الإدارى المصرى قبل دعاوى الحسبة مستشهدين بأحكام فى دعاوى الالغاء متجاهلين مناقشة الضابط بين التوسع فى مفهوم المصلحة وبين دعاوى الحسبة. انظر فى ذلك : النجار من ص١٩٦وما بعدها ، واللبيدى ص٥٧ وما بعدها ، ود. سليم العوا- جريدة الشعب ، وفهمى هويدى -جريدة الاهرام.

ولذلك سنعرض بالتفصيل لحكم المحكمة الادارية العليا ليوضح خطأ هذه الاستشهادات

دراسة حالة:

فى ١٢/ ٣/ ٧٨ أقام الأستاذ عبد الحليم رمضان الدعوى رقم ٩٥٩ لسنة ٣٢ ق يطلب فيها الحكم بإلغاء القرار الصادر من رئيس الجمهورية بمنح أحد المستشارين نائب رئيس مجلس الدولة وسام الاستحقاق من الطبقة الأولى على سند من أنه ما زال يتبوأ مقعد القضاء وتعرض عليه فى ساحته عشرات القضايا ضد مانح الوسام وبرر توافر الصفة لديه بالقول أنه من آحاد المحامين ومن آحاد المواطنين والمتقاضين.

ودفعت هيئة قضايا الحكومة: «بعدم قبول الدعوى لانتفاء المصلحة والصفة تأسيسا على أن أحكام القضاء الادارى قد اضطردت على أنه يلزم لقبول دعوى الإلغاء أن يكون للمدعى فيها مصلحة شخصية مباشرة . وذلك بأن يكون المدعى فى مركز قانونى خاص بالنسبة للقرار المطعون فيه من شأنه أن يجعل هذا القرار مؤثرا فيه تأثيرا مباشرا .وقد نصت الفقرة(أ) من المادة(١٢ من قانون مجلس الدولة) على أن لا تقبل الطلبات الآتية:

(أ) الطلبات المقدمة من أشخاص ليس لهم فيها مصلحة شخصية ، ويبين من ذلك عدم توافر المصلحة أو الصفة فى رافع الدعوى لأن القرار المطعون فيه لا يمس أى حق من حقوقه أو مركزا قانونيا له: (ص١٢٨ من نص الحكم فى الطعن رقم ٦٩١ لسنة ٢٧ ق والصادر من المحكمة الادارية العليا فى جلستها المنعقدة فى ٢٦ نوفمبر سنة ١٩٨٣- والمنشور فى مجموعة المبادئ القانونية التى قررتها المحكمة الادارية العليا -السنة ٢٩- العدد الأول- إصدار المكتب الفنى لمجلس الدولة - الناشر الهيئة المصرية العامة للكتاب -القاهرة- ١٩٨٨- من ص١٢٥ : ١٣٣ - ومبين قرين كل مقتطف رقم الصفحة الموجود بها من المجلد المذكور). وبجلسة ٩ يناير ١٩٨١ حكمت المحكمة بعدم قبول الدعوى .

وأقامت قضاءها على أُساس أن المدعى تنتفى مصلحته فى الطعن على القرار المشار إليه ، فهو لا يؤثر فى مصلحة شخصية له تأثيرا مباشرا حتى يقبل منه طلب إلغائه ، وذهبت المحكمة إلى صحة القول بأن تشريعات السلطة القضائية ومجلس الدولة هى من فروع القانون العام المنظمة لولاية المحاكم وولاية القضاء والقضاة إلا أن ذلك لا يخول لأى مواطن الحق فى الطعن على القرار الصادر بالمخالفة لأحكامها ، ذلك أن القوانين التى يترتب على مخالفتها بطلان القرارات الادارية هى بحسب الأصل من تشريعات القانون العام ، ومع ذلك لا يقبل الطعن على القرارات الادارية إلا إذا مست مصلحة شخصية مباشرة لطالب الإلغاء ، ولا يقبل الطلب من أى شخص لمجرد أنه مواطن يهمه إنفاذ القانون المتعلق بالنظام العام وحماية الصالح العام وإلا أصبحت دعوى الإلغاء من قبيل دعاوى الحسبة(ص١٢٨-١٢٩).

وفى ٤ أبريل ١٩٨١ طعن المدعى على هذا الحكم بالطعن رقم ٦٩١ لسنة ٢٧ق وأسس طعنه عما يتعلق بقضاء محكمة أول درجة بعدم قبول الدعوى لانتفاء الصفة على ركيزتين هما:

الأولى: تستند على الحسبة، وذهب الطاعن إلى«أن الحسبة فى شريعة الإسلام التى جعلها الدستور المصرى المصدر الرئيسى للتشريع ، لم تشرع دعواها إلا لحماية النظام الاجتماعى والأخلاقى ، أى لحماية النظام العام والآداب العامة بالتعبير القانونى المعاصر. وأردف الطاعن أن أحكام التنظيم القضائى لمجلس الدولة والسلطة القضائية تعتبر من فروع النظام العام، فإذا نصت المادة ١٢٢ من قانون مجلس الدولة الصادر بالقانون رقم ٤٧ لسنة ١٩٧٢ – وتقابلها المادة ٦٨ من قانون السلطة القضائية –على تحريم معاملة عضو مجلس الدولة بأية معاملة استثنائية ، فإن هذا النص وهو يتعلق بالنظام العام ، يحرم الحكم على خلافه – ويغدو للطاعن الصفة والمصلحة فى الطعن على القرار المطعون فيه (ص١٢٩).

والركيزة الثانية تستند على توافر المصلحة الشخصية المباشرة للطاعن بوصفها مناط الصفة حيث ذهب إلى أنه «بصفته محاميا يتعامل مع دائرة منازعات الأفراد والهيئات بمجلس الدولة– التى يرأسها السيد المستشار – فى عديد من قضاياه المقامة على رئيس الجمهورية مانح الوسام المذكور . ومن ثم فإن للطاعن مصلحة فى نقاء قاضيه وتجرده

وحيدته »(ص١٢٩).

وبجلسة ٢٦ نوفمبر ١٩٨٣ حكمت المحكمة الادارية العليا« بقبول الطعن شكلا وفى موضوعه بإلغاء الحكم المطعون فيه وبقبول الدعوى شكلا وبرفضها موضوعا وألزمت المدعى بالمصروفات »(ص١٣٣).

ورفضت تأسيس حكمها بقبول الدعوى لتوافر الصفة على الحسبة وأسست هذا القضاء على توافر المصلحة الشخصية المباشرة لرافع الدعوى ، أى رفضت الركيزة الأولى التى استند إليها الطاعن فى طعنه ، وقالت المحكمة تقعيدا لهذا الحكم ما نصه: « ومن حيث أنه ولئن كانت المادة ١٢ من قانون مجلس الدولة الصادر بالقانون رقم ٤٧ لسنة ١٩٧٢ تنص على أن « لا تقبل الطلبات الآتية

(أ) الطلبات المتقدمة من أشخاص ليست لهم فيها مصلحة شخصية.

(ب) ...»

وقد أطردت أحكام المحكمة الادارية العليا على أنه يجب أن تكون تلك المصلحة شخصية ومباشرة– إلا أنه فى مجال دعاوى الإلغاء وحيث تتصل هذه الدعوى بقواعد واعتبارات المشروعية والنظام العام فإن القضاء الادارى – يؤازره الفقه– لا يقف فى تفسير شرط المصلحة الشخصية عند ضرورة وجود حق يكون القرار الادارى المطلوب إلغاؤه قد أهدره أو مسه– كما هو الحال بالنسبة لدعاوى التعويض وسائر الدعاوى الحقوقية – وإنما يتجاوز ذلك بالقدر الذى يتفق ويسهم فى تحقيق مبادئ المشروعية وإرساء مقتضيات النظام العام ، بحيث يتسع شرط المصلحة الشخصية لكل دعوى إلغاء يكون رافعها فى حالة قانونية خاصة بالنسبة إلى القرار المطعون فيه من شأنها أن تجعل هذا القرار مؤثرا فى مصلحة جدية له . **وجدير بالذكر أن اتساع نطاق شرط المصلحة الشخصية فى دعوى الإلغاء على النحو السابق لا يعنى الخلط بينها وبين دعوى الحسبة ، فلا يزال قبول دعوى الإلغاء منوطا بتوافر شرط المصلحة الشخصية لرافعها.**

ومن حيث إنه بتطبيق ما تقدم على الدعوى الماثلة ، يبين أن المدعى يبرر مصلحته فى إقامة دعواه بأنه بصفته محاميا له عديد من القضايا التى أقامها أمام محكمة القضاء الادارى ، وتنظرها دائرة (منازعات الأفراد والهيئات) التى كان يرأسها السيد المستشارفى تاريخ منحه الوسام المنوه عنه ، ويختصم فيها رئيس الجمهورية – بصفته –فإن له مصلحة فى الطعن على قرار منح الوسام ضمانا لنقاء قاضيه وتجرده وحيدته.

ومن حيث إنه فى حدود ما تقدم تبدو للمدعى مصلحة شخصية فى أن يقيم دعواه الماثلة ، مستهدفا منع ما قد يكون من شأنه التأثير على حيدة القاضى أو تجرده أو استقلاله ، وليطمئن وسائر المتقاضين إلى سير العدالة على النهج الذى أمر الله به واستقرت عليه كافة النظم والشرائع ، لتستقيم موازين القسط فى يد العدالة» (ص١٢٩-١٣٠).

٨- السند التشريعى لدعاوى الحسبة:

تضمنت لائحة المحاكم الشرعية والصادرة بالمرسوم بقانون رقم ٧٨ لسنة ١٩٣١ ، وهى اللائحة المنظمة لسير العدالة فى المحاكم الشرعية المعروفة حينذاك والتى تتولى الفصل فى منازعات الأحوال الشخصية ، السند التشريعى لدعاوى الحسبة فى المادتين ٨٩ و١١٠ من الفصل الثالث المعنون «فى سماع الدعوى» من الباب الثانى المخصص لقواعد المرافعات من الكتاب الرابع المعنون فى الاعلانات وقيد الدعاوى وتقديم المستندات والمرافعات والأدلة والأحكام وطرق الطعن فيها:

فالمادة ٨٩ نصت على : « لا تسمع الدعوى إلا على خصم شرعى حقيقى»

فى حين جرى نص المادة ١١٠ على أنه: «إذا حضر المدعى أو وكيله فى الميعاد المعين وسمعت الدعوى والجواب عنها ودفعها المدعى عليه بدفع يعتبر دعوى مستقلة ، ثم تخلف المدعى بعد ذلك ولم يرسل وكيلا عنه فى الميعاد المعين فللمدعى عليه الخيار إما أن يطلب اعتبار القضية كأن لم تكن وإما أن يطلب السير فى دعوى الدفع بالطريق الشرعى ويعتبر المدعى عليه مدعيا والمدعى مدعيا عليه.

وهذا إذا لم يكن الدفع من حقوق الله تعالى أما إذا كان من حقوق الله تعالى فيجب على المحكمة أن تسير فيه بالطريق الشرعى».

٩- إلغاء السند التشريعى لدعاوى الحسبة والاختلاف فى تفسير مدى هذا الإلغاء:

أتى القانون ٤٦٢ لسنة ١٩٥٥ ليلغى العديد من مواد لائحة ترتيب المحاكم الشرعية ومن ضمنها المادتين ٨٩ و١١٠ اللتين تمثلان السند التشريعى لدعاوى الحسبة ، وبذلك أضحت اللائحة خلوا من أى سند تشريعى لدعاوى الحسبة . وخضعت بذلك منازعات الأحوال الشخصية لقواعد قانون المرافعات فيما يتعلق بشروط قبول الدعوى ، طالما لم تعد هناك قواعد خاصة فيما تبقى من اللائحة أو القوانين المكملة لها تنظم هذا الموضوع ، وذلك تطبيقا لأحكام المادة الخامسة من القانون ٤٩٢ لسنة ٥٥ والتى نصت على: .

«تتبع أحكام قانون المرافعات فى الاجراءات المتعلقة بمسائل الأحوال الشخصية

والوقف التى كانت من اختصاص المحاكم الشرعية أو المجالس المالية عدا الأحوال التى وردت بشأنها قواعد خاصة فى لائحة ترتيب المحاكم الشرعية أو القوانين الأخرى المكملة لها».

واختلف الفقه والقضاء فى تحديد أثر هذا الإلغاء حيث ذهب جانب من الفقه وسايرته فى هذا محكمة النقض إلى استمرار العمل بدعاوى الحسبة فى نطاق منازعات الأحوال الشخصية ، باعتبارها المجال الخاضع تماما للشريعة الإسلامية ،كما يجد سنده فى المادة ٢٨٠ من اللائحة التى تحيل القاضى إلى الراجح من المذهب الحنفى فى حالة خلو اللائحة والقوانين المكملة لها من نص يحكم الموضوع المثار، فطالما خلت اللائحة والقوانين المكملة لها من أى نص يلغى دعاوى الحسبة ، وطالما أن دعاوى الحسبة من الأمور التى تعد راجحة فى المذهب الحنفى فيتعين قبول دعاوى الحسبة تطبيقا لأحكام المادة ٢٨٠ من اللائحة.

وذهب رأى آخر إلى أن المشرع بذلك الإلغاء قد أفصح عن إرادته بخضوع منازعات الأحوال الشخصية لذات القواعد الواردة فى قانون المرافعات والتى تخضع لها باقى المنازعات المدنية ، وذلك بهدف توحيد القضاء الذى يخضع له كافة المواطنين.

ويستند هذا الرأى إلى أن المادة الأولى من القانون المذكور قد نصت على« تلغى المحاكم الشرعية والمحاكم الملية ابتداء من أول يناير سنة ١٩٥٦ وتحال الدعاوى المنظورة أمامها لغاية ٣١ ديسمبر سنة ١٩٥٥ إلى المحاكم الوطنية لاستمرار النظر فيها وفقا لأحكام قانون المرافعات».

ويستفاد من هذا النص ليس فقط إلغاء المحاكم الطائفية وإنما أيضا اخضاع دعاوى الأحوال الشخصية لأحكام قانون المرافعات ، وحدد النص معيارا تاريخيا لبدء تطبيق أحكام هذه المادة على الدعاوى المنظورة والتى ينطبق عليها هذا المعيار ، أى حدد النص النطاق الزمنى لسريان أحكامه. وبذلك تخضع جميع دعاوى الأحوال الشخصية الجديدة المرفوعة من ١/١/ ١٩٥٦ لأحكام قانون المرافعات.

١٠- المادة ٢٨٠ من لائحة ترتيب المحاكم الشرعية لا تصلح سندا تشريعيا لدعاوى الحسبة:

نصت هذه المادة على:

«تصدر الأحكام طبقا للمدون فى هذه اللائحة ولأرجح الأقوال من مذهب أبى حنيفة ما عدا الأحوال التى ينص فيها قانون المحاكم الشرعية على قواعد خاصة فيجب فيها أن

تصدر الأحكام طبقا لتلك القواعد».

وهذه المادة لا تصلح سندا تشريعيا لدعاوى الحسبة وذلك للأسباب الآتية:-

أ- لم يكن هذا هو قصد المشرع من هذه المادة ودليلنا على ذلك أنه قد أفرد المادة ٨٩ والمادة ١١٠ لأداء هذا الدور.

ب- موضع المادة ٢٨٠ حيث لم تأت فى الباب الثانى المخصص لقواعد المرافعات- وهو الموضع الطبيعى والمنطقى الذى ينظم الصفة والمصلحة فى رفع الدعوى- وإنما جاءت فى الباب الرابع من الكتاب الرابع المخصص للأحكام.

ت- هذه المادة معيبة حيث تحيل القاضى إلى قواعد غير مقننة ومدونة .فقد استقرت غالبية النظم القانونية الحديثة على ضرورة تدوين القواعد القانونية حتى يسهل للقاضى الرجوع إليها كما يسهل مهمة الدفاع ويحيط المواطن علما بالتزاماته القانونية، ويسهل للمحكمة العليا مراقبة حسن تطبيق القانون.

ث- شبهة عدم دستورية هذه المادة لتعارضها مع مبدأ الفصل بين السلطتين التشريعية والقضائية ،حيث أحال النص للقاضى مهمة البحث عن الراجح من المذهب الحنفى ،فإذا كانت القاعدة التى استقاها القاضى واضحة الرجحان فلا تثريب على عمله وتنتفى بذلك شبهة عدم الدستورية المؤسسة على هذا الوجه.

أما إذا كان رجحان القاعدة أمرا مبهما فإن ترجيح القاضى فى هذه الحالة إنما يكون عملا متجاوزا نطاق البحث عن القاعدة ليدخل فى نطاق تشريعها وهو ما يخرج بالضرورة عن اختصاص السلطة القضائية ليدخل حصرا فى اختصاص السلطة التشريعية .وبصدد هذا الوجه من عدم الدستورية يقول المستشار محمود عقبة:

«إن القاضى عندما يحكم بأرجح الأقوال فإنه غير معروف ما هى أرجح الأقوال فى مذهب أبى حنيفة؟ هم يقولون إن الأرجح فى هذا المذهب هو ما اتفق عليه الصاحبان أبى يوسف قاضى القضاة فى عهد الخليفة الرشيد وهو واضع كتاب الأموال فقط عن فقه أبى حنيفة . أما الصاحب الثانى محمد فقد جمع كافة ما يتعلق بالمذهب الحنفى، وبالتالى فإنه غير معروف ما هو الراجح فى هذا المذهب (أخبار الأدب- العدد ٣١- فى ١٤/ ١/ ٩٥- ص١٠).

وهناك وجه آخر لعدم الدستورية حيث قصرت هذه المادة الشريعة الإسلامية على مذهب واحد وهو قصر غير مبرر، وهذا القصر يرجع تاريخيا لفترة الاحتلال العثمانى لمصر حيث كان المذهب الحنفى هو المذهب الرسمى للدولة العثمانية.

ج- عدم دستوريتها استنادا إلى عدم نشر القواعد الراجحة من هذا المذهب فى الجريدة الرسمية، فالمادة ١٨٨ من الدستور تستلزم نشر القوانين فى الجريدة الرسمية خلال أسبوعين من يوم اصدارها .فالنشر هنا يعد ركنا جوهريا تخلفه يعدم القاعدة القانونية محل البحث.. وبذلك تفتقد القواعد الراجحة من المذهب الحنفى خاصية القواعد القانونية.

١٢- المادة الثانية من الدستور لا تصلح بمفردها كسند تشريعى لدعاوى الحسبة:

جعلت المادة الثانية من الدستور- بعد تعديلها أثناء حكم السادات- من مبادئ الشريعة الإسلامية المصدر الرئيسى للتشريع ،ومع هذا لا تصلح هذه المادة بمفردها كسند تشريعى لدعاوى الحسبة، وذلك يرجع إلى أن هذه المادة غير نافذة بذاتها ، فلا يجوز للمحاكم أن تتولى تطبيقها مباشرة، وإنما الأمر فى حاجة لتدخل المشرع لتقنين تلك المبادئ فى قواعد قانونية . وهذا التحديد لنطاق المادة الثانية من الدستور ليس اجتهادا من قبلنا نحن إنما هو ما قررته محكمتنا الدستورية العليا ،حيث ذهبت إلى أن:

«نص المادة الثانية من الدستور غير نافذ بذاته ويتضمن فى حقيقته خطابا موجها إلى المشرع لحثه على إعادة النظر فى التشريعات القائمة وفقا لمبادئ الشريعة الإسلامية التى يجب أن تصدر التشريعات الجديدة متوافقة معها. فالخطاب فى هذا النص الدستورى موجه إلى المشرع لا إلى الكافة ولا إلى القضاء وبهذه المثابة فإن مبادئ الشريعة الإسلامية لا يكون لها قوة إلزام القواعد القانونية إلا إذا تدخل المشرع وقننها أما قبل ذلك فإنها لا تعدوأن تكون مصدراً موضوعيا للتشريع».

وأضافت المحكمة الدستورية أنه: لو أراد المشرع الدستورى جعل مبادئ الشريعة الإسلامية من بين القواعد المدرجة فى الدستور على وجه التحديد أو قصد أن يجرى إعمال تلك المبادئ بواسطة المحاكم التى تتولى تطبيق التشريعات دون ما حاجة إلى افرادها لنصوص تشريعية محددة مستوفاة للاجراءات التى عينها الدستور لما أعوزه النص على ذلك صراحة : (حكم المحكمة الدستورية العليا طعن رقم ٢٠/ ١ ق جلسة ١٩٨٥/٥/٤).

١٣- دعاوى الحسبة تتعارض مع المادة ٤٠ من الدستور التى كفلت مبدأ المساواة بين المواطنين:

أرسى الدستور المصرى الصادر عام ١٩٧١ فى المادة ٤٠ منه مبدأ المساواة بين المواطنين أمام القانون وحظر كافة أشكال التمييز بين المواطنين بسبب الدين أو الجنس

،حيث نصت على أن:

«المواطنون لدى القانون سواء، وهم متساوون فى الحقوق والواجبات العامة ، لا تمييز بينهم فى ذلك بسبب الجنس أو الأصل أو اللغة أو الدين أو العقيدة».

وحيث إن قوام فكرة دعاوى الحسبة هو منح المواطن المسلم الحق فى رفع دعاوى الحسبة وسلب المواطن غير المسلم هذا الحق فإنها بذلك تقيم تمييزا بين المواطنين قائما على تفرقة دينية..كما تقيم تمييزا آخر بسبب الجنس،عندما تمنح الذكر المسلم حقوقا أوسع مدى من تلك التى تمنحها للمرأة المسلمة . وبذلك تتعارض دعاوى الحسبة مع مبدأ المساواة الدستورى.

ومن المستقر قضائيا أن مبدأ المساواة لا يسرى إلا على من يشغلون مركزا قانونيا واحدا ،وفى حالتنا توجد وحدة فى المركز القانونى بين المسلمين وغير المسلمين فى بعض منازعات الأحوال الشخصية .حيث تخضع منازعات غير المسلمين الشخصية للشريعة الإسلامية فى أحوال معينة ، وفى ذلك تقول محكمة النقض:

«مؤدى المادتين السادسة والسابعة من القانون رقم ٤٦٢ لسنة ١٩٥٥ بإلغاء المحاكم الشرعية والملية أن ضابط الإسناد فى تحديد القانون الواجب التطبيق فى مسائل الأحوال الشخصية للمصريين هو الديانة ، بحيث تطبق الشريعة الإسلامية على كل المسلمين وغير المسلمين المختلفين فى الملة أو الطائفة .، وتطبق الشريعة الطائفية على غير المسلمين المتحدى الملة والطائفة، (نقض الطعن رقم ٢٩ لسنة ٤٧ ق جلسة ٧٩/٣/٢٨ س ٣٠ مج فنى مدنى- ص ٩٦٨) ،كما تشترك المرأة المسلمة مع المواطن المسلم فى ذات المركز القانونى فيما يتعلق بمنازعات الأحوال الشخصية.

١٤- فكرة النظام العام كما يعرفها القانون الوضعى المصرى لا تتسع لدعاوى الحسبة:

تقوم فكرة النظام العام على مذهب علمانى عام يطبق على الجماعة بأسرها ، رغم اختلافهم فى معتقداتهم الدينية . وتطبيقا لذلك لا يمكن أن نعتبر تعدد الزوجات جزءا من النظام العام يخضع له المواطنون المصريون غيرالمسلمين ،رغم كون الإسلام دين غالبية السكان والدين الرسمى للدولة،ورغم أن مبادئ الشريعة الإسلامية المصدر الرئيسى للتشريع . وهذا الفهم مستمد من أحكام محكمة النقض المصرية حيث ذهبت إلى:

«وحيث أنه وإن خلا التقنين المدنى والقانون رقم ٤٦٢ لسنة ١٩٥٥ من تحديد المقصود

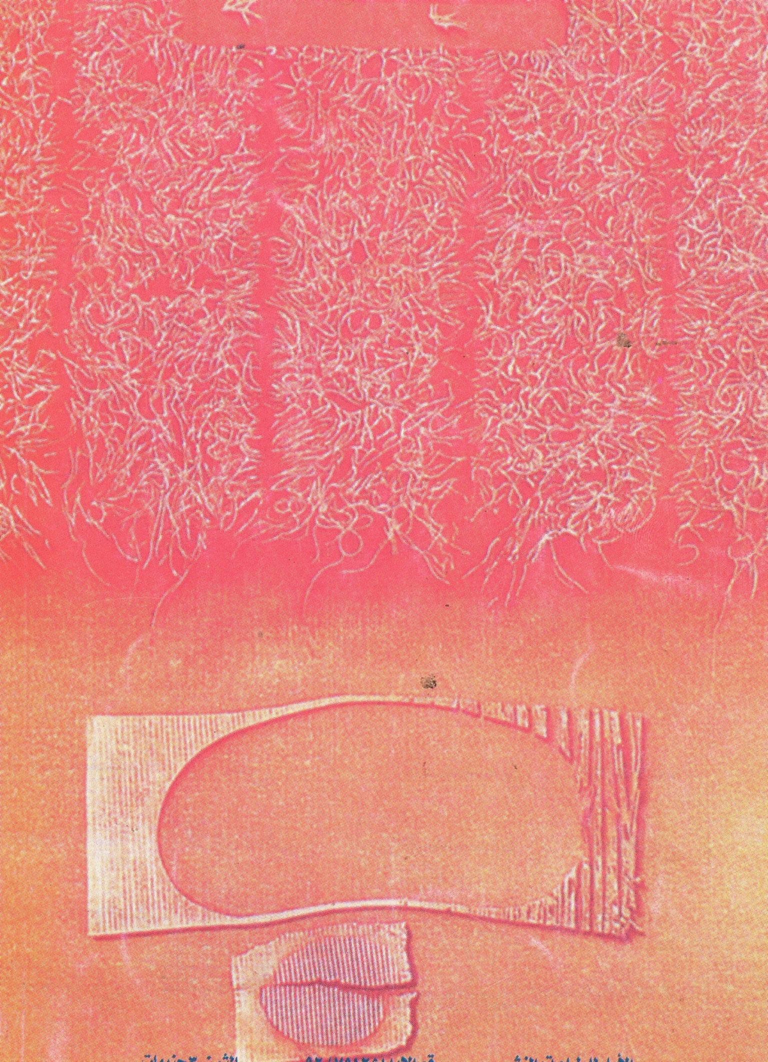
بالنظام العام ، إلا أن المتفق عليه أنه يشمل القواعد التى ترمى إلى تحقيق المصلحة العامة للبلاد ، سواء من الناحية السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية ،والتى تتعلق بالوضع الطبيعى المادى والمعنوى لمجتمع منظم، وتعلو فيه مصالح الإفراد ، وتقوم فكرته على أساس مذهب علمانى بحت.يطبق مذهبا عاما تدين به الجماعة بأسرها ، ولا يجب ربطه البتة بأحد أحكام الشرائع الدينية ،وإن كان هذا لا ينفى قيامه أحيانا على سند مما يمت إلى العقيدة الدينية بسبب ،متى أصبحت هذه العقيدة وثيقة الصلة بالنظام القانونى والاجتماعى المستقر فى ضمير الجماعة بحيث يتأذى الشعور العام عند عدم الاعتداد به ،مما مفاده وجوب أن تنصرف هذه القواعد إلى المواطنين جميعا من مسلمين وغير مسلمين بصرف النظر عن ديانتهم ،فلا يمكن تبعيض فكرة النظام العام وجعل بعض قواعده مقصورة على المسيحيين وينفرد المسلمون ببعضها الآخر، إذ لا يتصور أن يكون معيار النظام العام شخصيا أو طائفيا، وإنما يتسم تقديره بالموضوعية متفقا وما تدين به الجماعة فى الأغلب الأعم من أفرادها (انظر فى ذلك الحكم فى الطعنين رقمى ١٦ ، ٢٦ لسنة ٤٨ ق والصادر فى ١٧ يناير ١٩٧٩ –أحكام نقض– س٣٠– العدد الأول –ص٢٨٨ وما بعدها).

أى أن معيار النظام العام لا ينبنى على أسس شخصية أو طائفية ، ولا يرتبط بأحكام أحد الشرائع طالما لم تتضمن تلك الأحكام فى النظام القانونى .فالقول بأن دعاوى الحسبة تستمد سندها من فكرة النظام العام ،إنما يعنى الأخذ بمعيار يؤدى إلى تبعيض وتجزئة فكرة النظام العام حيث يقيم تفرقة على أساس دينى بين المواطنين بأن يمنح المسلمين منهم حق رفع دعاوى الحسبة ويحرم غير المسلمين من هذا الحق .كما يقيم تمايزا بين الذكور والإناث داخل أبناء الدين الواحد ،وهو الأمر الذى يهدم فكرة النظام العام من أساسها.

النتائج:

١– ضرورة تقنين ما يراه المشرع من أحكام الشريعة الإسلامية فى قانون، وإلغاء الإحالة الواردة فى المادة ٢٨٠ من اللائحة للراجح من المذهب الحنفى.

٢– إضافة نص جديد إلى اللائحة يقضى صراحة بسريان قانون المرافعات على منازعات الأحوال الشخصية وذلك فيما يتعلق بتحديد شرطى الصفة والمصلحة فى رافع الدعوى وهو ما يعنى إلغاء دعاوى الحسبة من قانون الأحوال الشخصية.



الأمل للطباعة والنشر رقم الإيداع ٧٥١٢ / ٩٢ «الثمن: ٢ جنيهات»